ظالمايا

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2753/ 6/2014

813.9
المفتي، محمد سيف
ظالمايا- محمد سيف المفتي- عمان: دار فضاءات، 2014
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-597-0

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
ظالمايا- محمد سيف المفتي- العراق

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

محمد سيف المفتي

ظالمايا

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الاهداء

أولا اليكَ يا من أغدقتَ عليّ في صغري كتباً تحمل بين صفحاتها قلبكَ الكبير، بعد رحيلك كتبتُ لأواسي نفسي.

الى أبي رحمه الله.

ثم أولاً ايضاً، الى الزهراء التي روت أزهاري كما اعتنت بادغالي، شكرا لك يا نبع عطاء لا ينضب.

الى أهلي و اصدقائي الذين لا زالوا يعيشون في ظالمايا ورغم معاناتهم لازالوا يمنحوني حبا بلا حدود. محبتي لكم جميعاً.

المفتي

النرويج 2014

(1)

خرج مايكل الشاذلي من بار رودالوكا، واحتاج الى وقفة قصيرة ليترك النسيم يداعب وجهه المنتشي، مستريحاً من صخب ليلة حافلة بالكحول والموسيقى.

أستغرق في ابتسامة طويلة أدار معها رأسه في الاتجاهين، تفاعلت معها فتاتان خرجتا من البار، كان قد راودهما خلال الليلة، بتلويحه قابلها بقبلتين سريعتين حاول طبعهما على الوجهين الباسمين، غير أنهما تاهتا منه وهو يتعثر على الرصيف، فضحكتا بغنج غير مباليتين لعثرته، ولما اعتدل واقفاً لم يجدهما. فرش ذراعيه في الهواء كنوارس اوسلو عندما تطير فوق خليجها، رافعاً رأسه إلى السماء في نصف إغماضة عين، فاتضحت ملامحه الشرقية ببشرة حنطية، لم تستطع طول قامته وشعره الأشقر تمويهها.

ليلة أخرى من ليالي الصيف النرويجي المتوقفة عند لحظة غروب لا تنتهي، يمارس مايكل الطقس المعتاد كمبتهل بانتظار الشروق الذي بات قريباً، تماماً عند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

سار عبر شارع كارليوهان باتجاه كرونلاند في طريقه الى البيت. كانت فوضوية ليلة السبت الاجتماعية على عتبة الأفول، شابات مترنحات وشبان بنصف وعي، عرايا وشبه عرايا. لمح في عطفة الشارع بائع زهور ملتح ارتسمت على جبينه علامة سجود عريضة، كان يتعامل مع الشبان بخفة

مدربة لإقناعهم بشراء زهوره الغالية كمفتاح لقلوب الفتيات، وعلى مسافة قريبة كانت مبرقعة مطأطأة الرأس تحث الخطى خلف زوجها وكأنها تخشى إن رفعت نظرها سترى ما يخدش الحياء، و شابة نرويجية تسحب بدلال شاباً من ربطة عنقه.

وصل الى شارع كرونينا حيث الهدوء، كان المدمنون من الفقراء متناثرين على الأرصفة كبقايا حفلة ماجنة. سمعَ صياح عدد من الشبان المتشاجرين على النفس الأخير من سيجارة الحشيش.

استوقفته قبلة طويلة استغرق فيها اثنين في البعيد لم يستطع تحديد جنسهما، كانا منصهرين في بعضهما، في حين ارتفع صوت ذكوري دافئ يصدح بأغنية نرويجية لقوم الساما يغنيها رعاة الوعول، تحولت الى بكاء ثم ضحكة متقطعة اختفت مع اقترابه من ذلك المقهى الفقير بالزبائن ذو النور الخافت. ميزة المكان الوحيدة أنه كان مفتوحاً ولا تزال كراسيه منثورة بعشوائية على الرصيف عند الزاوية الأخيرة من شارع كرونيا على الجهة المقابلة لسجن أوسلو بأسواره الرمادية العالية، التي تبعث على الحزن الفوري.

وصل النادل بسرعة مع كأس بيركابين، لم يكن هنالك سوى زبونين آخرين يتجاذبان أطراف الحديث، يرتفع صوتهما حيناً وينخفض الى حد الهمس حيناً، وهو يتفاعل مع ذلك بسعادة لكونه يفهم اللغة التي كانا يتحدثان بها، فشعر للحظة انه يرتدي طاقية إخفاء.

فجأة قال احدهما، وكان شاباً في عقده الثاني:

''آه يا ظالمايا''.

التفت مايكل على الفور، فتوقف الشاب عن الحديث مندهشاً، تسمرت نظرة مايكل فيه بعض الوقت، ثم هز رأسه بما يشبه التحية، والتفت عائدا الى كأسه وأخذ جرعة كبيرة، بينما شيء منه ذهب الى البعيد، الى أكثر من عشرين عاماً، الى سريره الوثير وأبيه سلمان الشاذلي جالساً بجواره يروي له حكايات ظالمايا و باكورستان.

''بيركابين''، أشار مايكل بقدحه للنادل، ثم ابتسم للذكريات التي بدأت تنمو مجدداً في رأسه، فاستسلم لها ولإحساسه اللذيذ بالسفر عبر الزمن.

كان والده من المهاجرين القادمين من باكورستان الى النرويج، كافح طويلاً لتحقيق شيء من أحلامه، لكن قلبه لم يمهله طويلاً، ليترك بموته المبكر مايكل وأمه أنيتتا لوحدهما في مواجهة الحياة، لكنه وعلى الرغم من قصر الفترة التي قضاها مع ابنه تمكن من زرع بذور حب باكورستان في قلبه، تحولت بمرور السنوات الى غابة عشق.

ورث مايكل عن أبيه حبه للغير، وخصوصا المسيّرين الذين فرضت الحياة عليهم شروطها، يستلذُّ بالعطاء لأجل العطاء، لهذا عشق عمله في منظمة ''Redd barna'' ويعني اسمها باللغة النرويجية ''انقذوا الاطفال''. عمله هذا منحه الفرصة لتحقيق سعادته بالعطاء، وهذا مفهوم يتعلق عنده بالحب.

بعد ارتباط امه من جديد، وهجرتها الى أمريكا، بقي وحيدا يحيطه جيش من الاصدقاء، قضى أكثر من نصف عمره في المقاهي و البارات.

يعتبر حبه للنساء عطاء ايضاً، وكما كانت مشاريعه في مختلف بلدان العالم قصيرة الأمد كذلك كان حبه للنساء، وكما كان عطاءه ينتقل من بلد لآخر كان كذلك حاله مع النساء.

عندما أعاد الشاب أسم ظالمايا مرة ثانية، شعر أن وجوده في هذا المكان و في هذه الساعة ليس مجرد صدفة عابرة، وأن الرب قد قدَّر له أن يجلس هنا ليلتقي بهذا الغريب، وقد تكون ظالمايا محطة جديدة من محطات حياته المتلاحقة.

أدار كرسيه للشاب والرجل الذي يحدثه، بادرهما بالسلام باللغة العربية، فابتسما رادين له التحية، ثم انخرطوا في حديث أزالت عنه نشوتهم الحواجز بسرعة ويسر، سأل مايكل عن ظالمايا وعن الذي حل بها في السنوات الاخيرة، وأخبرهم عن صلته المقطوعة بها.

واصل الشاب حديثه مع مايكل عنها بعد انصراف الثالث، ولم يكن يتوقف حديثه إلا عندما يغلبه السكر، وكلما تعسرت ولادة كلماته يحثه مايكل بسؤال أو يطلب له ولنفسه فنجان قهوة جديد متآمرا على سكرتيهما.

حكى الشاب عن وجع مدينة تئن من جراحها العميقة، التي تحولت بمرور الزمن الى ندب تنزف لأبسط لمسة، كان مايكل يحس بصدق كلماته متيقنا من أن الحزن في باكورستان و ظالمايا قد ازداد تطرفا عمّا كان عليه في زمن ابيه.

سكت الغريب للحظة، فشعر مايكل بأن الكون قد هجع وهو غارق في ذكرياته البعيدة، سأله إن كان يستطيع مقابلته مجددا، فأجاب الشاب وهو يمد يده مصافحاً:

''ستجدني في هذا المقهى التعيس كل يوم''.

ثم تابع وهو يتحسس جيبي بنطاله:

''أنا أبو مريم، أسأل عني أي عربي تجده هنا وسيدلك ''.

أجابه مايكل ماداً يده وهو ينظر في عينيه:

''أنا مايكل الشاذلي''. تصافحا بحرارة قبل أن يغادر المكان.

لم يسأل عن اسم ابي مريم الصريح. لأن حال ذلك المقهى حال معظم مقاهي الأجانب، التي يعرف معظم روادها بعضهم البعض بأسماء الكنية للضرورات الأمنية.. معظمهم بدون إقامات و مصادر رزقهم مجهولة.

مشى باتجاه شقته، وقد بدأت الشمس تنير واجهات العمارات، وفي زوايا معينة كانت اشعاعات حمراء مذهبة تنعكس على بعض الشبابيك لتعطي المدينة شعورا بالبهجة. ظل وجه ابيه يرافقه طوال الطريق، سمع صوته وهو يغني للغربة وللوطن و الصبا والاهل.

عندما فتح باب شقته، شعر بوجود ابيه فيها، شعر بأنفاسه قريبة منه. دخل الصالة المفتوحة على المطبخ بأثاث بسيط يناسب حياة شاب اعزب.

أخذ علبة بيرة من الثلاجة وأطل من الشباك على خليج اوسلو. تذكر أن

اباه كان يردد كثيراً "آه يا ظالمايا" بنفس الحرقة التي بدت على أبو مريم. قال لنفسه وهو ينظر في الأفق: هناك خلف العالم تقع ظالمايا و بقيت عيناه معلقة بالأفق. تلك المدينة التي رسمها له ابوه، مدينة تحاصره بالكامل، عاش طفولته وهو يستمع الى جرس اسمها، عن قصصها التي اجترها أبوه طيلة فترة حياته، تسمعها أمه تارة و يستمتع هو بها تارة أخرى. غاص في كرسيه أمام الشباك. جاء صوت ابيه يحدثه عنها بنفس النبرة والحب.

"ظالمايا السفلى قريتي، قرية منكوبة بفقرها المدقع، حتى المعمرون فيها ما عادوا يتذكرون آخر حدث سعيد طرق بابها. فقراؤها يختلفون عن فقراء المدن الكبيرة، فيما مضى كانوا يأكلون من أعشابها وأشجارها الوفيرة التي يملكها الله، يأكلون الخبّاز يوماً وينتظرون موسم الفطر يوماً، لكن مشكلتهم بدأت حين لم تعد هناك أرض بلا مالك.

منذ الأزل وقريتي في أسفل الوادي الأخضر، لا يتذكر جيلي ولا حتى الأجيال الأخرى أنها كبرت أو صغرت.. عوامل التعرية قد فعلت فعلها وتكفل الفقر بصيانة الخراب فيها..

نتفاخر بتاريخ من الخيال، تاريخنا خالي من الأمجاد، نحن محمومون بقصص (أبو ماجد الحطاب)، رجل لا أعلم من ابتكره، وبطولات رجالات سكنوها، يذكر لنا الآباء و الأجداد كيف وقف أبو ماجد وحده في وجه الجيش الأعجمي، رغم أنه لا يوجد مؤرخ يؤكد هذه البطولات، قصص توارثناها جيلاً بعد جيل. أما متى عاش ومتى مات فهذا أمر تختلف

حوله الآراء، لذا بات رمزاً يمثل لنا البطولة والشهادة في كلّ الأزمان... إنه هرمنا"

تذكر مايكل ابتسامة ابيه الساخرة عندما كان يقول هرمنا، وينفخ دخان سيجارته بشجن بعيداً، ويكمل حديثه بنفس الهمة.

"لو قلت لأي شخص من قريتي بأن المؤرخين ينكرون وجود هذه الشخصية الأسطورية فجوابهم سيكون موحداً وجاهزاً.

"وهل يفهم المؤرخون أكثر من أهل القرية الذين عاشوا معه، يا لغباء المؤرخين"..!

الطريق الذي يربط ظالمايا بالعالم الخارجي يتعرج على سفح الجبل وكتفه متسلقاً إلى القمة كثعبان، يلمع زجاج سيارة هنا أو هناك من حين لآخر، فيعلم الناظر أنه ليس ميتاً وإنما هو ثعبان يحتضر".

نهض مايكل من كرسيه، شعر باشتياق فوق العادة لأبيه، تبخر تعبه فجأة، دخل المطبخ وملأ كيس القهوة ووضعه في الماكينة، وابتسم راضيا عن قراره بعدم النوم.. عندما سمع صوت الماء يقرقر في الماكينة عاد الى الشباك، شعر فعلا بأن روح ابيه حاضرة بجانبه. نظر الى العمارات والشوارع الموزعة بانتظام أمامه، وتذكر طريقه الذي سلكه اليوم خلال المدينة، العمارات بمكاتبها وشققها وزهريات الورد في شرفاتها، وتذكر وصف ابيه لظالمايا في تلك الليلة البعيدة عندما سأله ذات يوم عن معالمها.. كان ابوه قد سكر وجلس في نفس مكانه المعتاد.. خلف ذات هذا الشباك.

"عندما تطوف يا ولدي في شوارعها وأزقتها، و تتأمل الدور والشبابيك والأبواب.. منها ما يزال مبنياً من الطين وقسم من الدور بنيت فيها حجرات من الحجر، وبيوت حديثة من الطابوق بنيت قبل عقود.. كلها تعاني من أكزيما التعرية.. أعتقد أن بيوتنا بحد ذاتها كافية لتجعل حياتنا بلا طمأنينة. تلك الجدران المؤقتة من الخشب، ثُبتت عليها صفائح معدنية بمسامير، ما زال الكثير منها يعلن عن اصله. صفائح حليب وصفائح الدهن، وكثير من الجدران تقاوم السقوط لذلك لا توجد استقامة بين الجدران.

شعر مايكل بضيق نفس عندما تذكر ذلك الوصف، دخل الحمام ووقف طويلا تحت الماء الحار ليختمه كعادته بالماء الساقع.. خرج متورد الوجه، استمتع برائحة القهوة التي احتلت الشقة، ملأ كوبه بحيوية قبل أن يحتل مكانه امام تلفازه السينمائي (خمسين بوصة)، ابتسم لطيف والده الواقف بجوار التلفاز، وتذكر كيف روى له قصة دخول التلفاز الى قريتهم. هز رأسه وأغمض عينيه مبتسما و مستمتعاً بتكملة الرواية.

"عندما وصل التلفاز إلى القرية في الستينات من القرن الماضي، اشتراه صاحب المقهى الوحيد هناك، وكان تشريفه حدثاً قادراً على كسر رتابة حياتنا الفقيرة بكل شيء"..

تذكر كيف كان يرفض إكمال القصة إلا بعد أن يتوسله وهو راقد في سريره، فيقبل والده وجهه بحنان دافئ، و اقشعر حين شعر بشفتي ابيه تلامس خده، وهو يقول:

"على عيني يا بني، سأحكي لك قصة معتز صاحب المقهى.

كان في الستين من عمره، ورث المقهى عن أبيه وشاخ معه كما فعل ابوه من قبل، رسمت سنوات عمره القاسية خطوطاً عميقة على وجهه، يسلم على كل زبائنه بتودد مفرط يشبه التوسل ليعيدوا زيارته التي لم تكن تتكرر.

لم يكن موضوع التلفاز حديث الساعة، بل حديث اليوم والاسبوع والاشهر وطال النقاش بشأن شرعية وجوده بيننا.. فذاك يحلل وذاك يحرم ومن يكفر يكاد يكفر من يحلل.

أما معتز فكان همه وشاغله الوحيد هو عودة الزبائن الى المقهى. كان المكان نظيفاً، يعتني بأرائكه وكراسيه على قدر ما تساعده محفظته الفقيرة دائما بالنقود، لكن جهده لم يثمر عن مزيد من الزبائن.

كان معتز يأتي في الصباح ويبدأ يومه بالسجائر، التي يضع علبها بدقة عالية على الجانب الايمن من منضدة الادارة عند مدخل المقهى ويجلس على ذات الكرسي ذو الاقدام الحديدية الصدئة الذي ورثه عن ابيه، والمقعد الذي هو عبارة عن قطعة من الخشب عليها وسادة محشوة بشكل جيد والمقبضان عليهما بقع سوداء في المنتصف لكثرة ما يشد عليهما عند اليأس. موقعه تم اختياره بدقة، إذ يرصد منه أي طلب يأتي من زبائنه الذين يتوزعون على الأرائك الاثني عشر والتي تقابل بعضها البعض وبينهم المناضد، يريد أن يمسك بأي حركة قبل أن يبدل الزبون رأيه، ويتابع حركة صبيه (سلام) ابن العشرين، وكان صديقنا. طول قامته و وسامته المفرطة لا تتفق مع عمله ،

ينظف الأرض والمناضد، ويرش مدخل المقهى بالماء.. عندما يشم معتز رائحة التراب المبلول يشعر بنشوة المدمنين، تنبسط اساريره لرؤيته يعمل بنشاط ومواظبة، ينفذ صبره حين يتأخر الزبائن، يتربع تارة على مقعده وتارة ينزل قدميه. ثم يطلب من صبيه النرجيلة... بعد هدوء وتأني بأخذ النفس الأول والثاني الثالث يبدأ بسحب الانفاس تباعاً وينفث دخانه الكثيف بعدائية، ثم يبدأ بالصراخ على صبيه طالباً منه أن يبدل فحم النرجيلة، ويلومه على التأخير، ثم ينهال عليه بالإهانات محملاً إياه مسؤولية انتكاسة المقهى."

يسكت والده ثانية ويسأله:

هل ستنام؟

لا يا ابي، لن أنام أكمل لي هذه القصة.

فيبتسم الأب ويقبل جبينه ووجهه مجدداً، ويحضنه طويلاً.

دمعت عينا مايكل أمام هذه الذكرى التي لن ينالها ثانية، وشعر بطعم الدموع المالحة في زاوية فمه...مسحها وتنهد وهو يحس بدفء صدر أبيه يضمه اليه وهو يقول:

"طيب حبيبي سأكمل لك الحكاية، كان سلام، والذي سيبقى اسمه صبي معتز حتى لو بلغ الأربعين، يتحرك بحركات سريعة نتيجة للغضب المكبوت في داخله، ويلعن معتز في سره ويعض على نواجذه ليكبح غيضه، لا يجرؤ على الرد عليه لكي لا يصبح جليس شارع حاله حالنا، لم تكن لدينا القدرة على دفع ثمن ولا حتى فنجان واحد من القهوة... كان سلام يواسي

نفسه ويقول بصوت خافت "والكاظمين الغيظ.. والكاظمين الغيظ ".. فيفاجئه صوت معتز صارخاً به:

هل قلت شيئاً؟

فيجيبه بكلمة واحدة ليبتعد عنه

"لا"..

"ويبلع إهانته مستمراً في عمله بصمت. كل ما زرعه معتز في المقهى كان بلا حصاد... لأنَّ جيوب الأهالي كانت خاوية ولم تمطر يوما على مزروعاته، والتسجيل في دفتر الديون بات آفة تأكل ميزانية المقهى".

نهض مايكل، سار بتؤدة وقد أشعل سيجارة جديدة، وقف أمام الشباك، تأرجحت أفكاره بين الماضي والحاضر، استعاد صوت ابو مريم:

"آه يا ظالمايا "... وسمع صوت ابيه يرددها خلفه بنفس الحرارة.. نظر الى يمينه فشاهد جامع كرونلاند، بفسيفسائه المشتقة من اللونين الكحلي والسمائي والمنارتان المنقوشتين بالأحرف العربية. ذكره المنظر بدور الشيخ عبد العليم في القرية كما حدثه ابوه عنه، كانت أمه مهتمة بسماع هذه الرواية التي حدثهما عنها بمناسبة افتتاح اول مسجد في أوسلو.

" الشيوخ يا ولدي في بلادنا يتدخلون في كل شيء حتى في طريقة استخدامنا للخلاء.. كان الشيخ عبد العليم، من المعارضين بشدة لدخول التلفاز إلى القرية، ويقول للناس "إن رب العالمين سيطالبكم بأن تعطوا تلك الأشكال والصور المتحركة في ذلك الصندوق روحاً يوم القيامة، ولن

تستطيعوا فعل ذلك وعندها سيكون مقامكم في سقر".

كان للشيخ كلمته المسموعة خاصةً إذا نطقها في ملعبه على المنبر وهو يرتدي جبته وعمامته التي تعطيه سلطةً لا تُعارض، حينئذ يصبح كل من يعارض كلمته زنديقاً خارجاً على الدين.. رغم ذلك توسّط بعض الوجهاء بتوجس ليخفف الشيخ من حدة هجومه على التلفاز من على منبره أيام الجمعة، لأن ما يقوله هناك يشبه الفتوى. المسكين معتز كاد يموت من الخوف، دعاه ليوم الافتتاح لكن الشيخ رفض الحضور. كان مرعوبا من أن يصدر الشيخ فتوى بتحريم التلفاز... وبهذا ينتهي آخر أمل له بإعادة الحياة الى المقهى.

خصص معتز يوم تدشين المقهى للتلفاز الجديد للوجهاء والرجال فقط، ولم يسمح للشباب بالدخول اليه لضيق المكان، على الرغم من أنه كان قد اشترى اريكتين وعشرة كراسي إضافية حشرها حشراً داخل المقهى.

الحاج شهاب الدين أو كما طاب لأهل القرية تسميته بـ (أبو محمد) كان من أول المدعوين إلى المقهى، كان بمكانة مختار القرية وكبيرها... لبس أفضل ما لديه وشاهدناه يتبختر في مشيته إلى المقهى بقامته المتوسطة وكرشه الصغير. كانت خطواته رتيبة وبطيئة تبعث رسالة مفادها أن عمره يتأرجح بين الشيخوخة والنضج، وكان حليق اللحية وله شارب رفيع يبدو كانه قد رسم بالمسطرة، منتصف المسافة بين الشفة العليا وأنفه.

كان يرتدي دشداشته البيضاء وفوقها السترة الجوزية ذات الأزرار

العسلية، ويحمل في يده مسبحته العقيق لتكتمل بها مستلزمات الهيبة والوقار. عندما دخل المقهى وقف الجميع مرحبين، ولم يجلسوا إلا بعد أن جلس هو أمام التلفاز في المكان الذي بقي شاغراً ينتظر وصوله، تعالت اصوات السلام بينهم، وما أن هدأت حتى رحب معتز بالجميع ثانية، وطلب من صبيه أن يشغل الجهاز ثم يقدم الطلبات للضيوف. كانت كلماته تقطر فخراً بإنجازه. في هذه اللحظة تركوا النرد وشدة الورق جانباً وتحركت ايديهم كحركة الرجل الآلي رافعة المشاريب الى شفاههم بينما عيونهم مركزة على الشاشة الصغيرة.

كانت لمعتز قناعة تامة بأنَّ الجلوس في المقهى وشرب أيَّ شيء أمام التلفاز، سيكون سببا لإدمانهم على الحضور، وسيكثرون من طلباتهم ولن يتوقفوا حتى تمتلأ جيوبه بالنقود.. لحظات وسبّح بعض الرجال بعظمة الخالق، وبقي بعضهم مشدوهاً بالصور المتحركة. عادة كانوا يتحدثون بصوت عال، أما في ذلك اليوم فكان حديثهم همساً، ويُسمع بين الحين والحين همهمات.

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ويقول آخر بصوت منخفض وكأنه لا يجيب على ما قيل:

- قدرة الله عظيمة...

ويتمتم ثالث:

- الله الله الله.... يا الله".

كان والده يهز رأسه مبتسماً من شدة سذاجة حياتهم، ثم أكمل روايته بعد أن طلبت منه زوجته ذلك.

"كان معتز يرصد وجوه زبائنه بما فيها من ذهول واندهاش، وظلت ابتسامة الرضى صامدة على محياه، أعتقد حتى بعد أن اندس في فراشه".

تذكر مايكل كيف ضحك أبوه وهو يسأله:

- ألا تعتقد ذلك؟
- لا أعلم يا أبي، ربما، لا أعلم..

نظر والده اليه بابوة قائلا:

- أنا أعلم، بقي سعيداً حتى في منامه..

ثم ابتسم والده مجدداً وأكمل حكايته:

"أمّا نحن، شباب القرية فتجمعنا على سطح أحد المنازل المواجه للمقهى، وعلى هذا البعد لم نشاهد إلا خطوط الإشعاعات الفضية المنبعثة من التلفاز، وكانت كافية لتعطينا شعورا بالبهجة لحصول هذا التطور في حياتنا، وكان معنا شاب مُنع من دخول المقهى في ذلك اليوم على الرغم من محاولته المستميتة، شاب يصفونه بالشقي والمتمرد اسمه جاسم سليمان.. كان اشجعنا واكثرنا وقاحة، سبَّ كل الرجال اللذين كانوا في المقهى ولم يستثني من ذلك الشيخ عبدالعليم وهو مستلق على جنبه على السطح امام المقهى.. في صباح ذلك اليوم قال لمعتز سوف أدخل المقهى بنقودي، إلا أنّ معتزاً لم يوافق على طلبه وقال له ستدخله لاحقاً، اليوم الاول خصصته للرجال

فقط. لكن جاسم صاح بوجهه "أنا رجل ورأسي برأس أكبرهم".

ثم صعد على إحدى الأرائك مزمجراً وعض على نواجذه، رفع يده وهمّ بضربه لكنه أمسك عن ذلك قبل أن تهوي يده ثم نادى بأعلى صوته:

"أنا أشرف منهم جميعاً". غادر بعدها المكان مغاضباً.

سحب مايكل نفسا طويلا من عقب سيجارته واطفأها بضربات سريعة في المنفضة، وتذكر بعض نقاشات والده وأمه التي كانت تعشق الخروج والسهر خارج البيت، كان ابوه يذكّرها دائماً بمدى قناعة نساء بلاده ورضاهم بالقليل.... لم تكن تحب سماع مبرراته، لذلك كان يحكي لمايكل كيف تمتعت النسوة بأخبار التلفاز يوم افتتاح المقهى وأكتفين بذلك.. على مبدأ (إياك أعني وأسمعي يا جارة) وينسى أن كلامه موجه الى واحدة من ذوات الجواريب الحمر. مصطلح نرويجي يعنى به المناضلات الشرسات لحقوق المرأة والمساواة.

غاص مايكل في كرسيه ونظر الى السقف وكانه يتابع شريطاً مسجلاً لتلك الليلة...

كانت أمه ترغب بالخروج في تلك الليلة، وكان والده منهك تماماً بعد نهار طويل، فتوتر الجو بينهم، عندها طلب الاب من مايكل الجلوس بجانبه، وقال له سأحكي لك قصة عن نساء قريتنا ومدى بساطة طموحاتهم.

"في يوم تدشين التلفاز ظلت النساء في البيوت متلهفات لسماع أخبار

صندوق العجائب، وطردن النوم من عيونهن حتى يعود الرجال ويسمعن منهم قصته". استرق ابوه النظر اليها وعندما وجدها مصغية تبسم لأبنه قال:

"سأحدثك عن قصة أم صديقي كما حدثني عنها على لسان أخواته، كان رأس أمنا التي اعتادت على النوم مبكراً، يميل بين حين وآخر فتوقظها أخواتي، ويقدمن لها الشاي والماء مرة بعد مرة لتتغلب على نعاسها، وحين لم يكن يجدي ذلك كن يتحدثن معها عن طبخة الغد، لأنهن يعلمن أنها لو نامت فلن يجلس أبي معهن ويحدثهن عن التلفاز. انتظرن صرير الباب الذي جاء بعد أن نفذت كل مواضيع الحديث مع أمي. اعتدلت أمي في جلستها واستقبلت ابي بابتسامة، وأخواتي بالغوا بالتودد له. فقال لهم ممازحاً

أعتقد أنه قد حان موعد نومكن، نتحدث غداً.

أجبنه كلهن بصوت واحد:

" لا يا أبي لسن ناعسات، إحك لنا، إحك لنا".

توسلن اليه وجلسن فاغرات أفواههن يسمعن كيف افترس الاسد الحمار الوحشي في برنامج اسمه عالم الحيوان، وطار النوم من عيني أمي واستمر هو بالحديث حتى نهاية البث، وبقين يصغين اليه حتى أعاد الحديث عما شاهده أكثر من مرة".

تذكر مايكل كيف قطعت امه حديث ابيه بضحكة استفزازية وسألته:

"هل قلت ما عندك؟

سكت والده فأعادت السؤال مجدداً.. ثم قالت مذكرة ولم تتمكن من اخفاء غيضها بالرغم من أنها لم ترفع صوتها:

"أنت في النرويج يا رجل، وأنا واحدة من أصحاب الجواريب الحمر" وذهبت الى غرفتها وسمعا صفقة الباب، عندها زفر والده عدة زفرات متتالية وهو يهز رأسه رافضاً هذا الحال، وجلب علبة بيرة من الثلاجة فتحها وأخذ جرعة كبيرة منها قبل أن يعود الى مقعده ليكمل القصة.

"بداية قاطع الكثيرون التلفاز بحجة أنه شرك ورجس من عمل الشيطان، مساندين الشيخ عبد العليم في فتواه، لكن الشيخ نفسه تاق شوقاً لرؤيته بعد أن أخبروه بأنه جهاز ينير البصيرة... واستغل فرصة توسط الكثيرين ليبارك لمعتز جهازه.

طلب معتز من كل من يعتقد أن له تأثير على الشيخ أن يحدثه بموضوعه، إعلان مقاطعة التلفاز بات شبحاً يلاحقه..

استثمر كل ما أدخره و استدان بعض المال لأجل هذا الجهاز، في محاولة أخيرة لتحسين دخله.

في الوساطة الأخيرة تحدث الشيخ بطريقة أوحت بأنه سيوافق، فألحوا عليه بالطلب، ابتسم قائلا:

سوف أذهب وأشاهده بعيني ثم أعطي فتواي في أمره... هل هذا مفهوم؟

أيده الحاضرين، وباركوا رأيه السديد.

و أبلغوا معتزّاً برأي الشيخ. فحدد لهم معتز موعد الزيارة عند السادسة مساءاً في وقت تلاوة القرآن. تلك الزيارة شحنته بالتوتر منتظراً ما سيقوله الشيخ، فأعد لهم ما استطاع من ضيافة وكرم، وكلّما قرب موعد وصول الشيخ كلما ازداد احتقان وجهه، كمرجل على وشك الانفجار.. لا تستقر نفسه إلا بتفريغ قلقه بصبيه. عند الساعة الثالثة عصراً تحول لسانه الى سوط لاسع يتعقب سلام ويلسعه بعد كل حركة وقبل كل حركة... أما سلام، الذي لم تفارق شفته جملة "والكاظمين الغيظ" فكان يركض ذات اليمين وذات الشمال لا لسبب إلا ابتغاء مرضاة سيده، ورغم ذلك لم يسلم منه.

ذهب الشيخ عبد العليم مرتدياً قلنسوته وعليها عمامة بيضاء، وجبته السوداء المقفلة على ثوب متعب وسروال أبيض مصفر من القِدم. كان وجهه المربع الشكل، وعيناه الواسعتين البراقتين تدلان على ذكائه، حتى ان بعض الاهالي كانوا متيقنين أن الحجاب مرفوع عنه، ذلك بسبب الاسئلة التي يجيب عليها كأوراكل، كان طيب القلب، يحبه الناس ويدعونه في كل المناسبات الصغيرة والكبيرة، لكنه كان أكولاً مثل كل الملالي، لا يرفض الطعام حتى لوكان متخما، ويأكل الحلوى بشراهة قائلاً:

"المؤمنون حلويون".

يمص أصابعه ويتجشأ كثيراً ليحمد الله بعد ذلك على نعمه، رغم ذلك فإنه يسمع الناس ونفسه في كل مناسبة الحديث النبوي: "مَا ملأ آدَمِيّ وِعَاءً شَرّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ"، أو عبارة طبيب العرب

الحارث بن كلدة "المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء".

ذهب إلى المقهى تسبقه بطنه بصحبة جمهرة من رواد الجامع، وعندما وصل استقبله معتز أمام الباب، وإظهاراً للحفاوة صرخ في صبيه:

"أركض واجلب الماء وضعه على منضدة الشيخ".

ركض ولبى الطلب، وسلّم على الشيخ بحفاوة مفرطة وهو يضع قدح الماء أمامه. فتدخل معتز مقاطعاً بنبرة معاتبة:

"لا تتحدث كثيرا وتدوخ رأس الشيخ"...

ثم سأل ضيفه منحنياً بتواضع ويديه على بطنه كحاجب:

- ماذا يشتهي شيخنا أن نقدم له؟

أجابه باقتضاب وكأنه يقول له لا تحاول أن ترشيني بكرمك.

- لا شيء، الماء يكفينا.

شعر بشيء عصي على البلع يقف بحلقه، أجابه بصوت مختنق:

زيارتكم شرف لنا، وبركة للمقهى.

صاح بسلام الذي كان غارقاً في حيرته ولا يعلم كيف يتصرف ليرضي رب عمله، آمرا:

"اركض يا ولد وقدم للشيخ وضيوفه الشاي أولاً مع الماء ثم القهوة، وكن قريباً منه لتلبية طلباته. أركض".

نفَّذ كل الطلبات راكضاً ذهاباً وإياباً، على الرغم من أن ذلك لم يكن

ضرورياً، والطلبات لم تكن كثيرة... أكثر ما كان يزعجه أنه لا يعلم لماذا تُعدّ إهانته أيضاً جزءاً من الحفاوة بالضيوف..

لم يطل انتظار الشيخ حتى قال معتز:

- "سنسمع الشيخ وضيوفه تلاوة من الذكر الحكيم"..

سمع بعضهم يقول "الآن جئت بالمفيد"، واعتدلوا في جلستهم مترقبين ما سيظهر أمامهم على الشاشة الصغيرة.

استمعوا إلى التلاوة بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وطلب معتز من سلام أن يرفع الصوت قدر إمكانه، إمعانا بإدخال الخشوع في قلب الشيخ. تابعوا حركات الشيخ عبد الباسط عند التلاوة وتحركت رؤوسهم لا إراديا مع حركاته ودخلوا سويةً بحالة خشوع يصحبه انشراح مريح، وحرص معتز أن لا يظهر اي برنامج يخدش الحياء خلال الساعات التي قضوها في المقهى، وبقي متوتراً يحاول مواراة قلقه بزيادة الترحيب بضيوفه. بعدها نهض الشيخ وقال بصوت جهوري:

"الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، بارك الله لك في جهازك، وجعله سداداً ووسيلةً لتثقيف شبابنا بالإسلام".

وحين هم بالمغادرة طلب منه معتز أن يعيد زيارته الميمونة، لكنه أمسك بيده ووجه له سؤالاً غير متوقع، سأله عن ثمن الجهاز والانواع الموجودة في السوق، ووعد معتز الشيخ بمساعدته في الامر عندما ينوي الشراء، فربت الشيخ على كتفه، وغادر يسحب مريديه خلفه.

أثلجت الكلمات الأخيرة قلب معتز وعاد الوجه المتوتر لطبيعته وابتسم بصدق لزبائنه، ونادى على صبيه طالباً منه تحويل التلفاز إلى القناة الثانية لكي يسمع الحضور بعض الأغاني، وأمره أن يقدم لهم المشروبات مجاناً، ويحضر له النرجيلة، فارتسمت على وجوه الحاضرين علامات الرضى".

كان مايكل ينصت لكل كلمة مسبهلاً بابيه وهو يصف هذا العالم الغريب كعالم علاء الدين، فيحفظ تلك القصص عن ظهر قلب ليحكها في اليوم التالي فخوراً لزملائه في المدرسة، قصصا لم يسمع أي منهم مثلها.

تذكر مايكل ليال السبت، إذ عادة ما كان ابوه وأمه يخرجون للسهر ويعودون لإكمال السهرة في البيت... في واحدة من تلك الليالي كان ابوه جالسا على مقعده الدائمي امام التلفاز، ينظر الى الشاشة بشرود.. ثم التفت الى انيتتا وقد باغته حزن مفاجئ لا يتناسب مع مزاجه الرائع عندما دخل البيت قبل قليل.

"هل تعلمين لماذا أنا هنا"؟ نظرت اليه وتوقعت أنه قد سكر.. ابتسمت ونفت علمها بالإجابة.

نظر في عينيها وقال:

"إنه التلفاز... لقد كان الشيخ عبد العليم على حق".. قالت له "هل جننت"؟ قال لها:

"دعيني اروي لك ما فعله التلفاز بقريتنا.

بعد فترة من وصول التلفاز الى المقهى سُمح لنا بأن نشاهد صندوق

الصور، بذلك اكتسبنا الكثير من المعارف التي كانت غائبةً عننا، كان من الأفضل لي أن لا أعرفها، وعَلمنا أنه توجد أماكن كثيرة رائعة في عالمنا لا يحتاج المرء فيها أن يأكل ويشرب مع أبي ماجد الحطاب لينال حظه من الكرامة... يا ليتني بقيت بلا كرامة.

اتفقنا، وعلى رأسنا شيخنا الصغير جاسم، مع سلام على السهر عنده في ليلة كل خميس على الجمعة، وشاهدنا في الساعات المتأخرة من الليل سامية جمال ترقص مع مجموعة من الراقصات على أنغام فريد الأطرش.

هل تعلمين يا انيتتا أن تلك المرة كانت الاولى التي شاهدنا فيها راقصة، سافرت عيوننا وطافت بهضابها الرخامية، وتابعنا بشغف نقلات سيقانها، وعندما كانت تنتهي يئنَّ في جسد كلّ منا ذئب مكبوت. تصورنا العالم خارج بلادنا رقص وغناء ولا شيء غير ذلك....عالم فيه كل الاحلام مباحة فهزتنا فكرة الهجرة، نبذنا كل قناعات الرضى. أصبحنا فريقاً من الثائرين، حتى نُعتنا بالمرتدين، ومنع الكثير أولادهم من مخالطتنا... وتأزم الموقف بيننا حتى كفرنا برمز عزة القرية أبي ماجد الحطاب، ذلك الرمز الخيالي".

سكت ابوه متبسماً بسخرية مرّة من ذلك الموقف، وأشعل سيجارة ونفخ دخانها بعيداً وكأنه يتخلص من حسرة معتقة.

ثم أكمل حديثه:

"كانت تلك القشة التي قصمت ظهورنا. كانت آراء الناس تنتقل كالنار في الهشيم، فلان قال كذا وعلان قال كيت.. كل انتقادات الشباب

التي يسمعها الرجال اعتبروها نقدا شخصيا وحملوها الى مجلس أبي محمد، مجلس رجال القرية وصفوتها، كلهم عاطلون عن العمل، وينتظرون الفرج بلا أمل.

لكنهم يناقشون شؤؤن القرية ويتخذون قرارات مصيرية بشأنها.

طلب ابو محمد من معتز تطبيق حصار علينا، فمنعنا من دخول المقهى، منعنا على مضض، بالنسبة له كان الموضوع يتعلق بالأغلبية من زبائنه على الرغم من حاجته لكل زبون، طبّق الحصار المفروض فرضاً عليه. طلب أبو محمد من الرجال أن يعيدوا تربية اولادهم...ولم يذكرنا الشيخ بخير في خطب يوم الجمعة.. ضاقت علينا الدنيا ولم يبق لنا متنفس لثورتنا سوى الهجرة. أما أنا فكنت مقطوعاً من شجرة، قشة تقذفها الرياح كما تشاء... فمشيت مع الفصيل المهاجر. كنت ثائرا على واقعي وعلى يتمي".

استغرب مايكل من نفسه كيف يتذكر كل هذه التفاصيل، ثم تذكر كيف أن كل قصة من هذه القصص قد سمعها من والده مرارا وتكرارا، ففكر بمدى حاجة والده للحديث عن آلامه وعندما لم يكن لديه من يستمع له كان يروي هذه القصص لأبنه الصغير بكل هذه التفاصيل الدقيقة بالرغم من أنها لا تناسب سنه. تذكر ألم ابيه يوم اعترف لهم بما يعنيه بأنه مقطوع من شجرة جاء اعترافه بعد ليلة سكر من العيار الثقيل:

"وجدوني في لفافة مقذوفة بجانب الشارع، لا أب يحميني ولا أم تدفئني، طرحتني أمي كما تطرح فضلاتها، كنت نتاج علاقة عابرة بين رجل

و امراة لا أعرفهم، تمتعوا ساعة وتركوني لقيطاً بقية عمري، استعر مني عالمي فبقيت اعيش كالأدغال في الحقول".

ضحك أباه عندها بهستيرية، وانتابته نوبة بكاء مرة.

لذلك عندما وصل مايكل الى باكورستان لم يذكر اباه لا من قريب ولا من بعيد، بل قال لهم فقط أنا من أصل عربي، ولم يكن متأكدا من اسم ابيه حيث لم يذكر أيا من رجال القرية أن شخصا باسم سلمان الشاذلي قد هاجر الى النرويج. أعترت مايكل موجة حزن لشدة وحدة أبيه طيلة فترة حياته.

تذكر كيف تحولت نصف سيجارة ابيه الى قطعة من نار لسرعة تدخينه، وكيف نظر اليها مستغربا من منظرها قبل أن يسحق رأسها في المنفضة. وأكمل حديثه:

"رحل الشباب الواحد تلو الآخر إلى نورستان بحثا عن هواء نقي، وكان أول الراحلين جاسم سليمان الذي قال في آخر مرة شوهد فيها في القرية، وأمام مجلس أبو محمد في مشادة كلامية معهم:

- أنا راحل.. لكنني سأعود.. ساعتها أعلمكم.

قالها بهدوء العظماء مما أثار بشدة حنق المستمعين.

فأجابه أحد الجالسين صارخا:

- اغرب عنا... جربوع، دعنا نرى عضلاتك.

أجابهم بهدوء رزين رغم احتقان وجهه:

- سأذهب وسترى ما ستفعله عضلاتي.

هاجروا إلى نورستان لا لسبب إلا أن أول المهاجرين قادته الأقدار إليها ووصلت أخباره أنه في ارض تحقق الاحلام.. وحملتنا الرياح كل مجموعة باتجاه واسقطتنا على الأرض التي كانت تشائها وها أنذا هنا.. كما تراني".

شاهد مايكل وجه ابيه وهو يختنق بكلماته، وشعر بدفء قبلاته التي طبعها على خديه قبل أن يسرع الى سريره هاربا من ماضيه.

(2)

تاريخ الهجرة في تلك المنطقة معروف، معظم المهاجرين ركبوا المخاطر وهم يجتازون حدود الدول بطريقة غير شرعية، مختبئين تحت الشاحنات أو بين البضائع في البواخر.. اغتربوا.. تشردوا.. استغلهم المهربون في كل المحطات، وضاعوا بشخصيات مزورة يستنزفهم عمل غير شرعي. بذلوا قصارى جهدهم، مضت سنوات وسنوات جمعوا فيها المال بالدم والدموع والعرق المصبوب في المجازفات الخطيرة ليعودوا، والعامل المهم في سبب غنى الكثير منهم هو حبهم للغنى السريع، لذلك باعوا السريع (مخدرات) وعندما فشلوا ادمنوا على السريع.. عملهم بالسريع لم يكن وليد المصادفة، بل لأنهم ارادوا الوصول سريعا والعودة سريعا. عاد بعضهم محمّلاً بالثروة، وضاع الكثير منهم في المنافي البعيدة... لكن لا يوجد أحد يذكر عدد الضائعين، بل الناجحين فقط.

بدأت عودة المغتربين بعد منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، بنوا قصورهم على القمة، وسميت بظالمايا العليا. كان العائدين يحاولون مناطحة السماء من على أسطح قصورهم، وكل واحد منهم رأى نفسه فرعوناً، وبحث عن هامان المعماري، بنوا صروحاً تعكس هوياتهم.

كانوا مشغوفين ببناء الشرفات المطلة على الوادي، منظر يمنحهم نشوة المنتصر، وغرف عالية لها إطلالات كذلك على ماضيهم البعيد، وعواميد من

الرخام كأنها نازلة من السماء إلى الأرض، وإمعاناً في التركيز على الخصوصية زرعوا أشجارا سامقة بينهم وبين جيرانهم لم يكن لديهم صبر لانتظارها حتى تعلو. أرصفتهم الخارجية من المرمر.

عندما اكتفى صاحب القصر الأول بحارس يقف على الباب، أضاف جيرانه حارساً آخر أمام بيته، وجاء القصر الثالث بحارسين وبواب، ووضعوا تماثيل الأسود الرخامية على أعمدة بواباتهم، والكثير منهم استعملوا أعمدة ضوء أعلى وأكبر من أعمدة الدولة الموضوعة في الشوارع العامة. السمة الاساسية لتلك القصور هي الخصوصية، أسوار عالية وحراس على الابواب.

انتشل سكان القمة عوائلهم من مستنقع الفقر، و لم يعد الحسد عادة ذميمة بل رد فعل طبيعي على هذا الفرق الشاسع بين عالمهم السفلي وعالم القمة.

عندما سمع المهاجرون، الذين فشلوا بالوصول الى أهدافهم كسلمان الشاذلي، عن ما حدث في الوطن أجلوا زيارتهم له سنة بعد سنة ليواروا فشلهم، وخصوصاً هو بالذات، حيث لم يكن لديه من يعود إليه، في زمان بات كل شيء يقاس فيه بالدينار والدرهم حتى الاخلاق والحب كما سمع من بعض أصدقائه. كثير منهم كان قد قضى حياته في الغربة إما طريحا كبقايا السهرة على رصيف ما، أو سجيناً أو في حالة تأرجح تدوم طويلا بين السقوط والنهوض كحالة سلمان الشاذلي، الذي مات قبل أن تستقر حالته.

وبقي عامة الناس في ظالمايا السفلى ينظرون إلى الأعلى، كالفلاحين ينظرون إلى السماء مترقبين قدوم الغمام بالخير. يغضبون عندما تلتقي عيونهم بالقصور التي باتت تعانق السماء، والتي كانت شحيحة كشحة غيومهم بالمطر.

في ظالمايا السفلى حالها كحال كل القرى في الشرق. الخصوصية، كلمة مفقودة في قاموس مفردات من يعيش فيها حتى الديكة لم تحترم حرمة منزل كانت تقفز من بيت إلى بيت تلاحق دجاجة هنا ودجاجة هناك.

أسطح منازلهم تجاور بعضها أو تقابلها، وشبابيكها تتبادل النظرات.. منها تبدأ معظم قصص الحب العذري التي عادة ما تنتهي بالزواج.. كان الجار يعلم متى يأكل ويشرب ويتغوط جاره، ولا يخفى عليه متى نام مع زوجته، فإن لم يسمع عزف السرير بزقزقته المتسارعة تدريجيا قبل سكوته، فيسمع انسكاب الماء في الصباح الباكر عند الاغتسال.

في القمة يجلسون تحت القمر في حدائقهم، ويشربون المعتق من النبيذ، ويلبسون أفخر الملابس، ويقضون شهر العسل في باريس ولندن، ويرشفون الرحيق من مختلف الزهرات. أما في الوادي فالحبّ يدور في فلك ضيق... في أجمل مناسباتهم يشربون العرق، لا يسافرون، و لا يبذرون ويدخرون في كل شيء.. و كل شيء عندهم بحساب، حتى القبلات كانوا يدخرونها لليلة الخميس.

ورغم تأجج الثورة في دواخلهم ضد واقعهم، وشكواهم من حرمانهم

ليل نهار، لكنهم بقوا مستسلمين لثلاثية القسمة والنصيب والمكتوب!

لم ينم مايكل أكثر من ساعات خلال يومين، عندما دقت الساعة السابعة في صباح يوم الاثنين، كان صوت فيروز يصدح في شقته وهو يرشف الرشفة الأخيرة من كوب القهوة النرويجية الذي كان في يده قبل أن يرتدي سترته الجديدة، خرج بعدها الى عمله مبكراً.. ذهب بعيونه المنتفخة، ولكن بحماس يدفعه للعمل بعد الذي سمعه عن هموم ظالمايا، وبمجرد دخوله تابع مشروع بناء المدارس في باكورستان الذي كان قد طرحه على مديره سابقاً و انتقل باوراقه من مكتب الى مكتب.

كان محبوبا من قبل الجميع لابتسامته المشرقة التي لا تفارق وجهه ولكياسته مع زملائه، قابل مديره وحكى له ما حدث معه في عطلة نهاية الاسبوع، وتحدثت كل جوانحه لتشرح ما قاله ابو مريم، وبهذا الحماس استحصل الموافقات المبدئية للتعجيل بمشروعه، وبقي مبتهجاً طوال اليوم بعدما قال له مديره:- أنا أؤيدك جملة وتفصيلاً.. ما أن انتهى الدوام حتى حث خطاه الى المقهى.

شاهده من بعيد جالساً على مقعده وكأنه لم يفارقه، عندما اقترب وجده شارداً، وكان وجهه خيرعنوان للذهول، تمعن في وجهه وبملابسه المهلهلة وحذائه المهترئ. اقترب منه وسحب كرسيا وجلس قبالته، خلع سترته ووضعها على كتف الكرسي. سلم عليه فأجابه مرحبا به، وكأنه أستيقظ من حلم. ابتسم مايكل ابتسامة رضى، لأنه كان يتوقع أنه لن يتذكره.

قال ابو مريم:

- كم أنت انيق.. ببنطال كاوبوي وسترة رسمية.. نحن لا نفعل ذلك في بلادنا.

شكره مايكل مبتسماً، وقال له وهو يثبت نظراته في عينيه مباشرةً:

- هل كنت واعيا لما قلته لي البارحة عن ظالمايا... أم كنت ثملاً؟

أمال ابو مريم رأسه وأجاب بنبرة معاتبة:

- إنها قريتي التي ولدت ونشأت فيها، هذه قريتي التي حدثتك عنها يا مايكل.

تحفزت حواس مايكل ليسمع المزيد عنها.

- حدثني عنها بالتفصيل، هل هناك مباني جديدة ؟ هل تم فتح شوارع جديدة؟

" كل شيء فيها يتدهور، حتى أهلها، ومناطقها.. هذا التغير كان بسبب نظام الصرف الصحي الذي يعمل بشكل مثالي في أعلى الجبل وعلى السفوح، ثم يتحول من نظام مغلق إلى نظام مفتوح بجوار بيوتنا الخائبة. عدة جداول تحمل معها بغزارة كل ما يفرزه جسم الإنسان والحيوان بالإضافة إلى الفضلات بشتى أشكالها تسيل باتجاهنا.

تدخل هذه الجداول الى أحيائنا لتصبَّ في الحي القديم، في بعض الأحيان تتجمع قطع معدنية مع بعضها البعض وتتوشح بالأكياس

البلاستيكية لتشكل في نهاية المطاف سداً في الحي القديم يوقف مجرى الماء ليكون بحيرة من المياه الآسنة أمام الحي. كانت سعادة الأطفال بتلك البرك أضعاف حجم أحزان الكبار.

أذكر منظر الأطفال حفاة يشقون طريقهم ببهجة عبر مياه الصرف الصحي. لم يوبخهم أبٌ يوما فقد كانت هذه إحدى وسائل الترفيه القليلة التي كانت في متناول أيديهم.

كانوا يلعبون لعبة الحرب، يضعون عصاة بين سيقانهم على أنها أحصنة، يقبضون عليها بإحدى ايديهم، وعصاة باليد الأخرى على أنها سيف ويركضون في تلك المياه، بينما العصي تشق الماء فيبتلون بمياه الحرب المليئة بالأمراض وعندما يصاب أحدهم بطعنة سيف.. يقع في المياه بلا أي رادع.. تباركه ابتسامة خصمه.

مع زيادة عدد السكان في أعلى الجبل أصبح منظر تلك البحيرات جزءاً من طبيعة المكان. مشكلة لا تحل إلا بتبرع بعض الشبان، وكان الجالس امامك من بينهم، نسحب بناطيلنا وأكمامنا ونخوض في البحيرة لنفتح السد. لذلك وضعنا أحجارا لننتقل بواسطتها من جهة الى أخرى عندما يطوف الحي.

هذا الموضوع كان سبباً مباشراً لهبوط أسعار البيوت في الحي القديم، ليس في الأمر أي غرابة، فالناس تخنقهم النتانة".

استمر مايكل بطلب المزيد من التفاصيل ولم يبخل ابو مريم بذلك فراح يروي بسلاسة، يقطعها بين الحين والحين بعض المارة الذين يسألونه عن السريع فيعطيهم حبة ويقبض النقود.

ويبتسم لمايكل ويسترسل مكملا قصته. ولكن عملية البيع تلك اقلقت مايكل، وفي اللحظة التي دس ابو مريم يده في جيبه وأخرج حبة وابتلعها بسرعة، سأله مايكل مستجوباً:

- ما هذه الحبة؟
- السريع.... مخدرات.

قالها مبتسماً وهو يهز رأسه بمرح.

أجابه مايكل مستفسراً

- هذه ممنوعة في النرويج.

رفع ابو مريم يديه بحركة مسرحية مع هزة مستمرة بالرأس:

- أنا أعيش على الممنوع، ووجودي هنا ممنوع.

شعر مايكل بأنه في المكان الخطأ، فنهض بسرعة ولبس سترته وسار مودعاً، وما إن سار خطوتين حتى توقف وعاد، كأنه تذكر أمراً.... مد يده في جيب السترة وأخذ محفظته ووضعها في جيب بنطاله وقدم السترة له قائلا:

- مبروكة عليك.

تمنع أبو مريم أولا ثم لبسها بزهو وقال مبتسماً بينما كان ينظر اليها:

- إنها على مقاسي بالضبط شكرا لك.

بعدها زفر مايكل زفرة رضى وغادر بخطى سريعة مبتعداً.

أدمن مايكل على تلك اللقاءات التي تكررت في المقهى رغم شكوكه و قلقه من المكان و الجو، ولم يمل من سماع القصص نفسها، بل كان يطلبها منه باستمرار.

أحب مايكل فضوله تجاه كل من سكن ظالمايا وهجرها وعاد إليها... تاريخها، جغرافيتها، طبوغرافيتها، أيقظتِ في داخله وفاءً لوالده فبات يستقصي أثرها، وتأكد أن وجعها الذي يشبه الخيال ما هو إلا الحقيقة المطلقة. فقدم طلبا لكي يسافر اليها من خلال مشروع ممول من المنظمة.

تأجل موعد لقائه بها مرة بعد مرة حتى باتت رفيقته في نومه ويقظته.

بعد خمسة أشهر، توقفت سيارة الاجرة على جانب الطريق الممتد على كتف الجبل المطل عليها، نزل مايكل مستكشفاً، وقف طويلاً تحت نجوم تلك الليلة الصافية وقمرها حيث البساتين المنثورة عشوائيا على الجبل ونسيم الوادي الخفيف... في تلك البقعة التي كانت شاهداً على كثير من الظلم، وليس بعيداً عن المكان الذي سالت فيه دماء جاسم سليمان..

استغرب السائق من سلوك هذا الغريب فسأله:

- هل ستبقى طويلاً هنا؟
- سأنتظر شروق الشمس، سأدفع لك مقابل انتظارك.

فرح السائق وقال له ايقظني عندما تريد وأمال كرسيه وقال في نفسه "المجانين في نعيم" ونام.

أنصت مايكل لصوت نقيق الضفادع وصرصرة الصراصير، توقف احساسه بالزمن حتى انتبه الى أن كل شيء قد سكن ولم يبق إلا صوت الصمت، والنسيم الندي الهادئ.

انتظر الشمس لترفع له الخمار الأسود عن محياها، كان تواقاً لرؤية وجهها كما يتلهف العريس لرفع (الطرحة) عن وجه عروسه.

استمع طويلاً لزقزقات العصافير تحفز النور والنور يحفزها على التغريد، تلك العلاقة الأبدية ما بين النور والزقزقة.

شعر أن دهراً قد مضى، تلهف لولادة الشمس الجديدة التي ستطل عليه من خلف الجبل، ستولد من رحم الليل، ترقبها كما تترقب الأم رؤية وليدها. طفل سينشر البشر إلى هذا العالم ويتعرف بالأشياء للمرة الأولى، زادت لهفته دقيقة بعد دقيقة، وتخيل ان يد الله سترفعها من قدميها كما ترفع القابلة الطفل الوليد.

لمعات، جذبت نظره نحو القمة فشاهد الضوء يزحف حثيثاً فوق القصور في ظالمايا العليا المتوجة لقمة الجبل كتاج وزعت عليه أحجار كريمة فهذه ماسة وتلك لؤلؤة وبأحجام مختلفة فتبرق القصور أنواراً بانعكاسات مختلفة. الضوء يقبِّلُ أسطح القصور المرمرية والقرميد الأحمر والأبواب

المزركشة بكل ما هو ثمين وكأنها مراقد أنبياء.

استمرت الشمس بالارتفاع فازداد مشهد القمة بهجة، واستمر النور زاحفا نحو بيوت أتعبها الزمن ترقد تحت خضرة وارفة في القعر. غازل النور في طريقه أوراق الأشجار في المزارع المنثورة على الجبل، فأصبح المنظر مُبهجاً لخضرته الزاهية، تحت سماء لا يعكر صفوها شيء.

بقي الظلام مخيما على القعر وكأنه لا يريد إزعاج نوم الديكة، سبات حقيقي يختلف عن حياة القرى في الصباح. استيقظت الديكة كسلى تنفش ريشها، وترفع صدورها، وتصيح معلنةً بداية نهار جديد، بعدها تبختر النور متهاوياً بكل روية على بيوتهم لينير أسطحاً أنهكها الفقر والجوع، وباتت تسكنها الحيوانات مع البشر، وكلاهما ارتبطت حياته بالآخر ارتباطاً وثيقاً، والله وحده يعلم من منهم يتطفل على الآخر، لكنه من المؤكد أن حياة الإنسان هناك مرتبطة بالحيوان أكثر من أخيه الإنسان، والحيوان يعيش على مخلفات الإنسان ليعطيه مقابل ذلك ما يأكله ويدفئه.

شاهدها أخيرا بوضوح منسية في ذلك الوادي، أمعنَ النظر في شارعها وكيف يتعرج داخلها تبعا لتوزيع البيوت العشوائي، أغمض عينيه وفتحهما ليستطيع التمعن بتقاسيم بيوتها القديمة بشرفاتها الأرضية، وابواب الحديد الخارجية والشبابيك الارضية التي تبين أن لقسم من تلك البيوت سراديب لها شبابيك صغيرة تطل على الشارع. كثير من البيوت مازالت طينية وبعض الاسوار بنيت من أحجار مختلفة الأحجام. تخبر الناظر إليها بأن تلك

الجدران قد عاشت عصرا أفضل من هذا العصر بكثير.

أيقظ مايكل السائق الذي تفاجأ من منظر الشمس و جنون زبونه وعاد الى الفندق ليرتاح بعد يوم وليلة من السفر المتعب.

التقى مايكل وزميله النرويجي توماس في اليوم التالي بسعيد حسين مدير منظمة أطفالنا، التي ستتعاون مع منظمتهم في مقر المنظمة في مدينة أم العيون، وبعد شرح مسهب عن المنطقة عموماً حدثهم عن معقل الفقر "ظالمايا السفلى". الصورة الاولى التي تذكرها مايكل كان وجه ابو مريم جالسا على كرسيه في المقهى. كان لمايكل فضول عن خلفية سعيد حسن الذي يدير هذا المنصب الحساس، وأراد أن يستكشف خلفيته ليعلم كيف سيكون التعاون بينهما، ومدى تفهمه العلمي للمهام التي سيطلبها منه، فسأله فيما قضى سنواته الأربعين، فتبين أنه خريج التوجيهي ولم يدرس بعد ذلك، لكنه تعلم الانكليزية في الفترة التي قضاها طالبا للجوء في نورستان حيث ضاع لسنوات هناك.. وعاد لا لسبب إلا، لأن هذا العمل براتبه المجزي كان بانتظاره. سأل مايكل عن مواصفات الشخص الذي كان مطلوباً لهذه الوظيفة، فضحك عندها سعيد حسن وقال مفتخراً:

"كان عندي واسطة ".. هذه الكلمات قالها بالعربية.

(3)

تناول مايكل وتوماس في صباح اليوم التالي وجبة الافطار في الفندق، وانتظروا سعيد ليأخذهم عند الثامنة صباحا في جولة هدفها ظالمايا السفلى.. عندما دقت الساعة الثامنة صباحا دخل سعيد مبتسما الى صالة الفندق وأطمأن على قضائهم ليلة مريحة في هذا الفندق البسيط، ثم طلب منهما مرافقته لبداية الجولة.. شمس الصيف القاسية لفحتهم، قال مايكل موجهاً كلامه لتوماس "هذه الشمس الحقيقية وليست شمسنا واحد واط.! ". ضحكوا جميعا.. رد توماس وهو يباعد بين رجليه "تعرضت لأشعة شمس أكثر حرارة من هذه عندما عملت في افريقيا، وكذلك في العراق.. هذه الشمس لن تفزعني".

انطلقت السيارة بالثلاثة، مايكل في المقعد الأمامي بجانب سعيد وتوماس في المقعد الخلفي، تابعوا بشغف الوجوه التي مرت بهم كما تمعنت فيهم عيون الأهالي الذين يتابعون بفضول تقاسيم وجوه الغرباء، كأنهم أطباء الجلدية عندما يتفحصون بثرات على وجه المريض عن بعد.

كان مايكل يفتش بنظرات مستكشفة، عن سبب حنين والده الى هذه البقعة من الارض، بينما كان توماس يحاول فهم السبب وراء هروب الناس من ذلك المكان.

توجهت السيارة الى ظالمايا العليا التي كانت تتلألأ شبابيك بناياتها من

بعيد، إلا أن سعيد لم يدخلها وسلك الشارع الدائري حولها قبل أن يهبط بهم باتجاه الوادي.. كان توماس مأخوذاً بالمناظر الطبيعية، بينما كان مايكل مهتماً بالسؤال عن أحوالها . شاهدوا من شباك السيارة مياه الصرف الصحي تجري بسرعة في جداول صغيرة منها قريبة و منها عن بعيدة عن الشارع لتتجمع احيانا وتفترق ثانية وجهتها الوادي، وشاهدوا وجوها شاحبة و هزيلة قد لفحتها الشمس، كثير منهم كانوا يمشون حافي الأقدام غير مبالين بالأحجار تحت اقدامهم. ظهرت أخيراً أمامهم بشكل ضبابي باهت الألوان في عمق الوادي، سحب مايكل شهيقاً عميقا وزفره ببطء، بينما بقيت عيناه مركزتان عليها، وبدأت تتضح معالمها والوانها أمامه شيئا فشيئا.

اوقف سعيد سيارته قرب الحي القديم، ترجل الغريبان متلهفان لاكتشاف أعراض آلام الناس، اول ردة فعل منهما كانت حركة عفوية وسريعة، أطبق توماس على أنفه بين السبابة والابهام وغطى مايكل أنفه وفمه بالكامل براحة يده، واستمروا يكشون الذباب المتواقح عليهم.

برر سعيد بانكليزية ركيكة سبب تدهور الخدمات فيها، ولمعرفته بطبيعة مايكل المهتم بكل شاردة وواردة، والذي بات يبحلق فيه منتظرا المزيد من التفاصيل، هز سعيد رأسه مستغربا من شدة اهتمام مايكل بكل التفاصيل، وروى لهم قصة ثورة عمال النظافة.

"هذه مدينة لا يدخلها عمال التنظيف.. لم يعودوا يأتون إلى الحي لأن رواتبهم قليلة، والفقراء لا يعطونهم الاكراميات مهما تفانوا في أداء واجبهم،

وفي الأعياد كانوا يحصلون فقط على عطايا عينية كبيضات يتقاسمونها فيما بينهم، واحيانا كان عدد البيض لا يقبل القسمة عليهم، فتسبب شجارات بينهم هم في غنى عنها، وغالباً ما كان موعد وقوعها في أول ايام العيد".

ابتسم سعيد بسخرية، وشعر بعدها بالحرج لأن المستمعين لم يستسيغوا ابتسامته، سكت قليلا فسأله مايكل وقد تقارب حاجباه

- ماذا جرى بعد ذلك؟ فأكمل حديثة بجدية....

هذا ما جعلهم يهجرون الحي القديم، ويتركونه ليعيش بوفاق مع قاذوراته... ولم تجدي الشكاوى والاعتراضات التي قدمت لدار البلدية للمطالبة بعودتهم للعمل.

رحيل عمال النظافة كان على خلفية شجار حدث قبل عدة سنوات.

ابتسم مايكل وطالبه أن يحدثه بتفاصيل هذا الخلاف و كأنه يبحث بين الكلمات عن إسم معين.

- عندما جائوا في العيد إلى بيت (أبو محمد) متأملين بعيدية كريمة منه وتوجهوا مباشرة الى مجلسه.

تذكر مايكل هذا الاسم إذ كان أبوه وأبو مريم قد حدثاه عنه، وقال لزميله النرويجي موضحا "إن هذا الرجل لديه منصب إسمه المختار، تستطيع أن تقول مستشار القرية". بعدها أكمل سعيد روايته قائلاً:

"أوقفوا يومها حمارهم الذي كان يجرّ عربة بدولابين يقودها أكبرهم سنّا، وسار يتبعه الأربعة الآخرين بعد أن اوقفوا عرباتهم بجانب الحمار،

وتوجهوا مباشرة الى المجلس ووقفوا بكل وقار أمام الحضور. كانوا يرتدون ملابس العيد النظيفة".

استذكر سعيد الحوار الذي دار بينهم في ذلك اليوم. كما سمعه من عدة أطراف، بينما بقيت عيون مايكل تترقب فمه مهتماً بروايته.

"سلموا على أبو محمد وضيوفه كتلاميذ المدارس. ردّ أبو محمد والرجال عليهم السلام بحميمية تليق بالعيد.

طلب أبو محمد من ابنه زيد أن يقدم لهم الشاي، شأنهم في ذلك شأن باقي ضيوفه....

سأل توماس مايكل:

- وهل يفترض أن يعاملهم بطريقة مختلفة؟

رد مايكل بإيماءة من رأسه موافقاً، ليترك سعيد يكمل روايته بلا توقف:

"دارت أحاديث كثيرة في المجلس لم يشارك فيها أيٌّ من عمال النظافة، ولم يكونوا كذلك سعداء بالإنصات إليها، وعندما نفد صبرهم قال أحدهم:

- سنأخذ النفايات ونمشي.

ثم انخفض صوته ونكَّس وجهه المحمر وتمتم بشيء لم يسمعه أياً منهم بشكل جيد. نادى ابو محمد على ابنه وقال له:

- أخرج النفايات ولا تنسَ أتعابهم.

هذه الكلمات ترجمت على أنهم سيحصلون على العيدية، وزرع هذا الأمل

ابتسامة على شفاههم تشبه ابتسامة المراهقات عندما يسمعن مجاملة غير متوقعة. تمتموا شاكرين وداعين الله لهم. دخل محمد إلى البيت وخرج بالنفايات أولاً، ثم دخل ثانية وخرج بكعكة قدمها لكبيرهم. نظر الأخير إليها واستفسر بصوت خائب وهو ممسك بها بين يديه.

- ما هذه؟
- إنّها العيدية.

أجابهم محمد سريعاً وعاد إلى المجلس، وقفوا على مسافة غير بعيدة عن المجلس ونشب شجار بينهم، لم يكن الشجار بسبب الكعكة، بل بسبب مأساتهم. طلبوا من كبيرهم أن يطالبهم بالنقود، فتقدم مرغماً على الحديث نيابة عنهم، شعر بثقل غير طبيعي في قدميه وكأنه يجرّ جبلاً من الذلّ. وقف بجانب المجلس ووجه كلامه إلى أبو محمد، التفت الرجال مستغربين من عودتهم، وتركزت نظراتهم في المتحدث الذي اختنق بالاحراج.

- أتمنى أن تكرمونا...

قالها على استحياء، عندها التفت أبو محمد إلى ابنه بنظرة متسائلة فأجاب اباه على نظرته:

- لقد أعطيتهم كعكة كاملة.

أجاب شيخ عمال التنظيف موضحاً بعد أن تحولت انظارهم اليه:

- أرجو أن تكرمونا بنقود، نحن بحاجة الى المال.

انعقد لسانه عندما بدأ ابو محمد حديثه موضحا ومتضايقاً من سوء

فهمهم ووضح لهم:

- إن هذه الكعكة تكلف بيضاً ودقيقاً وسمناً ونحن لا نحصل عليها مجاناً.

دافع عمال التنظيف عن حالهم، وشرحوا لهم ما قد يكون قد غاب عن فكرهم قائلين بصوت عالي.

- نحن نخدمتكم طول السنة، برواتب ضئيلة ننتظر مثل هذه المناسبات بفارغ الصبر لنحصل على مكافئة تعوضنا عن ما نتحمله من هذا العمل المجحف.

فكر ضيوف ابو محمد أنَّ عليهم أن يحشروا أيديهم في جيوبهم الفاضية و يقدموا لهم ما قد يجدونه فيها وبتلقائية مطلقة قال أحدهم ويدعى أبومحسن، وكان أيامها لا يزال المسكين متأثراً بشدة بسبب طرده من العمل، وهو صاحب أعلى شهادة في القرية، رغم ذلك كان نادلا في بيت جاسم سليمان... شعر مايكل أن إسم جاسم سليمان قد طرق سمعه لكنه لم يتذكره من أول وهلة، فتاهت نظراته بحثاً عنه في ذاكرته، لاحظ سعيد أن مايكل اراد الاستفسار عن هذا الاسم فشرح له قبل أن يسأل:

"جاسم هذا، كان أحد المغتربين الاغنياء، عاد وبنى قصراً فخماً في ظالمايا العليا، وكانت له مزرعة فخمة على الجبل".

وأشار الى القطعة الخضراء الأكبر على الجبل، لم يستطيع مايكل أن يستذكره من هذا الشرح، توقف سعيد منتظرا من مايكل أن يطرح سؤالاه،

لكنه أومأ اليه مطالباً بالاستمرار.

" قُتل لاحقا قربها، على كل حال لنعود لموضوع عمال النظافة..

صرخ بهم أبو محسن مؤنباً:

"هذا اسمه طمع"... هذه الكلمة اثارت حفيظة العمال فباتوا يدافعون عن حقهم المهضوم بكل ما أعطاهم الله من فصاحة لسان..

انتهى النقاش بقول أبو محمد.

"لا أريد أن أرى أياً منكم بعد اليوم". احتقنت وجوههم ومشوا مبتعدين. التفت أحدهم وقال متهكماً:

"إذا كان هذا كرم مختاركم، فكيف الحال معكم". صرخوا صرخة رجل واحد:

"اغربوا عن وجوهنا".. وبقيت كلمة طمع وجشع تلاحقهم حتى غادروا المكان.

وهكذا كتبت الصفحة الأخيرة من تاريخ عمال النظافة في ظالمايا السفلى".

تابع سعيد حديثه بعد أن طلب منه مايكل أن يخبرهم عن ما جرى بعد ذلك:

"لم تفد كل الوساطات التي قمنا بها لعودتهم للعمل". مع هذه الكلمات، توقف سعيد عن الحديث، إذ لم يستطع المواصلة بسبب الرائحة

الخانقة والذباب الذي كان يريد استكشاف ثغره وانتبهوا انهم محاطين باطفال وشباب مبحلقين بهم وكأنهم أناس من كوكب غريب، اقترح سعيد أن يكمل حديثه في مكان آخر، فعاد بهما الى منتصف الطريق بين ظالمايا العليا والسفلى وترجلوا مجددا من السيارة. نظر مايكل وتوماس ملياً الى منظرها جلية أمامها. فجأة وبدون سابق إنذار تذكر مايكل ذلك الشاب الشقي المارد الذي حدثه أباه عنه، "جاسم سليمان". شعر بأسف لموته وتعجب من ذاكرته.

كان السؤال الذي يشغل بالهما تلك الرائحة الثقيلة الوطء وسببها. قال لهم سعيد مشيراً الى الجداول وبين لهم كيف يعمل نظام الصرف الصحي، مشيراً باصبعه الى أن كل السراديب هناك قد امتلأت بالمياه الآسنة المترشحة اليها.. وهذه مشكلة متفاقمة، رائحة ومرض وغيرها.. الدولة لم تتدخل لتحسين الوضع.. والناس لا حول لهم ولا قوة... وهذه مشكلة متفاقمة.

ركز كثيراً على كلمة متفاقمة.

قال مايكل: "هناك حالة مشابهة شاهدتها عندما كنت مراقبا دوليا في الخليل.. كان اليهود يسكنون عمارات تشرف على السوق، وكانوا يرمون باوساخهم من شبابيكهم على بضاعة التجار الفلسطينيين.. فوضع التجار شباك منع الذباب التي تثبت على الشبابيك فوق السوق.. فبدئوا يتبولون عليهم فيترشح البول من خلال الشبك والقماش الذي وضع لاحقاً فاستبدل بالنايلون... القانون يحمي اليهود ويحمي سلوكهم.. لذلك اعتبر

الفلسطينيين أن ما يحدث لبضاعتهم ما هو إلا مفردة من مفردات حياتهم. لكنهم يهود ويعتبرون الفلسطينيين اعدائهم.. أنا لا أجد تفسيرا لما يحدث هنا".

هذه القصة رواها سعيد فيما بعد فخورا بموقف مايكل وتعاطفه معهم وركز على تشبيه اهالي ظالمايا العليا باليهود لأبو محمد في مجلسه وعلى مسمع ضيوفه مما عزز من مصداقية مايكل عند أهل القرية، الذين لم يثقوا بالغرباء يوما، وهكذا باتوا متشوقين للقائه.

سأل مايكل كذلك سعيد عن ظروف سوق العمل، تبسم سعيد وكرر العبارة بشيء من السخرية " سوق العمل؟ "

البطالة هي الحالة العامة، والواردات شبه معدومة. العمل أصبح للأهالي حلماً، كثير منهم بلا دخل يذكر منذ أشهر، لذلك قام بعضهم ممن يسكنون في أماكن بعيدة عن الحي القديم ببيع منازلهم والانتقال إلى حيث النفايات المتراكمة كالتلال في الحي القديم، ويستثمرون فرق السعر في مشروع يولد ميتا، كأن يشتروا سيارة أجرة، وبعد فترة يستهلك محركها، ولعدم قدرتهم المالية على شراء محرك جديد يدخلون شريكاً جديداً في المشروع حتى ينتهي المطاف بالسيارة عند باعة الخردة، وكثيراً ما يحدث أن مشروعاً ما ينتهي وفيه خمسة أو ستة شركاء.

بعد أن كبرت ظالمايا العليا، في السنوات الأولى عمل الكثير من أهالي السفلى هناك، كانوا يأخذون في الصباح منتجاتهم من مشتقات الحليب

ليبيعوها للأغنياء هناك، ولم تكن العوائل التي تشتري تلك المنتجات قادرة على استهلاكها، لكن يتم شرائها بالعبوات الكاملة لأجل "برستيج" القصر. يرمى في نهاية اليوم معظم ما تبقى، بعد تكرمهم بإعطاء جزء منه للعمال المتميزين كي يطعموه لأسرهم، وكان الكثير منه يسيل مع الفضلات إلى الوادي.

عندما وصف لمايكل هذه الحالة قال له " هم كأمريكا ترمي الحنطة في البحر لكي لا ينخفض سعرها عالمياً، بينما هي كافية لأنقاذ الكثير من الجياع في افريقيا "

يحمل أهل ظالمايا العليا عداء غير مسوغ للوادي.. ربما بسبب كرههم لماضيهم، أوبسبب شعورهم بالفوقية.. لا أدري بالضبط سبب ذلك؟

لكني متيقن من أن حاجة العمال وأُسرهم للطعام كانت يوميةً وملحةً.

لو قبض على أحد الخدم متلبساً بجرم إخفائه قضمه طعام لأسرته الجائعة، لطرد في نفس اليوم شرّ طردة، ويسمع بقية الكادر خطبة تذكرهم بأن عليهم الولاء لمن لحم أكتافهم من خيره، وما على الخدم إلا أن يبدوا اعتذارهم على سوء سلوك زميلهم ويطلبوا الصفح عنهم لفعلته. في المساء يزورون زميلهم لكي يواسوه على مصابه، ويتصرفون بتلقائية وكأن ما حدث كان أمراً متفق عليه، ويعذر الضحية زملاءَه الذين وقفوا ضده في الصباح.

استمر هذا الحال لسنوات عدة، إذ كانت العمالة في ظالمايا العليا تأتي من

السفلى حتى تبين لهم أنَّ وجه العمالة الأجنبية أكثر إشراقاً، ويرفع من مقام القصر وصاحبه. فما كان من أصحاب القصور إلا أن رفسوا خدمهم على مؤخراتهم دافعين بهم إلى القعر....

اشار سعيد بإصبعه الى القمة ونزولاً الى عمق الوادي، وكأنه يبين لهم ارتطام العمال المطرودين بالأرض.... هنا لا توجد لدينا منظمات تدافع عن حقوقهم، حتى الدولة لا تطالب الاغنياء لا بدفع الضرائب ولا الزكاة، والكل يطلب من الفقير القناعة، ومن أين تأتي القناعة؟ والى أين سيؤدي بهم السخط؟ هز سعيد رأسه، ضارباً كفاً بكف، وقال: "الى المجهول".

(4)

كان أبومحسن من القلائل الذين حافظوا على عملهم في ظالمايا العليا، كان قبلها محاسباً في البلدية، حصل على الكثير من كتب الشكر، دمث الخلق، يحب الناس، ومن القلائل الذين يرتدون القميص و البنطال. كانوا يسمون هندامه (افرنجية)، أنيق على قدر إمكانياته، وجهه دقيق القسمات متناسق مع دقته كموظف مسلكي، وظيفته كانت تعني له جُلَّ حياته لذلك أعطاها روحه وتفانى لإرضاء الكبير والصغير في عمله ليبقي عليها. على الرغم من ذلك عندما طلب أحد المتنفذين توظيف قريبه كمحاسب في البلدية في وقت لم تكن فيه وظائف شاغرة، أجبر ابومحسن على كتابة استقالته.

جمع كل مقتنياته الشخصية من مكتبه في كيس بسيط وودع زملاءَه بكلمات مختنقة، وعندما كان خارجاً من مدخل البناية التقى ببعض العمال يحملون مكتباً جديداً، فقال له أحدهم مبتسماً:

- سيستبدلون مكتبك القديم بهذا.

ابتسم له وقال:

- لقد استبدلوا المكتب وصاحبه.

أفسح لهم الطريق ليدخلوا، وأكمل طريقه ولم يلتفت الى الخلف.

أكلت السنوات الأولى من البطالة معظم مدخراته وباع الكثير من

حاجياته المنزلية.

عندما عاد جاسم سليمان من غربته والذي تربطه به صلة قرابة بعيدة كان يتمناها لو كانت وطيدة. ذهب الى قصره مستعيناً بهذه القرابة الهشّة. وقف أمام القصر متضايقا من عدم تملكه لأعصابه، ضخامة باب القصر يدعو للقلق، فخامة القصر تبعث على الارتباك والحراس الموجودون على الباب زادوا من خيفته. كافح قلقه وتحدث اليهم متوجساً:

- أنا من أقاربه.. قولوا له فقط أبومحسن.

أنخفض صوته في نهاية الجملة وكأنه همس، دخل الحارس وأبلغ مسؤول الدار بذلك وتوجه الأخير بدوره إلى جاسم سليمان الذي كان جالسا في الصالة يشرب قهوة الصباح، وقف أمامه وقال:

- قريبكم أبومحسن يريد مقابلتكم.

حرص على مخاطبة سيده بصيغة الجمع لعلمه بنرجسيته العالية:

- أبومحسن.. من هو أبومحسن؟ لا أعرفه... سكت برهة.
- هل تريدون أن أصرفه.. إن كان يزعجكم حضوره.

وأنتظر أمر سيده، لم يجبه وأطال النظر في سقف الغرفة وكأنه يقرأ لائحة بأسماء أقاربه وبعد أن نفث دخان السيكار الكوبي الكبير المناسب لحجم وجهه قال له:

- أدخله لنرى ماذا يريد.

كان ابومحسن مرتديا بدلته الوحيدة التي بدت كبيرة عليه بسبب ما فقده من وزن بعد فصله من الوظيفة، كان يحمل شاربين جميلين وعينين ما تزالان متقدتين.

في بهو القصر هزته الابهة كما يهتز ابن القرية عندما يدخل للمرة الأولى الى فندق خمسة نجوم، شعر بجوارحه تخذله. رافقه مسؤول الدار حتى الصالة وأشار له بالدخول. دخل متوجساً ووقف على استحياء أمام جاسم سليمان.

كان جالساً بقميصه الفضفاض على أريكة ذات مقعدين، على يمينه شباك كبير يطل على العالم السفلي وعلى يساره، في الزاوية البعيدة موقد النار من الجرانيت الأبيض، اشتقت ألوان الصالة من منتجات الحليب ناصع البياض الى الحليبي الأصفر كلون القشدة الى الأصفر كالجبن.

كان جاسم سليمان سميناً بإفراط، رأسه كبير بتطرف وما زاد من كبر حجمه لغده العظيم المترهل وكأنه يريد أن يرقد على صدره، بشرته مشربة بالحمرة وعلى الرغم من القميص الفضفاض كانت بطنه ترقد على الجهة التي لفّ رجله عليها.

بدا أبومحسن حديثه متوتراً، بتحية بدت فاترة.

اشار له بالجلوس بهزة من رأسه ولم ينطق. فاستجاب مسرعاً لكنه لم يكن مرتاحاً، فهولم يعتد الجلوس على مثل هذه الكراسي التي تريح أكثر من اللازم وتستفز الانسان ابهتها وكأنها تخفي عنه أمراً، شكره متأتئاً على تفضله بالموافقة على مقابلته. دخل النادل فأومأ له سيده وعندها سأل أبومحسن:

- ماذا تشرب حضرتك؟
- لا، شكراً. لقد شربت قبل قليل.

تدخل ربّ القصر قائلاً بصوت أجش، لكثرة تدخينه للسيكار، لم يعلم ابومحسن لماذا شعر بكل هذا الوجل من صوته:

- يجب أن تشرب شيئاً .

قالها وكأنه قرار لا يقبل النقض، أجابه متحرجاً:

- إذا كان بالإمكان قهوة.

تحدثوا طويلاً، بدأ الحديث عن شباك غرفته الجميل واستمر بلا وجهة معينة حتى حكى ابومحسن قصة حياته. فجأة قاطعه جاسم وكأنه تذكر أنّه يجب أنْ يكون هناك سبب لهذه الزيارة فسأله:

- أنت قلت أنك من أقاربي.. هل هذا صحيح؟
- نعم صحيح، جدتي وجدتك كانتا متزوجتين من أخوين.

شرح له بحماس صلة قرابة شائكة وبعيدة. أوقف جاسم شرحه المسهب وكأنه فجأة فقد الاهتمام بالحديث معه وقال له بلهجة جافة:

- بماذا أستطيع أن أساعدك؟ فرد عليه ابومحسن بسرعة وكأنه يريد الانتهاء من مهمته بأسرع وقت.
- أتمنى أن اعمل عندكم كمحاسب، أو موظف إداري.

كانت نظراته كنظرات الحجاج أمام البيت العتيق.

أجابه وهويتكلم ببطأ وكأنه كان يفكر اثناء حديثه:

- الحقيقة، لا أحتاج إلى موظف... لكنني سوف أوظفك عندي بوظيفة ثانية.

نادى على مسؤول المنزل وقال له:

- منذ اليوم سيكون أبومحسن مع كادرك في المطبخ، اعطه ملابس النادل... هيئته أجمل من هيئة نادلنا بكثير.

حاول أبومحسن أن يقول له أريد عملا آخر ضمن خبرتي، إلا أن مسؤول المنزل طلب منه أن يرافقه إلى المطبخ واستلم ملابس النادل وبدأ العمل في نفس اليوم واستمر في عمله هذا ثلاثة سنوات.

وهو الذي حدَّث أهالي ظالمايا عن رجال الدولة الذين يأتون إلى القصر وسلوكهم في السهرات، زندقتهم وعربدتهم، وحدثهم كيف يقومون بخدمة جاسم سليمان و هذا مازاد من حنقهم عليه..

كان أبومحسن يشعر تماما بالفرق ما بين ترف القمة وفاقة القعر، فكان يأخذ لهم الطعام يومياً، ولا يعارضه أحد من زملائه لأنهم يعرفون أنه على صلة بولي نعمتهم، حتى حدث ذات يوم خلاف بينه وبين الطباخ المستورد. يومها قام مسؤول الدار بتوبيخ الطباخ متحيزا لأبومحسن قريب سيده، فلجم الطباخ حقده في قلبه، وبات يتحيّن الفرص ليردها له. حتى جاء يوم طلب فيه الطباخ من أبومحسن أن يفرز الفاكهة الجيدة من الرديئة، فوضع الفواكه الرديئة في كيس، وأضاف إليها عدة قطع من الفواكه الجيدة، وكان يتمنى أن

يأخذها معه إلى مجلس أبي محمد ويقدمها لهم كهدية. كانت مثل هذه الهدايا تعطيه مكانة مميزة و قام بإخفاء الكيس جانباً. كان الطباخ يترقبه خلسة،عندها أخذ الطباخ بعض الفاكهة المتبقية و أخفاها في الزبالة ثم قال لمسؤول الدار:

- ليس لدي اليوم ما يكفي من الفواكه لأضعها على المائدة.

نظر إليه مسؤول الدار باستغراب وقال:

- لقد جلبوا الكثير من الفاكهة اليوم. أنا طلبتها بنفسي.
- لا أدري أين ذهبت، هناك من يسرقها.

واشار خلسة الى كيس الفاكهة ووشى بـ(أبومحسن).

حصل شجار بين الطباخ وبين (أبومحسن) بعد أن قبض على الكيس متلبساً بجرمه. نظر مسؤول الدار بنظرة اتسمت بالغضب والتساؤل.

- هل تسرق سيدك يا أبومحسن؟
- أنا لست سارقاً.. هذه الفاكهة الرديئة.. الرديئة فقط.

سكت مسؤول الدار وهز رأسه عدة مرات متوعداً ثم خرج من المطبخ و أخبر سيده بالأمر خوفا من أن يبلغ الطباخ المستورد سيده بما حدث فيصبح متستراً على الجاني. كان مسؤول الدار يعرف تماما كيف يحدث سيده في مثل هذه الحالات وكأنه يقول له

"ها أنا ذا حارسك الأمين".

- سيدي لقد قبضت على أبومحسن يسرق الفواكه من المطبخ.

أجابه بامتعاض

- لا تشغلني بهذه السفاسف، تصرف أنت وأنا موافق على قرارك.

وأشار له بيده أن ينصرف حيث كان مشغولا ببرنامج على التلفاز، عندما عاد إلى المطبخ أراد أن يحمّل أبومحسن جميلا وكان سيقول له أنني قمت بحل الإشكال، لكنه تفاجأ بأن أبومحسن قد تشاجر مع الطباخ وقد علا صوتهما فما كان منه إلا أن قال له " أنت مفصول من العمل، ومن هذه الساعة ".

زمجر أبومحسن في وجهه:

- أنت، أنت تفصلني، لن تستطيع سأبلغ قريبي جاسم سليمان بالأمر.

قالها متهكماً على الرغم من شعوره بالخوف من فصله.

- "ماذا ستقول له، أنك لم تسرق؟.
- لا عليك أنا أحدثه بموضوعي.. لا تتدخل بيني وبين قريبي.
- طيب يا أبومحسن سوف أطلب منه أن يقابلك وسوف تسمع رأيه بنفسك. سحب أبومحسن ياقته وعدل هندامه وذهب إلى الصالة وانتظر عند بابها أن يسمح له بالدخول، إستمع دقات قلبه ترتفع وهو يستمع الى الحديث الذي دار بينهما في داخل الصالة.
- سيدي.. أبومحسن يطلب الحديث معكم.
- ألم أقل لك تصرف معه كما تشاء.

- لقد طردته عفواً فصلته من الخدمة، لكنه رد علي وقال:

"أريد الحديث مع قريبي لا تتدخل بيننا".

جحظت عينا صاحب القصر غضبا وارتفع صوته.

- قريبي، من هو قريبي؟ هذا الجربوع.. اطردْه لا أريد أن أرى وجهه بعد اليوم..

ارتعدت فرائص ابومحسن عندما تيقن أنه سيكون قريبا فريسة البطالة... و بعد دقائق معدودات كان خارجاً من القصر في طريقه ليلتحق ببقية العاطلين، زبوناً دائميا في مجلس أبومحمد.

(5)

كان مايكل وبحكم عمله، ذو خبرة ممتازة بمعاناة الكثير من الشعوب، حروب و اقصاء، تهجير و تطهير عرقي، فيذكر تاريخ أحداث سيراليون وتاريخ معظم التصفيات في كرواتنيا وبوسنيا عن ظهر قلب، ولم يكن توماس أقل منه خبرة وكانت له عدة تجارب مع معاناة الأقليات كاليزيديين في العراق والهزارة في افغانستان.. لكن ما سمعاه من سعيد حسن والعاملين معه عن تفاصيل حياة ظالمايا السفلى كان يختلف عن كل ما عايشاه سابقاً. اضطهاد بين شعب واحد وعوائل تربطهم الكثير من الروابط، كان أمراً جديدا عليهم. طلب مايكل من سعيد ترتيب موعد في مجلس ابومحمد للاطلاع على ما يحتاجه الناس في ظالمايا السفلى. أرادا أن يتحسسان بيديهما جروح الناس، أخذ سعيد هذه المهمة بهمة عالية، وساق سيارته بنفس اليوم ليلا باتجاه بيت ابومحمد، تفاجأ ابومحمد من هذه الزيارة الغير متوقعة، جلس الرجلان مبتهجين يخططان لهذا اللقاء، واتفقا على أن يدعوا ابومحمد مجموعة من الرجال على قدر عال من الوعي لكي يحضروا الاجتماع ولكي يتحدثوا ويقنعوا الوفد بمدى حاجتهم للمدرسة و اللتي كانت شغلهم الشاغل منذ سنوات، و بثقة تتجاوز حد اليقين مع هزة رأسه المؤكدة قال ابومحمد لسعيد:

"لا تقلق سيكون الاستاذ ابومحسن حاضراً".

ككثير من الفلاحين عندما يقولون لك إن ابننا أصبح طبيباً، وتكتشف لاحقا أنَّه في الصف الثاني من المرحلة الثانوية، كانت الحال كذلك مع أبي محسن، يطلقون عليه لقب الأستاذ لأنه كان الشخص الوحيد الذي تخرج من المعهد الاداري و هي اعلى درجة علمية في القرية، عندما يدور الحديث عن المدرسة التي كانوا يتمنون أن تبنى في قريتهم كان أبومحسن (الأستاذ) ينبري لهذا الأمر ويكون المتحدث الاول بحكم شهادته. تم تحديد موعد الاجتماع صباح يوم الاربعاء، لتفاؤلهم بيوم الاربعاء. حيث كانوا يقولون "ما بدأ بأربعاء إلا تم".

جلس ابومحمد مع صفوته يناقشون ما سيطرحونه عليهما، بعد كثير من الاخذ والبدل قرروا أن يفسح المجال الاكبر لأبومحسن لينوب عنهم في الحديث، عندها هدأت عاصفة النقاش... وبدئوا بالتدخين وشرب الماء والبحث عن جلسة مريحة.

أخذهما سعيد في صباح يوم الاربعاء بسيارته من الفندق، بيوم يشبه أيام ربيع نورستاد، كانت فيه الفصول الأربعة ولكن عندما وصلا القرية كان الجو ربيعيا بامتياز... كانا متشوقان جدا لهذا اللقاء، كالمراسلين عندما يصلون أرض الحدث، نزلوا من السيارة والتقت أعين مايكل وتوماس بنظرات الأطفال الفضولية الشقية التي طوقت السيارة، سعداء يبتسمون ويضحكون، ويتنافسون بمد ايدهم الى الاجنبين، وذروة سعادتهم أن يمسك أحد الأجنبيين بأيديهم الصغيرة.

شاهد مايكل وجه ابيه يراقب الاطفال المبتهجين، وشاهد طيفه فوق الأسطح وعند كل منعطف طريق ينظر حوله ويبتسم ابتسامة من التقى بعشقه..

مرّوا في طريقهم بالمقهى وعرف مايكل معتز رغم عامل العمر، جالساً على نفس الكرسي الذي وصفه له أبوه، بينما كان صبيه سلام يضرب التلفاز على جنبه ليعود الصوت من جديد صادحاً بأغنية:

" كبد كبد كبدبد فدوة اروح لهل الخد"

ابتسم الجالسون في المقهى لعودة الصوت... وابتسم مايكل لسذاجة كلمات الأغنية، شعر بسعادتهم تغمره وهم يسيرون باتجاه بيت المختار.

سأله توماس هل الأغنية جميلة وما معناها؟

أجابه مايكل مندهشا من اهتمامه بالاغنية:

"جميلة، نعم جميلة... أما معناها فصعب ترجمته لكنه عن الحب"

ضحك توماس الذي وجد نفسه كأطرش في زفة عرس.

وصلوا أخيرا الى المضيف والتقت عيونهم بعيون الرجال التي نظرت اليهم كما تنظر الى آمالها المحققة، تقدم ابومحمد فاتحا ذراعيه ومرحبا و مستقبلاً مايكل وقبّل خديه ثلاث مرات كما جرت العادة، وفعل ابومحسن كذلك نفس الشيء مع مايكل وتوماس، أما البقية اكتفوا بالمصافحة، لم يكن توماس سعيدا بقبلات الرجال بينما سخر مايكل من الموقف و ابتسم لزميله بعد أن شاهد احتقان وجهه و همس في أذنه ضاحكا " اختلاف

الحضارات". تم الترحيب بهم بحفاوة عالية ليجلسوا بعدها على كراسي غير مريحة، لم يعرفوا تحديداً أي نوع من الكراسي، لكنهما إعتقدا أنها كراسي محلية تقليدية.

بعدها أعطى ابومحمد اشارة لأبومحسن لكي يبدأ الحديث فبدأ يروي قصته التي اعتاد على روايتها. وجه كلامه أولاً لأبومحمد ثم التفت الى الاولاد المتجمهرين حولهم.

"والله يا أبومحمد لوكان عندنا مدرسة، لكان وضع أطفالنا مختلفاً....يا أولاد! المدرسة مهمة والتعليم أهم شيء في الحياة... يجب أن تواظبوا على الدراسة لتعطيكم ثمارها الغالية، لولم أتعلم لما أصبحت موظفاً حكومياً. الآن أهاليكم يوافقون على ذهابكم إلى المدرسة، أليس هذا صحيحا؟

وجه نظراته إلى الجالسين، فكان التأييد لفظيا وحركياً.

ثم نظر في عيون مايكل الذي كان مهتما بترجمة ما يقوله لزميله. انبسطت تقاسيم وجهه وارتسمت ابتسامة رضى عفوية على شفتيه وشعر بفخر لأن كلامه يترجم الى لغة اخرى، كان ينتظر بزهو ان يفرغ مايكل من الترجمة ليستكمل حديثه:

"في أيام زمان لم يوافق الكثير من الآباء على ارسال ابنائهم إلى المدارس لأنَّهم كانوا يرون أن العمل في البيت والمزرعة أهم من التعليم، أي أنَّ الزراعة والحيوانات كانت أهم من تعليمنا".

نظر عندها في العيون منتظرا رأيهم فأجابوه:

- كان خطأ كبيرا.

رددوها وهم ينظرون الى الارض ويهزون برؤوسهم ندماً، كأنهم خجلين من فعلتهم.. أكمل ابومحسن حديثه:

"نعم، خطأ كبير"

وانتظر مايكل يكمل ترجمته وبقيت ابتسامة الرضى مرسومة على وجهه طيلة الوقت ثم اعتدل في جلسته ليكمل حديثه.

"البعض بدأوا بالدراسة لكنهم تركوها بعد فترة، بسبب قسوة المعلمين، فعادة ما كنا نصل متأخرين، وأنتم تعرفون الطريق إلى أم العيون يأخذ في أفضل الحالات ساعتين ونصف، كنا نصل متأخرين بسبب المطر والأوحال التي تغمر الطريق.. لم تشفع لنا أعذارنا، وكان المعلمون يجدون الحل بمعاقبتنا بمساطرهم الخشنة.. افتح يدك، وفجأةً تصفر مسطرته في الهواء وتلسع أيدينا"

أفرد ابومحسن ذراعه باسطا كفه ليسحبها بعد ذلك بحركة تمثيلية، كمن تلسعه المسطرة. زفر زفرة طويلة من أنفه مكملاً حديثه:

"هذا بعد كل البرد الذي تعرضنا له في الطريق".

عند هذا الحديث دار حوار بين مايكل وزميله حول ضرب الاطفال في المدارس، فتوقف ابومحسن عن الحديث حتى انتهوا ثم أكمل قائلاً:

"في اليوم التالي نبدأ المسير مبكرين.. أحيانا كان أبي يقف قبل شروق الشمس على جانب الشارع منتظرا تجمعنا لكي يطمئنَّ على أننا سنذهب

كعصابة، ومسيرنا بشكل جماعي كان يخفف علينا وحشة الطريق، وعندما نعود مساءً نكون منهكين تماماً، على الرغم من أننا أكلنا في الطريق ولعبنا، وتشاجرنا و بعد نهار طويل على أطفال بذلك العمر كانت تنتظرنا مهمات البيت، من إدخال الحيوانات وجلب الماء لسقيها و غيرها من الاعمال، فننام أحيانا قبل العشاء على أفخاذ أمهاتنا و نحمل الى فراشنا لاحقا، وننسى فروضنا البيتية الواجبة علينا في اليوم التالي ولم يحرص اهلنا كذلك عليها.. لذا لم يكن في انتظارنا إلا المسطرة اللعينة وعين المعلم المؤنبة، وعندما كان بعض التلاميذ يخبرون أهلهم بذلك، كان الحل ترك المدرسة... هذا هو سبب الأمية العالية بيننا، فلو أكمل الجميع دراستهم لأصبحوا موظفين في الدولة مثلي.. مركز مرموق... واحترام كبير من كل الناس".

نظر في عيون الحاضرين منتظراً تأييدهم فردّ ميسر الذي كان قد بدأ بإطلاق لحيته والتي كانت بطول أشواك الصبّار الأصفر الناعمة:

- أي والله، كل كلمة تقولها صحيحة يا أستاذ.

تبسم أبومحسن راضياً عن سماعه كلمة الأستاذ على مسمع مايكل وتمنى ان يترجم مايكل هذه الكلمة (استاذ) لتوماس.. كان توماس يقضم شفته ويناقش مايكل في موضوع تعنيف الأطفال.. أكمل ابومحسن حديثه:

"هكذا كنت أنا تقريباً الوحيد في القرية الذي أكمل دراسته بسبب مواظبتي ومساندة أبي لي... نعم مساندة أبي لي".

وشدد من نبرة صوته عندما قال كلمة"أبي"... بعدها التفت للأطفال

والشباب يحدثهم:

''أتمنى أن أراكم أطباء ومهندسين. شدّوا الهمة.. في الذهاب إلى أم العيون''.

ثم نَظر الى الوفد موجهاً كلامه للأولاد:

''هذا الوفد جاء لمساعدتكم سيبنون لكم مدرسة هنا وعندها تنتهي معاناتكم''.

عادةً ما يأتي تعقيب أبومحمد بعده كما فعل في هذه المرة ايضاً:

''لقد سمعتم كلام الأستاذ، شدّوا الهمة وخلّونا نفرح بكم ونراكم أطباء ومهندسين''

بدأ مايكل بطرح بعض الاسئلة التي تدور برأسه ورأس زميله عن العنف في المدارس، فأيّد الحاضرين بعضهم البعض بأن ضرب الطلاب في المدارس ليس لتعنيفهم إنما لمصلحتهم، وضربوا أمثلة كثيرة على مدى اهتمام كثير من المعلمين القساة بمستقبل تلاميذهم. بينوا لهما مدى حاجتهم لمدرسة في الوادي، بنبرة توسل خائفين من أن يعدلوا عن رأيهم بسبب عنف المعلمين. بالنسبة لمايكل تفهم كلامهم، أما توماس فجحظت عيناه عندما سمعهم يؤيدون تعنيف الأطفال. لم يكن لتوماس خبرة بطبيعة المدارس في دول العالم الثالث إذ أن المشاريع التدريسية التي تابعها في المناطق المنكوبة كانت تحت اشراف الامم المتحدة، ولا يوجد مجال لتعنيف طفل فيها. سادت فترة صمت وطأطأ توماس برأسه مفكراً.

كسر ابومحسن جدار الصمت بحكايته المفضلة التي إعتاد على روايتها.

''يا أولاد، كانت لدينا مهام أخرى نقوم بها في ذلك الزمان، لم يكن في قريتنا إلاّ دكان واحد لأبي ممدوح، لكنه مات، وأرجح أنه مات كمداً من أهل القرية وزبائنه المعدمين، ففي أيامه الأخيرة باع كل ما لديه في الدكان بالدين ولم يستطع زبائنه أن يسددوا له شيئاً، فغادر الحياة رحمة الله عليه مع دفتر ديونه، ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على فتح دكان في القرية''.

قهقه الحاضرون إلا الأجنبيين الذين اعتبرا هذه القصة مأساوية.

فأكمل روايته ''أما المنتجات الزراعية فكان الفلاحون ينقلونها في ذلك الزمان إلى أم العيون على ظهور الحمير التي كانت كثيرا ما تحرن في الطريق، كان عملاً شاقاً''

تحسر أبومحسن وسكت قليلا ثم أستكمل حديثه:

''ليت ذلك العمل المضني دام لنا، لبقيت كذلك الأرض لنا. الفلاحون كانوا يجلبون للناس ما يحتاجونه من أم العيون من سكر وشاي وزيت وغيره، حتى بدأ تجار الخضار والفواكه بتسهيل الأمر على الفلاحين، ارسلوا سياراتهم لكي تحمل المنتجات الى السوق. لم يطرق فكرنا أن التجار لا يفعلون شيئا لوجه الله. كانت المنتوجات تباع بثمن بخس فنحن لا نعلم سعر السوق.

وهكذا أصبح للطلاب دور جديد في حياة القرية، لقد أصبحوا مسؤولي مشترياتها من الدكان المجاور للمدرسة، كنا ندخله بانشراح لأن صاحبه

اعتاد أن يعطينا قطعة حلوى حين نشتري منه، وكنا نبقي عليها حتى نعود إلى القرية لنستلذ بالحسرة والغيرة التي تثيرها الحلوى في قلوب أقراننا الذين كانوا يحدثوننا عن حريتهم ولعبهم أثناء النهار... بينما نحن كنا سجناء الصفوف، فضلاً عن ذلك كنا نحصل على مكافأة من الأهالي الذين نشتري لهم السكر والشاي مقابل أتعابنا... آه ما أجمل تلك الأيام كانت كلها طيبة وخير"..

تبسم ابومحمد ورفع صوته مقاطعاً:

- لقد ذكرتنا بالطعام.

فنادى على أولاده الذين جاءوا يحملون صينيتين من البرغل مع أطباق السلطة.. فكر مايكل بمدى فقرهم أما توماس فأعجب بأكلهم الصحي. جلس توماس بجانب ابوعلي وأخذ ملعقتين من البرغل بينما كان ابوعلي يمسك بما يستطيع من برغل بقبضة يده ثم يضغط عليه بيده الجبارة ليتحول الى كرة صغيرة تختفي في فمه، ثم ينفض ما تبقى من البرغل في يده في الصينية ليعيد صنع كرة جديدة. فجأة أخذ حفنة كبيرة من أمامه ووضعها في صحن توماس الذي كاد أن يفقد صوابه قائلا " كُل، كُل بالعافية، أهلا بالسادة"، تدارك توماس الموقف قائلا " لا، شكرا لقد شبعت ووضع صحنه جانباً" واستغربوا أكثر من مايكل عندما رفض الأكل بيده وطلب ملعقة.

بعد الطعام حمل محمد ابريق الماء ودار به على الضيوف ليغسلوا ايديهم وينشفونها بنفس المنشفة التي وضعها على كتفه، يقدمها للضيوف ضيفاً بعد

ضيف لينشف يديه، أبى توماس استخدامها خوفا من التلوث، ألح محمد بمد المنشفة اليه، بينما بقي توماس مصراً على رفضه ومحافظاً على بشاشة وجهه، فتجاوزه محمد مستغرباً من عادات الغرب القميئة... بينما كانت الملاعق تعزف لحنها لتذيب السكر في اقداح الشاي قال أبومحمد بنبرة حكيمة.

- يا أولادي الدراسة والتعليم والتثقيف والقراءة أشياء مهمة..

كان أبومحمد يتضايق من أميته، لذلك كانت لديه مداخلات تأتي عادة بعد أبومحسن يبين فيها أنه قادر على بناء جملة تشابه جمل المثقفين فرفع صوته فوق صوت ابومحسن الذي بدأ بالكلام فأسكته وقال:

" أنتم تعلمون أنه ليس في قريتنا مكتب بريد، وأقرب مكتب بريد هو المكتب الموجود في أم العيون لأنه في ذلك الزمان لم تكن ظالمايا العليا موجودة... كل الذين خرجوا من القرية وسافروا كانوا يرسلون رسائلهم إلى أبي إحسان الذي يعمل في البريد هناك... إنه ابن عم أبوعلي القصاب... كان تلاميذ القرية يزورونه كل يوم بعد الدوام ويجلبون منه البريد، ويقوم أبومحسن بقراءة الرسائل لأصحابها فيصيبه من الطيب نصيب.

هل تتذكر تلك الأيام يا أبا محسن؟

ارتفع حاجبا أبومحسن وبرز خديه ساحبين شفتيه وأجابه:

"لم أكن آخذ في العادة شيئاً من الفقراء.. هذا عند السراء أما عند الضراء فكنت آخذ حتى من أبي، هذه ايضا من بركات التعليم". أتبع كلماته

بضحكة عالية ليضج بعدها المكان بالضحك،، ودواخل عارفيه تقول "رغم تعليمك يا أستاذ لم يسمحوا لك أن تستمر بالعمل في قصورهم كخادم"، كان يستطيع ان يقرأ في اعينهم أن حاله كحال الجاهلين، لكنه كان تعمد تجاهل نظراتهم حفاظا على كرامته.

(6)

بجلوس أبي محسن على رصيف البطالة تحول معظم خدم ظالمايا العليا بالأمس إلى متسولين فيها. يتنقلون بحركة حثيثة ما بين القصور والفلل، يلتقون ببعضهم البعض ويتبادلون الخبرات حول كرم تلك القصور القابعة في القمة.

حصل أول ممارسي المهنة على أكثر مما كانوا يحصلون عليه عندما كانوا يشتغلون في تلك القصور، لكن مع ازدياد المتسولين تعسر الكرم، لزيادة الطلب على العرض.

تسير في كل صباح طوابير المتسولين من الوادي إلى القمة وكأنهم ثعبان حقيقي يتسلق الجبل تحت شمس الصباح التي توضح معالم حركته. كانت حصة الأسد من العطاء للذي يطرق ابواب القصور أولاً، وفي المساء، وبعدما يضيق أهل القصور ذرعا بهم، كانوا يَطردونهم من على البوابات زاجريهم زجراً، وأحيانا كانوا يُضربون من قبل البوابين والحرس.

كان بعض هؤلاء المتسولين يقف بجانب أسيجة القصور منتظرين نهاية الحفلة المقامة في الداخل، ويرقصون ابتهاجا بالموسيقى وقرب نهاية الحفلة أكثر من الجالسين على المقاعد الوثيرة في الداخل، وعندما يجوعون يعطي من عنده بعض الطعام في جعبته لخالي الوفاض ما يُسكت به جوعه، رغم الأصناف اللذيذة التي كانوا يحصلون على بقاياها، كان لها مذاق الطعام

الذي يرمى للحيوانات... بلا كرامة. هذا ما كان يفسر شعورهم بالمهانة وهم يعودون الى اطفالهم بالطعام.

تجمهر الفقراء أمام بوابات القصور أثار حفيظة ساكنيها، فاستخدموا نفوذهم وطلبوا من معارفهم في الدولة أن يمنعوهم. قامت الشرطة بإنذارهم أولاً لكنهم لم يكفوا عن التسول، لذلك باغتتهم الشرطة ذات يوم. أرادوا أن يهربوا ولكن إلى أين؟ فجأة تحول المكان الرحيب الى قفص صغير. كل أبواب القصور مؤصدة بوجههم ومنافذ الخروج مغلقة، ومن تلك الشوارع المفتوحة اصطادتهم الشرطة كما تصطاد الكلاب السائبة...! بَصم أغلبهم على محضر التحقيق الذي أجري معهم، دون أن يعرفوا معنى أي كلمة من تلك الكلمات التي كتبت فيه، لكثرة الركلات والصفعات التي نالوها، لكنهم فهموا من مجريات التحقيق أنهم لو عادوا إلى التسول فسيعاقبون بشدة، أطلق سراحهم بعد حين حاملين على وجوههم وارادفهم طبعات تلك الصفعات والركلات.... كُتب في وسائل الإعلام أنه تم القضاء على ظاهرة التسول المستشرية في المجتمع بطريقة إنسانية ومعاملة حضارية. قرأت تلك الصحف بنشوة من قبل أهل القمة ولم يطلع عليها أهالي ظالمايا السفلى لأن معظمهم أميين. حصل الضباط الذين قاموا بالحملة على مكافآت مالية وهدايا رمزية من الدولة ومن أصحاب القصور.

مع الأيام أصبح مايكل قريبا من الشباب الذين كانوا يشكون اليه هموم بطالتهم فوعدهم بالحديث بهذا الموضوع في مناسبة كبيرة وقال سأطلب من الاغنياء أن يقوموا بفتح أعمال و معامل هنا و يجلبوا أموالهم من الخارج،

تلقى مايكل الكثير من الدعوات الى مناسبات عامة وخاصة... في أحد هذه المرات دعي لحضور مأدبة في دار بلدية ظالمايا العليا، فحضر كضيف شرف لا لسبب إلا لكونه أجنبي يتحدث العربية وقد جاء مع منظمة عالمية... في ذلك اليوم كان سالم حمدان أحد الأغنياء الجدد، قد عاد حديثا من غربته وهو اصلا من محافظة أخرى فأراد أن يتعرف على الناس. دعا كثيرا من الوجهاء والموظفين الكبار لمأدبة عشاء على حسابه الخاص و كان الشاعر المعروف عبد الرحمن السوداني من ضمن المدعوّين. كان المضيف متفاخراً لأنَّ الشاعر سيشيد بآدميته ببعض قصائد المديح أثناء المأدبة فحاول مايكل أن يفتح موضوع العمالة منتهزا فرصة الترحيب الحار به، واعتقد أنه قد اختار الوقت المناسب لذلك... بالضبط بعد انتهاء الشاعر من إلقاء قصيدة المديح بحق راع الاجتماع. توجه مايكل اليه، وكان بجانبه الكثير من أصحاب الكروش وقال لهم:

- في الحقيقة لكم التفاتات كريمة لا تُثمَّن، لذلك رأيت أن أسترعي انتباهكم إلى نقطة مهمة..

أمعنوا النظر فيه و انصتوا تماما له حتى أكمل مايكل حديثه:

- الفقر في ظالمايا السفلى قاسٍ جداً... وأنتم بينكم روابط قديمة فلماذا لا تجلبون عمالاً من هناك.. ليعملوا عندكم في الأمور البسيطة.

لم يرق لأحد منهم هذا الكلام، أجابه صاحب الدعوة ممتعظاً:

- إنهم شياطين بلباس البشر.. ذئاب في ثياب بشر.. هم حاقدون

علينا... نحن لا نأتمنهم على أنفسنا.

توقع مايكل مثل هذا الرد فنظر اليه بود وقال:

- يا سيدي بينكم صلات عميقة... وعلاقة نسب قديمة... والجيل الجديد لا يعرف ما حصل قبل أجيال.

ارتفعت اصواتهم احتجاجاً على هذه المساواة ثم تابع المضيف بشمخرة و مشيرا اليه بكفه:

- اشرحوا لهذا الرجل سبب عدم تعاطفنا معهم، ليفهم أن الذنب ليس ذنبنا... عن إذنك عندي ضيوف.

وانصرف من كان حوله وتركوه وحيداً.

وقف جانباً مستغرباً من ردة فعلهم القوية وتمنى لوكان الشاعر الألماني برشت شاهدا على هذه الحياة، كم تمنى لو يرى تعابير وجهه وردد قوله:

قالوا لي: تناول طعامك واشرب وكن سعيدا... ولكن كيف أفعل ذلك وأنا قد خطفت طعامي من أفواه الجائعين وشرابي من أفواه الظامئين... ومع ذلك لا أزال آكل وأشرب.

ركز مايكل جل جهده على مشروعه ولم يبلغ الشباب بما حدث معه في الدعوة، وبقي يعدهم صادقا بأنه سيفتح الموضوع مرارا و تكرارا لكن كانت تلك آخر دعوة تلقاها مايكل في ظالمايا العليا.

(7)

كانت قريتهم كباقي القرى تصحو على رائحة الخبز الطازج، تلك العلاقة المتأصلة بين الخشب والقرية منها يطهون ومنها يكافحون البرد، وبالرغم من أن قطع الأشجار ممنوع، كانوا يقطعونها خلسة لشدة الحاجة لها، لكن بعد ظالمايا العليا وملاحقات الشرطة بات الخوف سيفا على رقابهم، فلم يجرؤ أحد منهم على حمل فأسه وقطع الأشجار وبات صباح القرية منقوصاً من رائحة خبز التنور الذي بات يقتصر على الاعياد.. لذلك كانت النساء والشبان يخرجون في رحلات جمع الروث قطعة من هنا وأخرى من هناك، ويقومون بوضعها في مكان مفتوح أمام الشمس على كتف الجبل لتجف، ثم ينقلونها إلى البيوت ليدرأوا بها برد الشتاء. لكن هذا التقليد أثار غيض الأغنياء مرةً ثانية، قائلين:

"حدائقنا زرعناها بالورد وجملناها للجلوس، وقد باتت محرمة علينا بسبب نتانة النسيم الذي يهب علينا".

كان ذلك في الشتاء ونادراً ما تشرق شمس دافئة تصلح لجلوسهم في الحدائق، ورغم ذلك طلبوا حمايتهم من تسلل ريح النتانة من فوق السور. كانوا يرون أن التلوث وتصريف المياه الثقيلة إلى القعر هو أمر طبيعي، ووجود تلال الأوساخ في أسفل الوادي هو جزء من جغرافية المنطقة، أما وجود قشة في شوارعهم فهذه جريمة بيئية.

قال ابومحسن حينها في مجلس ابومحمد:

''طلبهم لا يفرق كثيرا عن طلب ماري أنطوانيت، يتساءلون لماذا لا نتدفأ على المدافئ النفطية أو التدفئة المركزية... بدلاً عن كل هذه القذارة ''.

فسأله معظم الجالسين وماذا طلبت ماري انطوانيت: فقال لهم

''طلبت من الشعب أن يأكل الكعك طالما أنه لا يوجد خبز''.. استحسنوا المثل وقال ابومحمد معقباً: '' ما أشبه اليوم بالبارحة''.

بدأت الجرائد تتحدث عن التلوث البيئي، وصحيفة متزلفة حمّلت أهل ظالمايا السفلى ذنب ارتفاع حرارة الكوكب، وصحفي متملق آخر كتب عن الإساءة إلى الذوق العام. في نهاية المطاف تم إصدار قرار بدراسة هذه الظاهرة غير الحضارية، وانتهت بعد أسبوع بإصدار قانون جديد اسمه الجريمة البيئية، وقامت سيارات الشرطة بتبليغهم بالقرار، زار ضابط شاب له قامة عملاق وشاربه قد أحاط بفمه و نزل الى اسفل وجهه مجلس ابومحمد، نزل من السيارة بعصوبة لضخامته ومشى متبخترا باتجاه الرجال، شعر معظم الجالسين في المضيف بخوف يعتريهم وهم يراقبون الضابط يتوجه اليهم وهو يدق الارض بحذائه، أبلغهم مشمئزاً من الحديث معهم بالقرار الجديد ليقوموا بتبليغه لبقية القرية، وكان من عواقب هذا القرار سجن العديد من الرجال وموت الكثير من الأطفال.

في تلك الأيام كان تحميم الأطفال بالماء البارد كلعبة الروليت الروسية بحياتهم، لم تكن لديهم إمكانية لغلي الماء الكافي لكي يستحم الاطفال بسبب

ارتفاع ثمن الوقود. مات الكثير من الأطفال بسبب الحمى، ولم يكن الدواء في متناول ايديهم، والبابونج والأعشاب الاخرى لم تنقذ حياة الاطفال.

الشعور بالاضطهاد كان فتيل نقمة في نفوس أهل القرية جميعاً، و من النقمة ما قتل. كان الحديث الذي يدور بين أبي محمد وضيوفه لا يخلو يوما من تذكر مآثر أبي ماجد الحطاب، وعلى ما يبدو أن هناك من ثارت نخوته وقرر قتل الظلم المتمثل بالأغنياء، وسكن كل الغليان عندما شربت الأرض من دمه. كانت الشرطة تعلم أن الدافع هو كره المستضعفين للمتجبرين، فالقاتل حتماً من ظالمايا السفلى.

(8)

كان جاسم سليمان الغني أحد صانعي قرارات الظلم ضد ظالمايا السفلى، من اشد المعارضين لقطع الاشجار و أوشى رجاله بالكثيرين ممن قطعوها الى الشرطة تقرباً من سيدهم. تداولت الصحف اسمه حتى بات ممثلاً شبه رسمي للظلم عليهم، اشترى الكثير من أراضي الجبل المتجاورة وحوّلها إلى بستان كبير، ولم يتوقف عن شراء الأراضي وضمها لبستانه.

كان تاجراً ممتازا وقناصا للفرص، اشترى أفضل الاراضي.

وضع في بستانه كل أسباب الرفاهية، لديه حدائق للترفيه عن النفس فيها ممرات مرصوفة بحجر ناعم وأبقى المصممين على بعض الصخرات التي غطيت بنباتات متسلقة، ووضعت عدة نافورات تحمل التصاميم الاندلسية وفي الحديقة الأمامية وضع نافورات حديثة، و كانت خطوط اشجاره مستقيمة تماما و تتقابل بصفوف متوازية و كأنها جنود في استعراض عسكري، كان يحب أشجاره وزهوره برومانسية عالية، ويحب أن يختلي بها، يحب السير بين سيقانها يداعب أغصانها وعندما كانت تذبل شتلة أو تموت شجرة في بستانه لا يتأخر في صب جام غضبه على الفلاحين، طرد الكثيرين منهم واستبدلهم بآخرين عند كل حادثة ذبول.

طلب ذات يوم من الحراس أن يفتحوا له باب المزرعة، ليسير حولها كما إعتاد أن يفعل عندما يكون قد فكر بشراء الأرض المجاورة ليمتد سلطانه

على الجبل. ابتسم له الحارس وقال: مبروكة مقدماً.

ابتسم جاسم وأومأ براسه مستحسناً المباركة.

بينما كان ينظر إلى الأرض الممتدة أمامه مستمتعا بفكرة امتلاكها، شعر بوقع أقدام خلفه، التفت ورائه جحظت عيناه وقال:

- أهذا أنت؟
- ومن يكون غيري؟

تسارعت دقات قلبه. لم يصرخ بقي مبهوتاً من هول المفاجئة...كان صوت الطعنة الأولى مكبوتا بينما غاص النصل في كرشه، وبقيت نظرة الاندهاش مزروعة في عينيه الجاحظتين. عثر عليه لاحقا منكفِئاً على وجهه و غارقا في بركة من دمه، بركة لها ذيل طويل يدل على أنه قد زحف مسافة طويلة قبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة.

قُتل بأداة حادة غرزت في جسده تسعاً وثلاثين مرة مما دل على مدى كره القاتل له. لم يترحم عليه أحد في ظالمايا السفلى وقالوا "نقص قطيع الخنازير خنزيرا" هذه الجملة رددها الكثير من رجال القرية انتقاما، ولعنه الكثيرون إلا الشيخ عبد العليم الذي قال لهم مذكرا:

"اللعن حرام.. إنه كبيرة من الكبائر" ونصحهم بذكر محاسن موتاهم... والله أعلم بما كان في نفسه.

دارت السيارات في الأحياء والأزقة، وقبضوا على العديد من الشبان والشيوخ والأطفال، من ضمنهم محمد ابن أبي محمد، وكان المحقق في كل

التحقيقات هو السوط يسألهم ولسانهم يجيبه بالآه تلو الآه.

كان محمد يحثهم على الاعتراض والثورة في وجوه السجانين، ويقول لهم لا يحق لأحد حجزنا على هذا النحو فلا توجد شكوى مباشرة ضدنا، وبين كل ثلاث ساعات يدخل المحقق ويسألهم.

- هل ستعترفون؟

وقبل أن يجيبوا يبصق عليهم ويشتمهم ثم يتركهم خارجا وهم في ذهول، فيقول لهم محمد:

- ألا ترون أنهم لا يعاملوننا بأي احترام؟

فيهززون رؤوسهم ايجابا. في الليل رموا لهم حصيراً متهالكاً ووعاءً لقضاء الحاجة في حجز لا تتجاوز مساحته عشرين متراً سرعان ما امتلأ الوعاء بالبول الذي بدأ يسيل تحتهم، ما أدى الى شجار طويل أخذ الليل و سكينته معه.

دخل ضابط التحقيق في الصباح الى غرفة الحجز وسألهم:

- حقراء، ألا تشعرون بالذنب من فعلتكم؟

عندها انفجر محمد:

- ألا تشعر بالخجل؟ نحن القتلى ولسنا القتلة.

كلماته انقضت على الضابط، فاطبق فمه وتصلبت اوداجه:

- ماذا تعني؟

- ما أعنيه هو، لو أن الأغنياء أعطوا فرصة للفقراء والجوعى للعمل في القمة لما كنّا هنا الآن.

ابتسم الضابط مبديا رضاه على تلك الكلمات، وطمأن محمداً بهدوء شديد وقال:

"بطل أنت... نعم أنت بطل... وعندك حجة سنناقشها معاً".

شعر محمد بدايةٌ بالراحة لأن الضابط سيستمع إليه، لكنه سرعان ما غامره شك أعقبته ريبة.. وتصبب عرقاً بارداً... واستمر الضابط محافظا على ابتسامته، وطلب من عريف محمود أن يخرجه لكي يتناقشا في الموضوع خارجا.

ما أن خرج الى الممر، وبمجرد أن أغلق باب الزنزانة، سمعَ من في الزنزانة صوت ارتطام محمد بالأرض أو الجدار، وتوالت اللطمات والركلات وهو صامت عدا صرخات مكبوتة... وسؤال تكرر على لسانه: "ماذا فعلت؟" فيتلقى لطمةً ثم ركلةً تتلوها أخرى. كان السجناء منصتين لكل حركة في الخارج و خائفين، أخيرا سكن كل شيء لثوان ثم جاء صوت العريف محمود يتف عليه ويقول.

- لكي تتعلم يا ابن القحبة كيف تجيب في المرة القادمة.

(9)

توالت زيارات الناس لأبي محمد طالبين تارة، ومتوسلين تارة أخرى أن يذهب الى مركز الشرطة ليستعطفهم لكي يطلقوا سراح المعتقلين، لم يعلموا أنهم يطلبون منه مواجهة نقطة ضعفه، وعلى الرغم من أن ابنه من بينهم، الا انه لم يجرؤ على التدخل في الأمر، تكلم معهم عن توقعاته وكرر لهم مرات عدة " لن يستغرق الأمر سوى ساعات"... زادت اعداد النساء المترجيات ولم يخل مضيفه من المترجين حتى بات من الصعب عليه أن يطلب منهم التحلي بالصبر، وحينما طال الأمر اضطر للتوجه إلى مركز الشرطة لأنه لم يعد يقوى على رفض طلب زوجته وزوجة ابنه بالتدخل بالموضوع. ارتدى أفضل ثيابه، معتقدا أنها ستعطيه الهيبة المطلوبة لكي يتدخل بإطلاق سراح المعتقلين.

وقف أمام مديرية الشرطة تلك البناية التي تشعره دائما بالهلع وشاهد الحراس أمامه وهم يحملون السلاح متأهبين وكأنهم على وشك الدخول في حرب. شعر أولاً بقرصة برد ثم بصعوبة في بلع ريقه. فكر فعلياً بالتراجع، ثم حدث نفسه ناصحاً ومذكراً:

"ماذا سيقول الناس عني.. سأفقد ماء وجهي".

نظر إلى السماء و دعى الله بتوسل:

"يا معين و يا مغيث اغثني"

شعر بالعرق البارد يسيل على ظهره.

توجه إلى البوابة وسلم على الحرس اللذين لم ينتبهوا من قربه منهم وطلب مقابلة المدير:

أجابه أضخمهم مستجوبا بنبرة عدائية عن غرضه من الزيارة. علم ابومحمد أنه رئيس العرفاء لم يطل الحديث بينهم، حتى أومأ لعريفين بأخذه للداخل قائلا: هذا سأحقق أنا شخصياً معه.

أمسكوا به وسحبوه بعنوةٍ غير مبررة إلى الداخل.

أدخل إلى غرفة بدت مريبة كالقبر المفتوح، فيها منضدة قديمة وكرسيين احدهما بلا مساند. دفعه أحد العريفين على كرسي، فهوى عليه.. شعر أبومحمد أن زقزقة الكرسي تتوافق مع دقات قلبه المضطربة. كان زجاج نافذة الغرفة مطليا بلون رصاصي اضفى على المكان مسحة حزن. جلس طويلا وكلما مر الوقت زاد قلقه. جاء للتوسط فأصبح مشتبهاً به وسيتم التحقيق معه.

واخيرا وجد نفسه امام رئيس العرفاء، نظر في وجهه العجيني المترهل و عينيه الغاضبتين والغائرتين تحت حاجبين عريضين يتراقصان بعصبية وثلاثة أخاديد عميقة على جبهته وشارب غير مهذب متربع على شفتين عريضتين ونظرات وقحة لا تستحيي من إحراجه جعلته يرتجف كما ترتجف الفرائس قبل أن تلتهم... جلس المحقق صامتاً على كرسيه شابكاً أصابع يديه الخشنة مع بعضها واضعا حنكه عليها.... لم ينطق بأي كلمة.. انكمش أبومحمد

على نفسه وأراد أن يختبئ من نظراته...أخيراً نطق وقال بخبث ترافقه ابتسامة فرح تقصدها، امعانا بارهابه:

- جئت إلينا بقدميك.. كنا سنجلبك اليوم.

سال عرق بارد على ظهر ابو محمد و أجاب مرتاباً:

- خيرا.. خيرا إن شاء الله.

كان صوت أبومحمد يشبه الهسهسة حتى إنّه لم يجرؤ أن يخبره أن ابنه من بين المحبوسين عندهم. سأله بصوت غليظ متيقن من معرفة أبومحمد للجاني:

- تفضل اعترف من الفاعل؟

إختنق ابومحمد بكلماته التي لم تخرج من حلقه إلا بصعوبة:

- فاعل.. ماذا تقصد.. أنا أعرف الفاعل؟.. والله...

رفع المحقق يده المفتوحة أمام وجهه وصرخ.

- اخرس.. بلا أيمان ولا أديان، اعترف ولا تضطرني أن أتعامل معك بأسلوب آخر.

لم يفهم أبومحمد كيف يتصرف معه، ولم يكن المحقق صبورا لذلك تصرف معه بالأسلوب الآخر، وبعد ساعات من التحقيق والضرب والاهانة التي عرته من ثيابه كما عرته من كرامته، استعاد أبومحمد ملابسه قبل خروجه لكنهم سلبوه كرامته الى الأبد، بينما كان رئيس العرفاء يعلق

الحبال و السوط باشمئزاز و هو يسب ابو محمد والقرية و أهلها.

عاد إلى مجلسه، حيث كان ينتظره من تبقى من رجال القرية.

كانوا يراقبونه بحيرة من خطواته المرتبكة، ودار في رأس كل واحد منهم عشرات الأسئلة:

- بشرنا بالأخبار يا أبا محمد؟..إن شاء الله خير؟.

- كل الخير.. مدير الشرطة رجل محترم قابلني باحترام بالغ وشرحت له الوضع. سكت بعد أن تعثرت الكلمات على لسانه. انهالت عليه الاسئلة:

- ماذا قال؟.. ماذا قال؟... بماذا وعد؟

- كل الخير.. قال لي يا أبا محمد نحن نثمن مجيئك الينا وسنفعل ما بوسعنا، وإن شاء الله سيطلق سراحهم قريبا، والآن يجب أن أدخل لأستريح".

دخل إلى بيته هارباً من مواجهة الاعين المتسائلة، التي شعر أنها على وشك أن تكشف سره الذي حاول ستره بابتسامة كافح ليجعلها طبيعية، وتوجه مباشرة إلى غرفته محاولاً إيقاف نزيف كبريائه، والذي بات ينزف مجدداً كلما التقى بالزي الميري.

(10)

اسم ظالمايا الغريب أثار كثيراً من الجدل، وتناقل الناس روايات عدة بشأن اصله، لكن الرواية الأقرب إلى التصديق كانت تتعلق بمجموعة من الثوار سكنوا في الجحور الموجودة في عمق الوادي هاربين من الظلم. عندما سأل أحدهم عن إسم مكان سكنه. دار فكره بمحورين هما كل عالمه الظلم والظلام و لا شيء غير ذلك، فكانت ظالمايا، تلك النبوءة المحققة.

كانت القرية في عيون أهلها هي الجمال بعينه، فيها النقاء والصفاء والحب، وعندما يتحدث عشاق الأرض من الجيل السابق عنها يقولون كما قال المغفور له نرسيس جار ابومحمد وصديقه:

"أرضنا طيبة معطاء، كريمة وحنونة، هي أمنا، كانت تعطينا من أعماق روحها ما نطلبه منها مقابل رعايتنا لها.. كانت تحس بنا وتحتضن أحزاننا، وحافظت على قيمها وأخلاقياتها تجاهنا حتى تغيرت قيمنا تجاهها"

كمعظم القرى حزينة وفقيرة، محبوبة وعزيزة وقادرة على جعل أكثر ابنائها جحودا أن يحن اليها ابد الدهر.

مع قدوم هذا الجيل الجديد من أولاد الفلاحين الذين كانت الأرض هي عشقهم تغير كل شيء جملة وتفصيلاً، وقبل أن تأكل الأرض لحوم آبائهم كانت الأرض قد بيعت، طمعوا بالمبلغ الكبير الذي دفع مقابل الفدادين التي استورثوها فباعوها معتقدين أن استثمارهم لثمنها في مجالات أخرى

ستجعلهم يشترون أضعاف فدادينهم خلال فترة قصيرة. لم يتمكن أي من الذين باعوها أن يستردوا حفنة من ترابها. فأصبحوا بعد وقت ليس بالطويل فلاحين بلا أرض ولا نقود.

حزنت الأرض فغضبت السماء لحزنها، فلم تعد السماء تعطيها الماء لكي لا تضطر أن تعطي الخير لمن لا يعشقها، هذا ما تردد على لسان الكثيرين منهم. ماتت الأرض وتشققت وباتت بورا أما الأغنياء الذين اشتروا الأراضي فكانت لديهم القدرة المالية أن يحفروا في الأرض حتى وصلوا شرايينها غصباً ومنها سقوا الأراضي التي اغتصبوها بقوة رؤوس أموالهم. قطعة بعد قطعة حتى بات الجبل كله تقريبا ملكاً لهم، وعندما نفدت نقود الفلاحين لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا عندهم بالأجرة.

"ما أتعس الفلاح الذي يعمل أجيراً في أرضه". جملة تدور في اماسي الفقر والوحشة على ألسنتهم.

كانت القرية تمتد على مسافة قصيرة على ارض منبسطة وتتسلق بعد ذلك كتف الجبل و تتشبث به كما يتشبث الأطفال بسيقان آبائهم في الأماكن المزدحمة خوفاً من الضياع.. المنازل الحديثة موجودة في بداية القرية، أما الحي القديم فيقع في نهايتها، وبعد آخر بيت فيه، وبالضبط بعد مئتين وخمسين متراً منه، تتجاور مقبرتا المسلمين والمسيحيين. الكل يحترمونها ويحاولون رعايتها بالتنظيف.. كان المسيحيون يقرأون الفاتحة عندما يمرون بها والمسلمون يترحمون على موتاهم من المسيحيين، كانوا عائلة واحدة.. لكن

هذا لا يعني انعدام الخلافات بين أفراد العائلة الواحدة. عندما بدأت ظاهرة سرقة القبور، حجارتها وصناديق الحديد المثبتة فوقها... لم يكن الدافع عنصريا أو دينيا، لذلك سرقت مقابر المسيحيين كمقابر المسلمين بالتساوي لا فرق بين قبر المسيحي والمسلم.

في ذلك الوادي المنسي كان التآخي بين الديانتين واضح المعالم، فالنساء المسيحيات ينشغلن بالتحضير في أيام أعياد المسلمين، ويعرفن تماما ما يجب عليهم عمله لمساعدة المسلمات في العيدين، كما تنشغل المسلمات بالتحضير لأعياد الميلاد ويساعدن اخواتهن المسيحيات بالضبط بعمل ما يجب.

لم تتأخر ماما ليلى بنت نرسيس عن مساعدة أم محمد في التحضير لكلا العيدين، لكنها كانت لا تكف عن توجيهها طيلة اليوم، وتوبخها على أخطائها في التنظيف، وبالمقابل كانت أم محمد تذهب عندها في أيام أعياد الميلاد المجيدة وعيد الفصح، لكن ماما ليلى لم تعطها الكثير من المهام لأنها كانت تقول لها صراحة.

"أنت لا تعرفين ما أريد".

لم تنزعج أم محمد من تعليقها أبداً، وكانت تقول لها دعيني أفعل ما تعتقدين أنني أجيده.

تبتسم ماما ليلى وتجيبها ساخرة منها.

"وهل تجيدين أنت شيئاً، اشكري الرب أنك تزوجت"..

فتضحكان وينتهي النقاش بأن تسمح لها بكنس عتبة الباب الخارجي.

في الحي القديم بظالمايا السفلى ما زالت دار أبومحمد باقية على حالها، كما يتذكرها منذ طفولته.. الباب الخشبي بمساميره العريضة على طوله ومقبضه المخلوع، ما أن تدخله ستقابلك باحة الدار الكبيرة تتوسطها حلبة فيها بعض الزهور، بيت كمعظم البيوت الشرقية باحة الدار محاطة بكل الغرف والسلالم التي تؤدي الى الطابق الثاني حيث غرفة محمد والسطح..

التغير الجذري الذي طرأ على ظالمايا السفلى هو طول الفترة التي تهجرها فيها الشمس، وارتفاع الأشجار حولها وفي داخلها، ومع كثرة المواد المعدنية وفضلات ظالمايا العليا بكل عطائها للأشجار جعلها تنمو بنحو غير طبيعي، تفرعنت ودفنت القرية تحت ظلالها الوارفة. لم يكن الظلام والرطوبة ما يزعج الأهالي بل وجود الفضلات والقاذورات الدائم. الرطوبة جعلت صيفهم عرقاً دائما والشتاء برداً ساحقاً، وبات السلّ مرضا ملازما للعديد منهم.

بنيت بيوتها بطريقة عشوائية، ورغم ذلك كان فيها جمال بوهيمي غريب، فهي تشبه فتيات القرية جالسات حول عين الماء كيفما اتفق..

توالت جلسات مايكل وتوماس في مجلس ابومحمد واقتنعا بمدى حاجة الاطفال الى المدارس وتقرر فتح مدرستين ابتدائية والثانية متوسطة واعدادية، وعندما قدما تقريرهم عن حاجة القرية الى مدرستين، طلب منهم التشاور مع لجنة تخصصية في دار البلدية في ظالمايا العاليا، فبات أمل اهالي ظالمايا السفلى بالمدرستين معقودا بإرادة القمة.

(11)

مع استيقاظ الديكة تدب الحياة في القرية، يسرع المؤذن أولا الى الجامع ويلتحق به المصلون بخطوات كسلى وأخرى عجلى للحاق بصلاة الجماعة..

بعد عودة ابومحمد من الجامع تناولت عائلته إفطارها مجتمعة حول سماط فرش على الارض، آخر لقيماتهم كانت عند السابعة صباحاً، ووزعت الأم مهامها على بناتها، واحدة في باحة الدار، وثانية في المطبخ، وأخرى توجهت إلى السطح.

قبل الساعة السابعة والنصف صباحا، نظر أبومحمد الى ساعة الحائط وطلب كعادته من أولاده أن يخرجوا ويحضروا ديوان ضيافته لأنَّ ضيوفه سيأتون قريبا. كان معظم الضيوف من أصدقائه العاطلين عن العمل، لكنهم اعتادوا على الاستيقاظ مبكرين، حالهم حال المسنين لا يهجعون إلا قليلاً من الليل، وفي نهارهم لم يكن لديهم من عمل سوى الجلوس مع بعضهم ليجترون تاريخاً مزيفا، وأمورا فارغة لم يهتم بها أحد سواهم.

معظمهم مدخنون، ولكلّ منهم كيس تبغ خاص مصنوع من القماش وفيه ورق لف التبغ أو الغليون، يدخنون سيجارة بعد اخرى ومكترثين بكل صغيرة وكبيرة عن نوعية التبغ. كان هذا من أهم مواضيع حياتهم اليومية، في عالم بعيد تماماً عن التجديد.

استاء أبومحمد من تأخر الأولاد بالخروج فنادى على محمد:

- يا الله يا ابني، سيصل الضيوف قريبا وأنت لم تجهز المضافة بعد..

أجابه محمد:

- لحظات ويكون كل شيء جاهزاً.
- لا تتأخر، بسرعة.
- طيب يا أبي.. طيب.. طيب.

أولاده طوع يمينه، زوّج ابنه (محمد) قبل سنوات ورزق بطفلين ينامان معه في غرفته، أما زوجته إيمان فقد كانت أمه تصفها بالحمارة، وهي على خلاف دائم معها، كانت تنتقدها لبطء حركتها وسرعة حركتها وعلى اعتدال حركتها، وعلى طريقة عملها في البيت، والسبب الحقيقي لمناكفاتهما أنها أرادت أن تزوج محمداً ابنة خاله، بينما أصرّ أبوه على أن يزوجه ابنة عمته.... باءت كل محاولاتها التي استخدمت فيها دهاء الانوثة ومكرها بالفشل فبقيت على خلاف معها منذ اليوم الأول لدخولها البيت.

ابنه زيد كان مسؤولا عن تقديم الماء والشاي للضيوف في الأيام الاعتيادية وكان يوميا ينفذ آلاف الأوامر من أبيه حتى بات لا يستطيع أن يتحمل أن يُطلب منه أي طلب آخر.. كانت جارتهم ماما ليلى تناديه يوميا وتطلب منه طلبات يضيق ذرعا بها...ولخوفه من أبيه لم يقل لها يوما أوف... ينفذ لها رغباتها مكرهاً...." زيد اكنس لي باب الدار"... "زيد اجلب لي بعض البابونج" افعل كذا وافعل كذا، وإذا بدا عليه أي تذمر كانت تقول له ألست أخي وأصغر مني فيجب أن تطيعني... بدأ يتجنبها تماما لأنها إذا

قابلته فإما أن تأمره أو تقرعه لعدم وفائه تجاه أخته الأكبر وتهدده بإخبار أبيه بالموضوع، والحقيقة أنه كان لديها حقوق عليه.

خرج أولاد ابومحمد وكنسوا التراب من على الأرض ورشوا بعض الماء بايديهم من وعاء حملوه معهم، ووضعوا صفائح الدهن المعدنية العشرة، والمخدات المحشية بالأعشاب والقش وأصبح المكان جاهزا لاستقبال الضيوف. تلك الصفائح كانت دليلاً على أن أبا محمد هو أحد ميسوري الحال، يطهى الطعام في بيته على عكس العوائل الأخرى التي بات طعامها يقتصر على الخبز والبصل أو الألبان.... مع العلم بأن صفائحه العشرة لم تصبح إحدى عشرة منذ سنتين، لأنَّ شراء الدهن بالأكياس أصبح أرخص من الصفائح.

استيقظت ماما ليلى صباحاً وفتحت عينيها وتفحصت قدرتها على رؤية النور، مغمضة عينيها وفاتحه، قبل أن تنظر باتجاه الشمس، شكرت الرب كعادتها ثم نزلت من سريرها الموضوع على السطح في الزاوية القريبة من بيت أبومحمد، كان نسيم الصباح لا زال ينعش الراقدين على أسطح الدور. نهضت بعد عناء لأنّها وكما في كلّ صباح تشعر بأن جسدها قد أصبح قطعة من الخشب. دفعت كتفها الأيمن إلى الخلف والأيسر إلى الأمام ومالت برأسها أقصى ما تستطيع إلى اليمين وكأنها تدير مفاتيح تشغيل جسدها، ثم نهضت ومشت بخطوات رتيبة إلى جدار السطح ووقفت فوق حجر وضعته هناك لتتمكن من النظر إلى بيت أبومحمد وتأكدت بأن هذا اليوم شبيه بالبارحة. باحة دارهم والشبابيك المطلّة على الباحة وشبكة الذباب

المتصدئه عليها والحديقة التي ترقد في منتصف الباحة وكأنها قلب الدار.. كل شيء على حاله كما كان قبل عام وعامين وعقد وعقدين. اعتدلت قامتها على عدة مراحل ودبت الحياة فيها، رغم تقوس قدميها، كانت نشيطة في نزولها على السلالم وبدأت تتطهر من ماء الحنفية الموجودة في فناء الدار والتي لا تنقطع مياهها مهما شدت عليها كانت مياهها تسيل بهدوء ورتابة لتصب في حفرة شجرة الجوز الأمريكي التي زرعها أبوها بالضبط في قلب الدار.. كانت ماما ليلى تراه فيها. أتمت صلاتها تحت الشجرة وبدأت بتنظيف البيت.

عند الثامنة صباحا دقت ساعة الحائط القديمة ثماني دقات وخرج البلبل مترنحاً بسبب تخلخل قاعدته، كانت قد انتهت من تأدية كل مراسيمها المعتادة، حملت وعاء الماء ودخلت به إلى سمارة، قبل أن تفتح الباب طرق القلق رأسها، لكنها سرعان ما طرحت القلق جانباً، اذ إنّها لم تسمع وقع أقدام سمارة في ذلك الصباح كما اعتادت أن تسمعها في كل صباح.

كانت سمارة سرّ صمودها في وجه الجوع. كان البيت يعيش على ما يفرزه جسدها من حليب وروث... كل احتياجاتها ومصاريفها تمرّ من خلال سمارة، فتحسب مصاريفها بعدد الحلبات، كانت تعيش في زمن المقايضة وسلعتها الوحيدة هي الحليب.

بخطوات قلقة تقدمت باتجاه الغرفة فداعبت أنفها رائحة سمارة فابتسمت متهيأة للقائها، وجدتها راقدة على الأرض، داهمها القلق من جديد و تفاقم بسرعة، رفعت وعاء الطعام أمامها، تفاجأت لأنها لم تستطيع

رفع رأسها، سقط الوعاء من يدها المرتجفة، رفعت رداءَها وجلست بحركة خفيفة بجانبها، ربتت على رأسها، فركت أذنيها فلم تتجاوب سمارة معها، تفحصتها بيدها وأمعنت النظر في جسدها، فلم ترَ سوى القراد.

بدأت ماما ليلى تشعر بالخوف يخترقها لأنّها تيقَّنت بأنَّ ما تشاهده هو الاحتضار، حاولت جاهدة أن تبعد عن فكرها " رحيل سمارة" كان جسدها مرتطماً بالأرض كعجينة الفرّان الكبيرة، أرادت أن تصرخ وتطلب النجدة، لكنها خافت إن جاء أبومحمد الخبير بالأبقار سيقول لها يجب أن تذبح قبل أن تموت، كانت متيقنة بأنها تشهد ساعات سمارة الأخيرة، فكرت بجلب التعويذة وتعليقها برقبتها، ربما تستطيع التعويذة قهر العين الحاسدة التي ألمت بها... الوقت ضيق... ضيق جدا.. سماره تموت. تشوشت وتسارعت دقات قلبها، أسرعت باتجاه الباب، ثم عادت، ثم أسرعت ثانية لم تكن تعلم ما يجب أن تفعله، جالت أفكارها بين كلمتين: الذبح والموت، إلا أنَّ الموت بات قاب قوسين من رفيقة الدرب.

إيمانا بالمعجزات وخوفا من المستقبل بدون سماره جعلها ترنم لها وتقرأ بإنجيلها القديم الذي جلبته بسرعة من غرفتها... توقفت عن القراءة لتدندن لها

"وينك يا يسوع". لكن يسوعاً لم يُحْيِ الموتى هذه المرة. نظرت في وجهها وناجتها متوسلة ومتأملة بأن ترد عليها:

"عزيزتي سماره، إن شاء الله لن يضيرك شيء".

مدت يدها لها وتمنت أن تقبلها كما اعتادت، لكنها لم تفعل...

''لا تموتي لخاطر يسوع المسيح... أنا وحيدة... من لي غيرك''.

حدثتها بحزن أشدّ وقعاً عليها من حزنها يوم وفاة أمها.. سكتت قليلاً ثم قالت متذمرة محدثة يسوع:

''يبدو أنك لن تساعدني سأطلب من نبي أبومحمد ''.

''يا محمد بجاهك عند ربك أنقذ لي سماره'' وانتظرت قليلا شعرت أن كل شيء ضدها المرض والموت والوقت. أطبقت شفتيها حتى رسمت أخاديد عميقة عليهما ثم قالت:

''حتى الرب نسيني.... اللعنة علي وعلى حظي الأسود''.

وكأنها فجأة سمعت صوت الرجال في مجلس أبومحمد، فصرخت بلا وعي طالبة النجدة. قال أبومحمد:

''هذا صوت ماما ليلى''. رفع رأسه ليتأكد لكنه لم يسمع صوتها مرة ثانية.. استرخى في جلسته وقال محدثا نفسه ومسمعا الحضور.

''يا رب خيراً... إن شاء الله خير''.

سمع نداءَها ثانية بصرخة أقوى من الاولى. انتفض كشاب في العشرين ووثب أولادُه والحاضرون معهم يلاحقون خطواته المتسارعة. كان يعرف تفاصيل دارها كما يعلم تفاصيل غرفة نومه، وقف على رؤوس أصابعه ومدّ يده من فوق الباب ودفع المزلاج جانباً ودخل الدار، ونادى عليها فأجابته

بصوت خافت ''أنا هنا''. عرف مصدر الصوت وما أن دخل الغرفة وشاهدها جالسة بجانب البقرة فهم تقريبا الوضع..

نظرت في عينيه خائفة من رد فعله التي قد تكون بحثه عن سكين.

جلس ابومحمد بجانب البقرة وسمع صوت أنفاسها ووضع يده عليها وقال بنبرة من قد أتخذ قرارا لا رجعة فيه:

''اجلبوا السكين يجب أن نحلّلها قبل أن تموت''.

كلماته كانت صفعة الحقيقة على جبينها، لم يستوعب عقلها ما شاهدته عيناها وما سمعته أذناها، لم تتحمل فكرة نومها في الدار بدون منقذتها من الجوع طيلة سنوات عمرها العِجاف، وبقيت تهزّ رأسها رافضة الفكرة، ومكررة ''لا'' تتلوها ''لا'' أخرى وكأنها تبعد حشرة ضارة علقت بشعر رأسها.

التفت أبومحمد اليها كأبٍ متوجع لكنه مجبر على اتخاذ قرار يشبه قرار بتر عضو من أعضاء ابنته.

- يا ابنتي ستموت... ستموت خلال دقائق ولن تستفيدي عندها... ولا حتى من لحمها، أما الآن فيمكننا أن نطلب القصاب ونبيعه لحمها''.

احمر وجه العجوز جزعا من مقترحه، وقالت بلهجة صارمة وجازمة.

- لا لن تذبحوها، اجلبوا لي الحلاق ياسين هو سيشفيها.

كان معهم ميسر الذي انتقل حديثا الى قريتهم علّق على قولها بتهكم:

- لا ياسين ولا أجداده يمكنهم إنقاذها.. هذه البقرة ميتة لا محالة.

جاءت هذه الكلمات كصاعقة في يوم مشمس. أثارت حفيظتها، حتى أنستها كل ما يدور حولها وتركز كل تفكيرها على صاحب هذه الكلمات واعتبرته مصدر الشؤم وسبب موت سماره، التفتت إليه بنظرة حانقة وصرخت به:

" أنت.. من سمح لك بدخول بيتي، اطلع من بيتي.. اخرجْ ".

نظرت الى سمارة ثانية فانخفض صوتها وتوسلت بانكسار:

- اجلبوا لي بيطريّاً لخاطر الله، لأجل مسيح اليسوع ساعدوني.

خيم اليأس عليهم فأخرسهم جميعاً. نظر ابومحمد في عيونها وقال بكلمات ابوية حازمة:

- يا ابنتي.. يا عزيزتي.. ليس في الحي من يستطيع أن يدفع للبيطري ثمن أتعابه، ولو افترضنا أننا نتمكن من دفع أجوره، حتى نذهب إلى ظالمايا العليا ونأتي به تكون سماره قد انتهت، وثانيا أنت تعلمين خبرتي بالأبقار، اسمعي كلامي يا ابنتي... إنها تموت... الوقت ليس في صالحنا".

أشارت بإصبعها لأبومحمد بأن يخرج من بيتها، هز رأسه آسفاً على قرارها العبثي.... توجه الرجال إلى الباب الخارجي، حاول أبومحمد أن يقنعها للمرة الأخيرة قبل أن يغادروا التفت اليها فوجدها تمسح رأس سمارة فقال لها:

- يا ابنتي.. يا عزيزتي تعقلي ما تفعلينه لا يجدي نفعاً.. اتركيني أذبحها...

فقاطعته بحزم:

- خذ جماعتك واتركوني بحالي، اتركوني بحالي.

جلست هي بجانبها ومسحت على غرتها بينما كانت قصة حياتها تمر كشريط سينمائي أمامها بدون مونتاج ولا موسيقى تصويرية لأن فيه ما يكفي من دراما، شعرت أنه قد مضى دهر منذ أن جلست بجانبها لأنها طافت تقريباً بكل تفاصيل ودقائق حياتها. وجه ابيها ونظرته الحنونة، أمها وكلماتها، أخوالها الثلاثة وغدرهم، عمها الذي لم تعد تذكر معالم وجهه. ربتت على رأس سمارة ورقبتها وبدأت ترتل:

"السلام عليك يا مريم" وبللت شفتيها بلسانها وشعرت بأنَّ فمها تحول إلى قطعة من غصن جاف وأكملت:

"يا ممتلئة نعمة الرب معك، مباركة أنتِ في النساء ومباركة ثمرة بطنك يسوع".

وتمتمت تحدث يسوعاً، طلبت منك قبل قليل ولم تساعدني، لذلك أطلب من أمك الآن.

"يا مريم القديسة يا والدة الله صلّي لأجلنا نحن الخطأة".

في هذه اللحظة حاولت البقرة أن تحرك رأسها، فابتسمت العجوز لكن سرعان ما طارت الابتسامة من على شفتيها عندما ارتطم رأسها بالأرض

مجددا، أكملت الترتيل مستعجلة بالكلمات:

''الآن وفي ساعة موتنا''

شخرت سمارة شخرة مكتومة أفزعتها علمت عندها أنَّها قد ماتت،

.. ما بين الصدمة والمفاجأة انفتح فمها ودوّت صرخة حزن وألم قصمت ظهر السكون نصفين.

- الحقني يا أبومحمد.... تعال.. استعجل بسرعة.

كان الرجال يمشون بوقار في طريقهم إلى مجلسهم وكأنهم في جنازة عندما سمع ابومحمد صوتها تناديه التفت وعاد راكضا مباشرة إلى المطبخ، وكان يعلم بالضبط ما يجب أن يفعله، فتح معظم أدراج مطبخها الفقير بالأدوات باحثا عن سكين يفي بالغرض. جلب أفضل سكاكينها، سكيناً يصعب بها ذبح دجاجة، حملها وركض إلى غرفة سماره وجلس متقرفصا بجانب البقرة بعد أن سحب دشداشته ووضع طرفها في سرواله وبدأ بتمرير السكين ضاغطا بكل ما اوتي من قوة على رقبة البقرة، كل هذا الجهد لم ينتج عنه إلا حزّ بسيط على رقبة البقرة التي لم تتأوه من الألم، كان يريد فقط أن يرى بقعة دم على الأرض ليقول بأنها حلال ويتمكن من بيعها للقصاب.. فكر بطلب سكين اللحم من بيته.. لكن الوقت كان ضده، شعر بالقلق من أنه لن يرى إلا دماء متجلطة وعندها يكون فوت الفرصة الثمينة.

كانت عيون الرجال المترقبة تخترق خلجاته هذا يقول ''توكل على الله'' وآخر يقول ''شد حيلك يا أبومحمد''، فلم يكن منه إلا أن سمى باسم الله

وطعنها في حلقها بسكينه العمياء بطعنات متجاورة، صوت النصل يغوص في لحمها ويقطع الأوردة والشرايين المتصلبة، جعل العجوز ترتعش رعشة من سيغمى عليه، تشنّجت على إثرها عضلات رقبتها وشعرت بعصرة قوية في قلبها وتيبس ظهرها. بدأت أنفاسها تتسارع وأخيراً سالت دموع صامتة على خديها واستمر العرق البارد يسيل على ظهرها.

سال دم سماره التي لم ترفس ولم تقاوم إلا بحركات من عضلاتها اللاإرادية وحركات بسيطة بقدميها.

"الحمد لله لقد لحقت أن تحلّلها" قالها أحد الرجال مباركاً فعله، وأيَّد قوله آخر. نهض ابومحمد والسكين الملوثة بالدم بيده وقال مبتهجاً ومواسياً صاحبتها:

- لقد قلت لك يا ابنتي من الأول.. ولكن الحمد لله... لحمها حلال.. حلال.

أجابته متمتمة بصوت مختنق:

- الحمد لله على كل حال... على كل حال.

هلّل الرجال بالذبح الحلال وباركوا لها ذبيحتها. لم تجب على تعليقاتهم لأنها كانت مذهولة مما حدث بهذه السرعة.

سماره مصدر النقود الداخلة لجيب ماما ليلى عدا استثناءات بسيطة حصلت عليها من عمها أنطوان قبل عهد بعيد أو كما يحلولها أن تقول:

"عندما كان يتذكرني عمي".

كم تمنت أن تتصل بعمها أو تعلم عنوانه، حتى النقود كانت ترسل لها بالبريد الداخلي من قبل أشخاص جاءوا لزيارة البلد، ولم يعلم انطوان بوفاة أخيه إلا بعد عام ونيف فارسل لها حينها مئة وخمسين دولارا وابدى اسفه على وفاة أخيه.. لذلك بقي الاتصال بينها وبين عمها مبنيا على تلك الساعات التي يتذكرها فيها... ولأنه كان مشغولاً جدا فلم تكن له ساعة فراغ يتذكرها فيها.

ويا ليته لم يتذكرها.

رائحة الدم الذي بدأ يتخثر جعلها تشعر بالغثيان، اصفر وجهها وشعرت بالعرق البارد ينعش مخاوفها فزاد من اصفرار وجهها وغثيانها، لاحظ أبومحمد لون وجهها الباهت فتقدم نحوها ووضع يده على كتفها وأجلسها وطلب من ابنه أن يجلب لها قدحا من الماء. كان وجهها شاحبا كشحوب الموتى فقال لها مواسياً:

- احمدي الله على ما حدث. لو ماتت في الليل لما استفدت بأي شيء...

انتظر جوابها طويلا... تحسرت وتكلمت بتعسر.

- الحمد لله على كل حال... على كل حال.
- كل شيء سيكون على ما يرام".

قالها معقبا على كلماتها ومواسيا.

- الحمد لله على كل حال... على كل حال.. أحمده على كل حال "

هذه الجملة أعادتها مراراً وتكرارا في ذلك اليوم.

أخذ أبومحمد شهيقا طويلا وزفره من فمه مرة واحدة ثم نظر الى الشباب الواقفين وقال:

''اجلبوا أبوعلي القصاب لنبيعه البقرة وننتهي''.

وبقي الجميع ينتظرون حضور القصاب، لاعتقادهم بأن وجع العجوز سيهجع بعد أن تقبض المال... ولم يدرك أيا منهم ما تعنيه تلك البقرة لها، إلا جارها. بعد قليل ظهر أبوعلي ببطنه المدفوع إلى الأمام متهدلاً فوق سرواله الأسود المبقع وقميصه النظيف من جهة الظهر والملطخ ببقع الدم من كل الجهات الأخرى... لا يخلع ملابسه حتى تكون قد فقدت كلّ مرونتها بسبب الدم والعرق وخصوصاً في الصيف حيث إنَّ سقف دكانه كان من الصفائح المعدنية التي كانت تتحول في منتصف النهار إلى مصدر للجحيم يصب نارا على رأسه وعلى الشاة المعلقة في دكانه.

نظرت ماما ليلى إلى الرجل الداخل إلى الدار، لقد تغيّر كثيرا، ليس في الأمر أي غرابة، فهي لم تعد تتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي دخلت فيها دكانه.

لكنها تذكرت أنها اشترت اللحم في حينها بناء على توصية الطبيب حيث قال لها بعد فترة من العملية: ''يجب أن تأكلي اللحم''

فسألته: ''لكنه غالي الثمن إلا يمكن استبداله بطعام آخر''

لكنه كان مصراً على رأيه.

بعد تلك العملية التي أجريت لها لكسر مركب في اليد وفي الساق، أصبح لماما ليلى يد أقصر من الثانية، وستّ صامولات لتثبيت عظم القدم، زاد هذا الأمر من إظهار قصرها إذ كان طولها لا يتجاوز مئة وخمسة وخمسين سنتمتر، بعد العملية يتخيل الناظر إليها أن طولها مئة وخمسة وثلاثين سنتمتر. هذا الكسر حدث قبالة أعياد الميلاد.

كانت تصاب في أيام الأعياد بنوبة تنظيف مسعورة، ولم يغير هذا الكسر أي عادة من عاداتها. بعد أن انتهت من تنظيف كل شيء في اليوم الذي سبق ذلك العيد، جلست لترتاح في باحة الدار وأشعلت سيجارتها، وباتت تنفخ دخانها بعد كل ذكرى مؤلمة تمر بها، ثم نظرت إلى باب السطح، ثم انتقلت بنظرها إلى ساق الشجرة وشردت بأفكارها..... كان عادة ما يثير منظر الشجرة في داخلها حنيناً مراً وكأنه مرارة فراق حديث، أعادت النظر إلى الباب شردت بأفكارها ثانية، حكّت رأسها ثم سألت نفسها لتشغل تفكيرها بموضوع آخر تهربا مما هي فيه.

"ربما هناك رمال متجمعة على الحافة العليا من الباب، لم يخطر ببال أحد أن ينظفها ولا حتى أنا؟ حكت رأسها وأكملت " لكن لا يضر شيئا لو بقى بعض التراب هناك، لن يراه أحد" ثم التفتت إلى شجرة الجوز وفكرت بها وركزت تفكيرها على قطرات الماء المنسابة من الحنفية الموجودة في باحة المنزل، قطرات تتساقط برتابة.... شعرت بمرارة بعض الذكريات... شعرت فجأة بأن التراب الموجود على حافة الباب قد تحول فوق رأسها. حكت رأسها من جديد وكأنها تنفض التراب عنه.

قامت وحملت سطلها المعدني مع عدة التنظيف وصعدت السلالم ووقفت بجانب الباب، بسبب قصرها لم تصل الى حافته العليا، لذلك استعملت منشفة بيضاء كبيرة غرزتها في جردل الماء ثم عصرتها وأمسكت بأحد أطرافها وضربت حافة الباب العليا بها وعندما رأت أن المكان الذي أصاب حافة الباب العليا قد تحول الى خط اسود على المنشفة، توالت ضرباتها وغسلت المنشفة عدة مرات ثم نزلت منهكة وجلست في مكانها، ونظرت إلى الباب ثانية وكأن الباب هو أهم ما في عالمها... لم تجلس طويلاً حتى حملت كرسياً وصعدت به إلى أعلى السلم ووقفت فوق الكرسي ونظفت حافة الباب العليا كما تشتهي.... ثم جاءت زفرة طويلة أعقبتها ابتسامة لتترجل بعدها من الكرسي راضية بإنجازها. كانت قد عملت كثيرا في ذلك اليوم ولم تأكل شيئا، ففكرت بالطعام لكن فكرة القذارة ظلت تلاحقها وفكرت بسقف بيت السطح. استحوذ عليها التفكير في الأوساخ المختبئة في دارها، وفكرت بالألعن من ذلك "ذرق الطيور" الذي على سقف سطح البيت ماذا لو سال يوماً ما مع ماء المطر إلى باحة الدار؟ حملت الكرسي من جديد ووضعته بجانب سياج السطح ثم حملت سطل الماء ووضعته على حافة السياج، ارتقت الكرسي ثم السياج وتوجت نفسها على سطح بيت السلم وبدأت بتنظيفه، نزلت وصعدت وبدلت الماء مرارا وتكرارا، لقلة السكر بالدم والتعب... فجأة تحول كل شيء حولها الى ضباب ازداد حلكة بسرعة، اختل توازنها وسقطت في باحة البيت، الغريب أنها لم تمت.. في بعض أيامها المثقلة بالقهر كانت تحزن جداً لأنّها لم تمت.. حيث كان أكثر ما يغيظها هو

وجودها في هذه الحياة... أمّا في الأيام الطيبة فتقول هذا يدل على وقوف يسوع معي.

كانت تنظر إلى ما يجري حولها، القصاب، أبومحمد ورجال تعرفهم وآخرين لا تعرفهم وكأنها متفرجة في مسرح، حالة من الذهول وكأنها لا تنتمي لما تراه بأي شيء.

سلم أبوعلي على الحاضرين بطريقته المألوفة "أهلا بالسادة"، يحب تكرارها كثيراً، جلس بجانب البقرة وتفحصها جيدا، ثم قال للحاضرين:

- سوف أدفع اربعمئة دولار.

فرد عليه أبومحمد غاضباً:

- أنت حقيقة جزار، قدر ثمنها بضمير؟

تفحصها من جديد ثم رفع رأسه و نظر في عيون الحاضرين و المترقبين لجوابه:

- اربعمئة وخمسين دولار... هذا آخر ما عندي.

قالها جازماً أمره لأنه كان يعلم بأنه لن يتمكن من بيعها في القرية وعليه يجب أن يبيع الجزء الأكبر منها لقصاب في العليا.

لم يوافق أبومحمد على المبلغ، لكنه كان خيارهم الأوحد طالما ليس في الحي كله أي مجمدة كهربائية. تطلع إلى ماما ليلى فالتقت نظرته بنظرتها الكسيرة.. قالت له:

- ليأخذها على بركة.

ثم امسكت رأسها بكلا يديها و باركت موافقتها بالدموع وأضافت:

"الحمد لله على كل حال... على كل حال".

ابتهج القصاب بقرارها في سره، لكنه تظاهر بالشفقة عليها فقال مبتهجاً:

- أهلا بالسادة، سوف أرسل لك بعضاً من لحمها لتفرحي به، أنت لم تأكلي اللحم منذ زمن بعيد.

انتفضت ماما ليلى من لدغة كلماته وهزّت رأسها وقالت:

- معاذ الله، لحم سمارة محرم علي، معاذ الله..

لم يتوقف جريان دموعها، فقال القصاب مواسياً:

- لا تزعلي ولا تبكي، سأرسل لك لحماً آخر ليس من لحم سمارة.

"إذن لا تنسى حصة أبي محمد أيضاً". قالتها ضاحكة باكية.

"أنت تأمرين يا ماما ليلى"... قالها مبتسما وطلب من صبيه أن يأتي بالسكاكين بسرعة ليقطعها ويحملها بعد ذلك إلى محل القصابة. وضع الاوراق الاربعة من فئة المئة وواحدة من فئة الخمسين بيد العجوز، أمسكت بهم بألم ووضعتهم في جيبها. كان حال قريتهم كحال كثير من دول الشرق التي فقدت ثقتها بالعملة المحلية وباتت تتعامل بالدولار.

أبوعلي، قصاب القرية الوحيد، كانت دكانه جزء من بيته، ولا يحتوي إلا على المحمل الحديدي والكلاليبٱ وكرسي خشبي يدوي الصنع. كان يذبح

في كل يوم شاة واحدة و في أفضل الأحيان يتمكن من بيعها وإلا ستكون بقيتها عشاء له ولأولاده. لذلك كانوا جميعا من ذوي الأوزان الثقيلة.. في يوم موت سماره أكلوا كثيرا وملّحوا كثيرا لكي يبقى عندهم لفترة طويلة.

فقط في الأعياد كان يستخدم أكثر من كلّاب واحد. عند منتصف النهار و عندما تكون سوقه داكر، يحمل مهفته ويبعد الزنابير عن شاته، ويقاتل الذباب ليس بسبب اهتمامه بالعناية الصحية ولكن لكي يخنق توتره. بعدها يقوم بدفع المحمل إلى خارج المحل مؤمنا ومحتسبا بأنه سوف يثير الغدة اللعابية عند المارة فتأمرهم بالشراء.

بعد العصر يعاكس كل الميسورين المارين بدكانه، مبتدأ الحديث

''أهلا بالسادة''

كما حدث ذات يوم مع أبو محمد:

- أهلا بالسادة، والله يا أبومحمد لحم تازة، السكين تمشي فيه مثلما تمشي بالزبد.

أجابه بالجواب الذي جهزه له قبل وصوله إلى المحل، لكي يتخلص من الإحراج:

- تسلم يا أبوعلي ولكن تعرف أن الحكيم قد أمرني بأن أقلّل من اللحوم.. داء الملوك.. الله يسهل أمرك ويفتح عليك''.

ويستمر في مشيته بينما يسمع جواب أبوعلي يتبعه:

- الله يشفيك يا أبومحمد من مرضك.

يقولها بينما تتراقص أوداجه، ويحدث نفسه:

"اللعنة عليكم جميعا.. كلكم مصابون بداء الملوك، أنتم لا تأكلون اللحم، من أين يأتيكم داء اللعنة هذا..؟

ويغرز سكينه في الشاة المعلقة أمامه ليخمد غيظه.

وهكذا ينتهي معظم اللحم المتبقي في قدر أم علي فيأكلون منه حتى يصابوا بالبشمة، ويعطي منه القليل فقط للفقراء المدقعين تماماً... اولئك الذين لا يأمل أن يشتروا اللحم منه يوما... خوفا من إعطائه لأحد زبائنه المحتملين وبذلك تنتفي حاجته لشراء اللحم لأجل لا يعلمه إلا الله.

(12)

عاد الرجال أدراجهم وجلسوا في مجلسهم، كل الى مكانه وتوافدت نساء الجيران يحثن الخطى الى بيت ماما ليلى مواسيات ومساعدات، واستكمل الرجال حديثهم ولفوا سجائرهم وشحنت الغليونات جيداً بالتبغ وباتوا ينفثون الدخان ماحين ما حدث من مخيلتهم.... جريان الدم من تحت باب البيت المجاور لهم ورائحة الكرش والمصارين المفرغة لم تسبب الغثيان لأي منهم، بل راق لهم وأيقظ ذكريات دسمة. نظرات الرجال إلى الماء الأحمر القاني الجاري كان مصدر بهجة.... باستثناء ميسر المطرود من بيت ماما ليلى حيث بقي طعم الإهانة كأنه حفنة من التراب في فمه تكاد تخنقه.

قال ميسر و هو في الثلاثينات من عمره قاسي القسمات و لديه حاجبان عريضان على وجه مستطيل و بدون مقدمات فقط تنحنح ليجذب انتباههم إلى ما سيقوله:

''إنها وقحة... سليطة اللسان... والله لوكانت رجلا''....

رفع أبومحمد حاجبا وأنزل الآخر وقاطعه قائلا:

''على رسلك.. على رسلك.. اذكر الله يا رجل.. لا تقل هذا أنت لا تعرفها ولا تعلم شيئا عن حياتها.. لقد انتقلت حديثا لقريتنا، أنت لا تعرف حجم مأساتها'' ونادى على ابنه زيد وطلب منه توزيع الماء البارد على الضيوف.

واستطرد يروي له قصتها، والحاضرون يهزّون رؤوسهم مؤيدين كلامه، أو يقسمون عليها بأغلظ الأيمان لكي يهدئوا من غيظ الرجل.

''أنت يا صديقي لا تعرف أباها... لقد كان أبوها من أصحاب الأراضي على هذا الجبل'' ونظر إلى الجبل نظرة حزينة وعقب قائلا بمرارة ''عندما كنا نملك معظمه''... ونظر في عيون ضيوفه الذين كانوا يملكون الأراضي أيضاً و سمع همهمات البعض، بينما تنهد الآخرون تحسراً. أكمل ابومحمد حديثه بنبرة آسفة:

''نرسيس.. ابوها.. كان ابن ظالمايا.. بارا بها وبأهلها.. كان شعبياً يحبّ العالم جميعاً.. لم يفكر يوماً بأن هذا ابن ملته وهذا من غير ملته'' و سأل ضيفه.

''أنت تفهم ما أعنيه؟ نظر الضيف في وجهه معتقداً أنه بعد ما سمعه عن الرجل فإنَّ عليه أن يغفر لابنته إهانتها له. اراد أن يرد عليه إلا أن أبومحمد أكمل كلامه:

''قصدت بكلامي أنه لم يفرق بين محتاج مسيحي ومحتاج مسلم.... لم يكن متعصباً....على كل حال، الحديث عن هذا الرجل طويل.. ماذا أقول فيه؟ ليس فينا رجل بطيبته'' سكت برهة وكأنه يفكر فيما سيقول، شعر بطعم الفقدان وهو يرى وجه نرسيس أمامه مبتسما ثم هز رأسه و استكمل حديثه:

''كان لنرسيس طفلان: أحدهما كان عمره سنتين والآخر خمس سنوات.

في أحد أيام الشتاء وبينما كانت ماريا... ماريا هي زوجة نرسيس"

وضح ذلك مجيباً على نظرة ميسر المتسائلة عن الإسم.

"كانت تغلي الماء لتحمم ولديها.. انقلب الوعاء وماؤُه على ابنهم الصغير فمات في الحال مسلوقاً".... سكت أبومحمد من فظاعة الذكرى... وتذكر أنفاس الطفل الأخيرة وشعر بعصرة في قلبه أثرت على صوته... وتذكر وجه ماريا المسلوخ قهرا والمملح باللوم من القريب والبعيد.. سؤال موحد يتضمن كل الملامة سدد تجاهها من كل صوب:

- كيف تركت الطفل قرب ذلك الوعاء؟

" لم يمض سوى أشهر على تلك الفجيعة حتى مات طفلهم الثاني كان يركض مع الأطفال خلف عربة يجرها حصان تعلق هو بوسطها وبسبب تدافع الصبيان للحصول على ذلك المكان سقط الطفل وسحق بالعجلات الخلفية، حمله أحد الرجال وجاء به إلى الحي القديم وسلمه إلى أبيه جثة هامدة.... هكذا كانت فجيعتهم!

سكت قليلا ليرتاح من ثقل تلك الذكريات ثم نظر الى ميسر مجددا وقال:

"وقف الجميع بجانبهم وكأنهم قلب رجل واحد، لم يقصر أحد ولم يتأخر أحد من أهل القرية تجاهه، فنحن نعيش كأخوة في هذه القرية".

تذكر أبومحمد تلك الأيام حيث كان هو أول من يطرق باب جاره ويطلب منه الخروج للتجول في البساتين، وتذكر كيف كان الرجال يزورونه ويتفقدونه يوميا ولم يتركوه لحظة ليختلي بنفسه، لكي يمنعونه من التفكير

بعمق مأساته... لكن الليالي الطويلة كانت كفيلة بسهره مع ذكريات مؤرقة.. ثم أكمل حديثه:

"كلنا شعرنا بشعوره كان يشعر بحرقة الماء على جسده يسلقه كما شعر بها ابنه، ويستشعر بثقل عجلات العربة تكسر أضلاعه وعظامه، حزنه ابعده عن حقله فشاخ الحقل بسرعة بسبب إهماله، أما زوجته فأصبحت بقايا من حطام انسانة كانت ذات يوم ربة بيته. لم تعد حياتها تعني لها شيئا.. فكانت عبئاً على نفسها وعلى زوجها. بعد عشر سنوات رزق نرسيس بهذه الفتاة".

سكت قليلا وتنفس بعمق وأشار بيده إلى بيت ماما ليلى وقال:

"بعد عشر سنوات جاءت كالمعجزة، أنا أذكر يوم ولادتها وكأنه كان بشارة بعودة الربيع إلى حياته".

كان يتحدث الى ضيوفه بينما كان عقله يستذكر الأشهر التسعة التي سبقت ولادتها.... تذكر كيف ذهب الى نرسيس عندما سمع بحبل ماريا، كان واقفا أمام باب بيته لم يقل له أي شيء فقط ابتسم له وقبّلوا بعضهم وشكر نرسيس أبومحمد كثيرا على مشاعره....وتذكر كيف تنبأت النساء لها صبيا طالما بطنها قد توسع بالعرض.. طلبت نساء الجيران منها أن تستلقي فقط وترتاح لتسعة اشهر، قامت خلالها زوجته وبناته تقريبا بكل أعمال البيت.... أما نرسيس فأرسل الهدايا وأوصلها إلى الكنائس البعيدة وأعطى مبلغا كبيرا إلى خوري رعيتهم لكي يوزعه على المحتاجين.. بعدها لم ينقطع الخوري عن مباركة بيته والصلاة فيه. تذكر (أبومحمد) بعدها أمرا ارتبط

بتلك الفترة لم يبح به لأحد، كلما كان الخوري يأتي لزيارته يعطيه قنينة نبيذ معتق من الكنيسة.. فكانوا يخرجون مساءً إلى البساتين ويشربون القنينة بسعادة صبيان في العشرين.. بالرغم من كونه مسلماً وصديقه مسيحياً كان السر سراً، وكانت أواصر الأخوة عميقة بينهم.

أما في ليلة ولادتها فتذكر كيف طرق نرسيس بابه بعد منتصف الليل وطلب من جاره أن يرسل زوجته لتجلس بجانب ماريا حتى يجلب الداية أم رضا.. فسأله ابومحمد مستغربا من قراره:

- لماذا لا تجلب الداية القريبة؟

قال له بتفائل:

- على يدي أم رضا تولد الذكورة أما على يدي قابلة الحي ترقد الأنوثة.

جلسا معا في باحة الدار مترقبين الفرج وتجمعت النساء في داره. كانا يسمعان صوت ماريا تصرخ بصوت يشبه عواء الذئب.. ظلت تصرخ حتى احتقن وجه نرسيس كمن يرتفع ضغط دمه.... ما أن يخرج إناء ماء حار حتى يدخل إناءان بدله.. امرأة تصلي وأخرى تصلب ثالوثها..

وتذكر ابنته الصغيرة سلمى التي انسلت من بين النساء وتوجهت الى نرسيس تسأله بعفوية طفلة شقية.

- هل العمة ماريا مريضة؟ لماذا تمسكها النساء من قدميها ويديها ويفركون رأسها وبطنها؟

قال لها ابوها مأنباً.

- عيب يا ابنتي لا تتحدثي بهذا الموضوع.

لكن نرسيس سحبها جانبا وقال لها:

- ستلد ماريا صبيا جميلا، وهكذا هي الولادة.

وقبل أن يكمل كلامه ركضت لتدخل الغرفة، صاح بها ابوها ليمنعها لكنها كانت سهما نافذا.

حدثت سلمى أمها عن ما شاهدته حيث كانت معجبة بدور الداية أم رضا وقالت " سأصبح داية عندما أكبر وسأخرج البيبيات لترتاح الأمهات". ثم عاد ابومحمد يكمل حديثه مع ضيوفه.

خافت الداية أن تبشره بالأنثى، خرجت من الغرفة ووقفت محرجة تتجنب النظر في عينيه... ثم قالت له:

- لقد رزقت بفتاة جميلة ..

أجابها بابتسامة مشرقة:

- ليباركك الرب.

أكرمها بما لم تتوقعه، وعاد لون بشرته الى طبيعته:

" كان نرسيس إنساناً مؤمناً....أراد أن تعوضه عن أولاده، فعلمها الرماية وهي في العاشرة من عمرها.

ونظر أبو محمد في عيون ميسر وقال له "كما يقول ديننا" لكن ميسر

إمتعض من المقارنة وقبل أن يعلق أكمل أبو محمد كلامه. سمح لها أن تقول و أن تفعل ما تشاء وكما يحلو لها وكما تحب، ولم يعارضها أحد من القرية لمحبتنا لأبيها ، حتى عندما تتطاول علينا كنا نضحك.

هز ميسر رأسه غير راض عن تقيمهم للأمور إلا أن ابومحمد و الحاضرين لم يعيروه أي اهتمام و أكمل ابو محمد حديثه.

أصبحت هذه الفتاة كل حياته حتى أنه أراد أن يجلب لها معلما خاصا في البيت، وهذا شيء لم نسمع بأن أحد قد حاول فعله، لا قبله ولا بعده، وحاول المستحيل لكن لم يتمكن لأنَّه لا يوجد معلم يسكن في قريتنا.. أقربهم يسكن في أم العيون.

كان أبوها يرسلها ليلا إلى حقل العنب ليبرهن لنفسه بأنَّ ابنته بألف رجل، في أحد الأيام طلب منها أن تذهب إلى حقل العنب ليلا بينما كنت عنده وقال لي لنذهب خلفها، وخرجنا نتسحب عن بعد متخفيَيْن. كانت كأي طفلة، خائفة من الليل وهدوئه وفجأة سمعت صوت أقدامنا خلفها فوقفت وصرخت:

"من هناك؟ والله سأنادي على أبومحمد وأولاده ليحطموكم، من أنتم؟

ضحك الجميع من هذه الرواية.... إلا الضيف هز رأسه غير مستسيغ لكل التبريرات. استطرد أبومحمد وقال قصتها لم تنته عند هذا الحد انتظر

واسمع ما حدث بعد ذلك:

"في السادسة عشرة من عمرها فقدت أباها وفقدناه نحن أيضا مات بدون سابق انذار. عدنا يومها من جولتنا بين البساتين ليلاً، كنا متعبين وطلبت من زوجتي أن تحضر لنا بعض اللبن والجبن وبعض النعناع وتناولناه بشهية الخارجين من مجاعة قاسية، ما بين قهقهاتنا وقف صمته حاجزا بيننا قال لي بشجن:

أنت تعلم بأن عائلتي ليس لها معيل من بعدي؟...

قالها بطريقة لا تتفق مع الجو الفكاهة الذي كنا فيه لذلك قاطعته قائلا:

- ما هذا الكلام... ستعيش طويلا...

واعتقدت أنه سيضحك ويعود لجوالمرح، إلا أنه أجابني:

- الموت علينا حق... وأنطوان ليس هنا.. أما إخوة ماريا فأنا لا أثق بهم.. لذلك فقد أوصيت ماريا بأن توكل إليك إدارة أعمالنا بعد موتي وأنت ستأخذ نصيبك من الربح.

ولم يتركني حتى وعدته بالتكفل بأمرهم في حالة وفاته، وعدت عليه القول ثانية " ستعيش طويلا "

عندها ضحك وقال:

- دق على الخشب يا رجل.

بقينا إلى وقت متأخر في تلك الليلة جالسين أمام بيته.

في الصباح أيقظنا عويل ماريا وصياح ليلى الهستيري... رحل الرجل.

عندما وصلت داره كان راقدا في فراشه... وابتسامة باهتة مختومة على فمه، وقفت حائراً كما لوكان ما أراه كابوسا سرياليا.. لكن الواقعية أيقظتني بصرخة ماريا وهي تولول وتبكي زوجها.

نظرت إلى وجهه الشمعي ، وتجاعيد في وجهه تشبه التجاعيد التي تظهر على قشر التفاح القديم.... كنت مذهولاً.. صدقني نسيت كيف كان وجه صديقي في الليلة السابقة.. لكنني لم أنسَ لا صوته ولا طريقة ضحكته. ليرحمك الله يا نرسيس.... قاطعه ميسر بعد أن عقد حاجبيه و تحدث بصوت يشبه صوت خطباء الجمعة الغاضبين..

''على رسلك، لا يجوز الترحم على النصارى''.

أجابه ابومحمد بحزم:

''نحن وآبائنا وأجدادنا نترحم عليهم وهم يقرأون سورة الفاتحة على موتانا''

أجابه الضيف بامتعاض ''هذه قرية غريبة الاطوار''... قال له ابومحسن

''المحبة تجمعنا، ولا توجد محبة غريبة الأطوار فنحن نحتفل بأعيادهم وهم يحتفلون بأعيادنا''..

أجابه ميسر بنبرة حادة: " أولا قال رسول الله (ص) من تشبه بقوم فهو منهم. ثم التفت الى ابومحمد وقال بنبرة حادة "رغم ما ذكرته لا يحق لها إهانة الناس"

لم يعقب ابومحمد على كلامه... بل استكمل قصتها..

" إسمع التكملة، بقيت وحيدة تماماً بعد الخلاف الذي حدث بينها وبين أخوالها..لديها عم اسمه أنطوان كان قد تغرب وانقطعت أخباره منذ زمن بعيد، حاولنا كثيراً الاتصال به بكل السبل بلا جدوى. لكننا زرعنا في داخلها حلم عودة عمها من المهجر.. لم يمض يومٌ أو يومان إلا وقلت أو قلنا لها "سيعود عمك قريبا"... وبقيت هي تعيش على هذا الأمل ومرت السنون ولم يأت عمها، وجاء الجفاف وتمنينا أن نرى سبعاً سماناً وسبع سنبلات خضر لكنّنا لم نرَ سوى سبع عجاف.

إضطرتا لبيع الحقل واشتروا بثمنه أبقاراً، كانت سماره آخر بقرة من القطيع، ولشدة حزن أمها، لما آلوا إليه قررت أن تكون كسيحة مع سبق الإصرار والترصد وبقيت هي ترعاها عشرين عاما، عاما بعد عام.

فرغت حياتها من كل شيء... حياة تشبه انتظار الموت... ولا نعلم لا أنا ولا نرسيس رحمة الله عليه" امتعض ميسر من ترحم ابومحمد على النصراني لكن ابومحمد لم يتوقف عن الكلام عندما كان ميسر يهز رأسه بانزعاج.

"لماذا لم يتصل انطوان بنا لا أعلم، لكن الغائب عذره معه وإن شاء الله سيعود إن كان حياً"

سكت أبومحمد بعد أن قرأ نظرات ميسر التي تقول أن ما تقوله ليس عذراً كافياً.. فحدق عميقا في عينيه وقال:

- يا رجل لتقل ما يحلو لها.. لن نكون نحن والزمن ضدها، بكل بساطة يحق لها ما لا يحق لغيرها. لهذا سميت بهاما ليلى منذ كانت في العاشرة من عمرها".

(13)

طال جلوس الضيوف عند أبومحمد وكأنهم متفقون ضمنياً على أن يأخذوا نصيبهم من الذبيحة، وكانوا قد شاهدوا وصول صبي القصاب إلى بيت العجوز وتسليمه اللحم الطازج الطري، وبقيت النساء عندها يحضرن الطعام.... فاحت رائحة اللحم الشهية التي باتت نادراً ما تفوح في الحي. كادت غددهم اللعابية تفقدهم القدرة على الكلام، لم يغادر المضافة أي من الضيوف عدا ميسر، الذي نهض للذهاب فطلبوا منه أن يبقى، فقال وهو يجلس في مكانه:

''أنا جلست فقط لأجلكم''.

قالها حفاظا على ماء وجهه لأنه عادة في مثل هذه الحالات لا يجلس الشخص إلا بعد أن يطلب منه ذلك عدة مرات. بعد ثلاث ساعات وصل نصيبهم من الطعام أولاً، أكلوا بشهية مفتوحة حتى مسح الطعام من الاواني مسحاً. تحركت رؤوسهم مع المضغ كمجاذيب التكايا عند الذكر، وكان أبومحمد يعلم بأنَّ هذا اللحم لحم فطيسة سمارة، لكنه قرر أن يصدق ما قاله القصاب بأنه سيرسل لها لحماً آخر، وقال في داخله

''الخطيئة في رقبته ''.

كانت النساء في بيت نرسيس فرحات بالطعام المقدم إليهن. كنَّ قد فرشن سماطاً في باحة الدار تحت شجرة الجوز وجلسن حوله إلا صاحبة

البيت التي كانت جالسة في إحدى الزوايا ساندة ظهرها إلى الجدار. قالت أم محمد:

- لن نأكل لقمة واحدة إن لم تأكلي معنا.

أجابتها ماما ليلى وبدون أن تتحرك من مكانها، فقط أشارت الى الطعام وقالت:

- كلوا أنتن أنا لست جائعة.

قالت كلماتها بنبرة مثيرة للشفقة... لم تسمع النساء كلامها، سحبوها سحبا الى السماط، صببن الطعام في صحن وقدمنه لها وانتظرن حتى بدأت تأكل، فوضعت اللقمة الأولى في فمها على مضض. لكنها أكلت بشبق كما أكل آدم من الشجرة المحرمة.

كانت تؤمن بأن الرب لن ينساها وسيأتي بمن يساعدها في محنتها، والحقيقة أن الرب لم يتأخر عنها... وقدم لها فرصة رائعة لعنت بعدها كرامتها التي وقفت عائقا بينها وبين انتهازها.

شعرت بعد الطعام فجأة بمدى وحدتها فبكت بصمت وانتظرت من يواسيها.. كانت تحتاج لجرعات قوية من الحنان بين الحين والحين، كما يحتاج المدمنون إلى جرعات من المخدرات، جاراتها بدورهن يعرفن تماما ما تحتاجه ويقدمنه لها بكل سخاء. طلبن الشاي وجاءت الفتيات يحملنه في ابريقين فجلسن مجتمعات حوله وعدن الى احاديثهن الممتعة، وكأنهن فجأة تذكرْن أنَّ إيمان "زوجة محمد" لم تكن موجودة، رغم متعة الخوض في الخلاف بينها

وبين أم محمد إلا أنه وضع بشكل مؤقت جانبا لصالح الوليمة، سألت أم سليمان أمَّ محمد عن إيمان... ولفت السؤال انتباه بقية النساء لأنهنّ كنَّ قد سمعْن بالشجار الذي دار بينهما قبل يومين لكنها أجابت بهدوء:

- ذهبت لتزور أمها... نحن نسمح لها بذلك.

أجابتها إحدى النساء بمكر.

- لو كانت هناك فلماذا لم أرها؟ لقد زرتهم اليوم.

وانتظرن الجواب، تلكأت الكلمات على لسان أم محمد فتدخلت ماما ليلى وقالت:

- هي لا تحب زيارتي.. وأنا لا أحبها.

ماما ليلى عندها مشكلة نفسية متأصلة مع إيمان فغرفة إيمان أمام سطحها، عندما خطبت إيمان لمحمد انزعجت وقالت أتخطبون له فتاة تلعب في الشوارع.. كان عمر إيمان حينها خمسة عشر عاما.

حرمانها من تلبية طلب غريزتها كأنثى كان يدخلها في دوامة من العدائية.. ساءها خبر حبل إيمان وتمتعها بالأمومة التي حرمت منها.. لكنها كانت لا تمنع نفسها من أن تتمتع باستراق السمع لصوت زقزقات سرير محمد والتنهدات التي تتبعها ضحكات صغيرة، وتشعر بالمهانة عندما يهدأ كل شيء وتعاهد نفسها على أن لا تعيد هذا التجسس من جديد.... لكنها في الأسبوع التالي تنتظر ليلة الخميس بفارغ الصبر وتنتظر صعودهم إلى غرفتهم فتتسحب على رؤوس أصابعها لتجلس تحت سياج السطح وتتمتع

بسماع سيمفونية العشق التي تنتهي بصرخة النشوة الكبرى وبعدها تتسحب على رؤوس أصابعها من جديد وتعود إلى سريرها ووحدتها وتقرع نفسها وتتعاهد مع نفسها من جديد على أن لا تعود لفعلتها في الأسبوع القادم ولكنها ومن صباح يوم الاربعاء تتحضر للاحتفال بليلة العشق... في الأيام التي كانت تتوقع أنهم لن يمارسوا العشق بسبب دورة الأنثى الطبيعية التي كانت قد حسبت حسابها لإيمان كانت تجلس لوقت طويل في مخبأها لكي تتأكد من أنها لم تفقد حلقة من الحلقات التي تتابعها بشغف.

بعد كل ليلة حمراء تختلق سبباً للشجار مع إيمان أو تحرض أم محمد عليها وعلى مسمعها ولا تهدأ ثورتها إلا بعد أن تنكد عيشها. أو تحرض على طردها إلى بيت أهلها.

سألتها احداهن:

- لماذا تكرهان بعضكما؟

أثار هذا السؤال غيض العجوز فقالت بعصبية ظاهرة.

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك.

وأعلنت نهاية الجلسة.

(14)

فرغ بيت العجوز من النساء بعد المأدبة، وساد صمت مقيت ارجاء المنزل، نفس الهدوء اليومي، "لكنه في هذا اليوم بالذات" شعرته ثقيل الوطأة لا يحتمل.... نسيت نفسها جالسة تحت شجرة الجوز، تحت ظلال ابيها تدخن سيجارة بعد سيجارة، مكان يوقض كل الذكريات الطيبة والتي في الوقت نفسه تثير شجونها وتخبرها بمدى وحدتها في هذا العالم، جلست طويلاً تحاول بلع جرعة قهر فراق اليوم الأول الثقيلة، وما سيترتب على هذا الفراق.... عاشت في تلك الليلة الوحدة والألم عن قرب وكأنها الشيخ الذي خلقه همنغواي وقذفه في اليم.. يصارع الحوت مرة وتبتلعه موجة مرة.. إلا أنه كان قويا أما هي فقد كانت ضعيفة حد الهشاشة.

بقي منظر عيون سمارة المندهشة من ذبحها على يد من تحب يلاحقها، فتغمض عينيها وكأنها بذلك تسدل الستار على مشهد ذبحها لكنها كانت تواسي نفسها قائلة بصوت مسموع:

" الحمد لله لم تتألم عندما ذبحت... وحتى عند الطعنة الأولى، شلّ الله يدك يا أبومحمد غاص نصلك عميقا فيها لكن ربما لم تشعر بشيء. الرب رأف بحالي ماتت بلين".

ثم تعود بعد ذلك لحساب ميزانيتها هل ستشارك أبا محمد بزراعة ارضه لأنه لا يملك ثمن الحبوب؟ لكن ماذا سيحصل إذا لم تمطر السماء في هذا

العام أيضا كما فعلت في الاعوام المنصرمة؟

هذا يعني أنها ستخسر المال الذي معها. هل تشارك أبا سليمان صاحب التاكسي القديم العاطل وتصلحه له، ولكن ماذا لو تعطل في اليوم التالي؟

مضت عدة أيام مليئة بالوجع والقلق.... أيقظتها أوجاع يومية تأتي بانتظام قبل شروق الشمس، أوجاع لم تعتد عليها، تنهش ساعة مفاصلها وساعة أمعائها وساعة رأسها، حتى باتت لا تعرف مما تشكو...تنادي بعد كل هجمة وجع على جارتها ام محمد وتصف لها أعراض المرض... تنصت جارتها لكل كلمة تقولها وهي تعلم بأن معظم هذه الآهات هي صرخات الوحدة والمرض فتقول لها:

- سوف أجلب لك البابونج.. عليك بالبابونج.

فترد عليها بعصبية مفتعلة:

- اللعنة عليك وعلى وصفاتك العتيقة التي لا تنفع لشيء.

تبتسم أم محمد بمكر لتعاكسها بكلمات جادة تعرف تماماً كيف سيكون وقعها عليها:

- هذه من أعراض العمر.. أنت لم تعودي صغيرة.

يحتقن وجهها في كل مرة يشار فيها إلى عمرها.

- تكلمي عن نفسك يا ختيارة... يا عجوز.

تهز أم محمد برأسها وتقول لها مع التركيز على كل كلمة لوحدها:

- أنت.. لست.. صغيرة.

تقولها مناكفةً لها مناكفة الأحبة.

- أنا... أنا الكل يتعجب من جسمي ومن محافظتي على جماله لأنني لم أتزوج، ولم أنجب فبقي جسدي شاباً لم يهرم.

تبتسم أم محمد وتسألها باستفزاز:

- اشربي البابونج سترتاحين...اشربي.. إشربي.

عندها تقول ماما ليلى متبسمة:

- اذهبي إلى بيتك واتركيني أعُدْ لعملي.

تنهض أم محمد وتقبل خديها وتربت على كتفها، لتتركها للعمل الكفيل بنسيانها، وتلتفت قبل مغادرتها الدار وتسمعها:

" لا تقلقي سيعود عمك قريباً " تقولها و هي تغلق الباب خلفها.

أشد ما كان يغيظ ماما ليلى عندما تتذكر عمها أنطوان أنها لا تزال تترقب عودته في كل لحظة، رغم علمها بأنه لم يعد إلا سراباً على صفحات ذاكرتها.. عندما رحل كانت صغيرة ونسيها، ولا يزال يرجف قلبها عندما تفكر بالساعة التي ستراه واقفاً أمامها.

كان يحزنها سماع نقاش جارتها وزوجها، كانت تعرف تماما ما سيقولانه وكانت تعلم أنه سيحزنها لكنها لم تستطعْ إلا أن تتنصت على حديثهم، وعادة ما كانوا يتحدثون بموضوعها حول مائدة العشاء، أومع احتساء

الشاي في فناء الدار عصراً، خصوصاً في الأيام التي يثقل عليها الوجع،.. إذ تكون قد نادت على أم محمد عدة مرات.

بعد أن تجلب أم محمد ابريق الشاي والسكرية وأقداح الشاي في الصينية، تجلس أمام أبومحمد وتبدأ حديثها... وهي لا ترى تلك العيون المتلصصة والآذان المتنصتة خلف الحائط.

- اليوم... قضيت معظم اليوم عند ماما ليلى.

يلتفت أبومحمد وقد ارتفع حاجباه كعلامة استفهام، تعرف زوجته جيداً ما تقوله عيناه:

- خيراً إن شاء الله؟

- لا يوجد شيء جديد.. نفس الآلام.. ونفس المرض.

تجلس ماما ليلى عادة خلف الحائط الذي يفصل البيتين وبجانب الفتحة التي فتحها ابومحمد بعد وفاة ابيها بينهم ليكون قريبا منها...

فقالت العجوز بعصبية تحدث نفسها:

"يا لكذبها... معظم اليوم.. معظم اليوم كانت عندي.. تكذب على زوجها.. لم تقم بأعمال البيت.. والله"... تقولها مشدّدة على الهاء متوعدة لكنها تسكت لأن جارتها بدأت الحديث مجددا فتنصت لهم:

- آه... آه لوتزوجت لما عاشت هذه الحياة، يا ليتها تزوجت.

- لك حق بما تقولينه يا أم محمد.. لكن كما قلت يا ريت.. ومثل ما يقول المثل كلمة يا ريت عمرها ما كانت بتعمر بيت....

يقولها متحسفاً لتعقب زوجته:

- والآن فات الأوان.... أم؟
- أم محمد... قطار وفات... انتهى هذا الموضوع منذ زمن.

يقول أبومحمد كلماته وكأنه يقول هل جننت يا امرأة؟

تجيبه زوجته

- ربما هناك من يبحث عن...

تقول هذه الكلمات وكأنها تشجعه ليجد لها رفيقاً يؤنس وحشتها فيقاطعها أبومحمد:

- من يبحث؟ وعن ماذا يبحث؟.. هل أنت غشيمة أم تمثلين الغشم؟

كم كانت ماما ليلى تتمنى أن تسمع بأنه يوجد هناك من يبحث عن.. أو أنه لا يزال هناك أمل بأن يعود القطار.. بالرغم من أنها كانت متيقنة من أن القطار يقف في محطات بعيدة جدا عن روابيها.

في مثل تلك الأيام كانت تستيقظ صباحا مسحوقة بمطرقة سندان أفكارها... تحمل كل مآسي عمرها المستيقظة مع استيقاظها، و بسبب النوم المتقطع وتعرقها المستمر تستيقظ متيبسة وكأنها إنسانة بلا مفاصل.. فيطول أمرُ اعتدال قامتها وتشعر بآلآم في عظامها.. يتبعه صداع وغثيان.. تفقد شهيتها للطعام ويكون مزاجها متقلبا وتتعامل بعدائية غير مبررة. عندما تسمع صوت أم محمد في فناء الدار تذهب وتقف بجانب فتحة الحائط

وتتحدث بصوت مسموع..

"لم يبقَ في الدنيا خير.. اللعنة على جيران هذا الزمان".

وعندما تراجع نفسها بعد قليل لا تستطيع ان تجد مبررا لفعلها، وتبقى واقفة كتمثال في باحة الدار وتعيد طرح السؤال على نفسها من جديد بصوت مسموع:

- لماذا قلت ذلك؟ لتتحول بعد ذلك الى بركان من الغيض لا يهدأ، وترفض الحديث مع جارتها مكابرة. حتى تأخذ هي المبادرة.

(15)

وقف أنطوان يتأمل من خلال شباك مكتبه منظر المدينة الممتدة لناظره، كان كتمثال شمع، شعره الممزوج ليله بنهاره ممشوطا بعناية بالغة نحو الخلف، وبدلته الغامقة تتناسق تماما مع قسمات وجهه الجادة بنظرته الثابتة فوق المباني أمامه.. عيناه خضراوتان صغيرتان، وجهه مستطيل وكبير. الناظر من الخارج يراه كأنه لوحة قد رسمت على المبنى.... أما أفكاره فكانت آلة حاسبة تجمع أرقاما وتطرح اخرى وتحسب حسابا لمنافس وتلغي منافسا آخر. كان في ذلك اليوم غارقا في التفكير في أكبر صفقات حياته كانت تتعلق بشراء شبكة مطاعم معروفة واعتبر هذا المشروع هو مشروع العمر، طاف بأفكاره في كل البلديات التي ستنتشر عليها شبكة المطاعم التي سيشتريها، من سيديرها وكيف سيتابعها في البلديات البعيدة... جفل عندما شعر بيد تربت على كتفه الايسر... كان ابنه ادوارد

- عفواً أبي لم أقصد، لكنني ناديتك مراراً ولم تسمعني....

نظر في وجه ابنه بفكر شارد، فرفع ادوارد صوته:

- بابا.. الشركة ستسلمنا دراسة الجدوى الاقتصادية اليوم.

استجاب الاب لراحة يد ادوارد فمشى متثاقلا:

- طيب.. هذه أحدى الأمور التي انتظرتها طويلا.

عقب ابنه بصوت واثق و ابتسامة عارف بما يجول في رأس أبيه:

- ستكون في متناول يدك عصرا اليوم.

كان ابنه إدوارد في منتصف الثلاثينيات، طويل القامة ذو بنية رياضية، وسيما ويجيد الغزل على طريقة الضياستانيين، لم يبذر وقته في وصف شعر انثاه وعيونها كالعرب... بل كان ضياستاني يصل إلى فراش المرأة بطريقة مباشرة.... كأن يقول لها:

"لديك صدر جنسي يحرقني بالشهوة". كان انتهازياً من الدرجة الأولى يصل إلى ما يريده مهما كلفه الأمر.. يحب المال حد الشغف فتزوج من ابنة ثري، لكنه كان يعرف التقاليد العربية والآداب العربية، ويلتزم بها للضرورة، عيناه صغيرتان وماكرتان على وجه طفولي يجعل الناس يتعاطفون معه حتى لوكان مجحفاً. كان أبوه بالنسبة إليه كتاباً مفتوحاً بأحرف كبيرة، في وقت يعجز الناس عن فك طلاسمه.

كان ادوارد قد عاصر كذلك معظم فترات حياة ابيه العملية العصيبة والمزدهرة، فكان يعرف تماماً كيف يفكر وبأي اسلوب يرغب بعقد صفقاته. ولاسيما كالتي هو بصددها الآن، ومن خلال هدوء ابيه المبالغ فيه، ادرك على الفور حيرته فسأله:

- بماذا تفكر؟

أجابه الأب دون ان يلتفت اليه:

- كيف سندير الأفرع البعيدة؟

- ناقشنا هذا الموضوع سابقا..

قالها مبتسما، ومحاولا الايحاء لأبيه ان ما يشغله امر آخر سأله ثانية:

- ماذا يقلق أبي العزيز؟... فنحن لدينا كلَّ ما نحتاجه.

رد بحماس مفاجيء:

- المنافسون يا إدوارد.

ثم مشى خطوتين وتابع بصوته المعدني:

- لا أعلم حتى الآن عدد المنافسين الفعليين يا ادوارد؟

أجاب اباه بصوت انسان متمكن من قضيته:

- سنعرفهم، لا يزال لدينا الوقت. سأولي هذه المهمة لتوماس، لكي يستقصي لنا الأخبار، ويقدم لنا اسماء المنافسين وامكانيتهم.

أنطوان لم يثق يوماً إلا بنفسه... وبعدها بأولاده، وهو يرى ان كل ضياستاني غير كفؤ وكل عربي كفؤ، بخلاف ما يراه ادوارد، وعلى الرغم من السنوات الطويلة التي قضاها انطوان في ضياستان، لم يكن حوله إلا العرب، ولم يكن يجلس إلا في مقاهي الأقليات العربية، وكان يجبر نفسه على مجاملة الضياستانيين في العمل. أما بالنسبة لإدوارد فقد كان ينظر إلى مقاهي الأقليات على أنها أماكن للبائسين.

رفع الأب صوته وقال آمراً:

- لا ترسل توماس.. أرسل شخصاً اخر.

- سأتولى الأمر بنفسي يا أبي.. بنفسي.. هل هذا يرضيك؟

إدوارد كان واثقاً بأن هذا هو الخيار الوحيد الذي يرضي اباه.

أما أنطوان فراقت له الفكرة، وحافظ على صمته، كمن فاز بجولة، وبات ينتظر مكاسبها.

في عصر ذلك اليوم اجتمع بأدوارد واخيه الاصغر سليم وممثلي الشركة الاستشارية في صالة الاجتماعات في مقر شركته... بعد نصف ساعة من الشرح المسهب والمنحنيات التي عرضت على الشاشة والتخطيطات البيانية عن الصورة الواعدة للمشروع لم يتوصل اي من الحاضرين الى مديات الفرح التي كان انطوان قد بلغها الا ابنه إدوارد الذي ابتسم لأبيه مباشرة بعد خروج موظفي الشركة الاستشارية ولم يقل أكثر من " رائع".

فسأل سليم أباه:

– هل هذا يعني أنك راض عن المشروع... هل انت كذلك؟

ضحك عندها الأب وقال له "ستكون الامور بخير".

ابنه سليم ايضا كان ضياستاني التفكير قلبا وقالبا، وُلد في ضياستان ولم يتعرف على الآداب والتقاليد العربية ولم يكن لديه اي اهتمام بأصوله العربية، وكان معظم أصدقائه من هناك.

طويل القامة كأخيه، بوهيمي الملبس والتفكير، يشتري بناطيله الجينز من محلات ساند الغالية، لكنه يحكها بالحجر ويسبح بها في البحر لتصبح رثة بسرعة، وهكذا يستطيع أن يجاري أصدقاءه البوهيميين الوهميين، الذين يقومون بإذلال الغالي والثمين ليظهر مستوى بوهيمتهم.. عندما يطلب منه

أبوه أن يقتدي به ويحضر إلى الشركة ليتعرف على العمل فيها يجيبه:

- أنت أنطوان وأنا سليم، لك حياتك ولي حياتي.

- يا بني...أنت الشخص الذي سيواصل مسيرة الشركة من بعدي.

- يا أنطوان هذا العمل لا يعجبني. عملك ليس في مجال اهتماماتي.

كان قد اعتاد على تسمية أبيه باسمه، ولم يعتد على استعمال كلمة بابا.

وعندما كان يقول له أبوه:

- أنا أبوك وأنا صاحب فضل عليك..

كان يضحك ساخرا من الحنان الظاهر في نبرة صوت ابيه ويجيبه:

- تعني شهوتك فضل علي.. ما هي إلا غريزتك.

- أنا ربيتك.. اعتنيت بك.. كبرتك.

كان يعد كلمات ابيه سذاجة معتادة فيرد بوقاحة:

- هذا واجبك.. أنت الذي جئت بي الى الحياة.

وينتهي النقاش عند هذا الحد، لأنه ان استمر فينتهي كالمعتاد بشجار وخصام يدوم طويلا، ولا يزول إلا بتدخل الام وادوارد المحايد بالحديث مع سليم لكي يتصالح مع أبيه..

لكن أفكار سليم تغيرت بعد أن أكمل دراسته وتخرج، وفهم أن عمل أبيه مثمر، وليس من الغباء كما كان يظن أن يعمل معه ويحصل على المال، طالما أن فرص العمل في مجال الإخراج السينمائي، الذي كان شغوفا به شبه

منعدمة. لذلك ترك بوهيميته جانبا، وأخذ شيئاً من براغماتيكية أخيه.

في ظالمايا السفلى انتهى قلق ماما ليلى التي اتكلت أخيرا على الرب وقررت أن تشارك سائق التاكسي (أبوسليمان) لأنها لا تستطيع الانتظار حتى موسم البذار كي تشارك أبومحمد في الزراعة، وتتحمل الشد العصبي بعد ذلك، ستبقى عيونها معلقة بكل غيمة عابرة تباركها إذا أمطرت وتلعنها إذا شحت وتنتظر التي تليها وتنتظر بعد ذلك نمو الزرع ونجاته من الآفات وحتى يحصد ويباع، تكون هي قد ماتت جوعاً. مجرد التفكير بهذه الطريقة أجهدها، لهذا فكرت بالتاكسي وطلبت تستدعي أبوسليمان إليها في يوم الجمعة.

قامت بترتيب فناء الدار للاجتماع غسلت باحة الدار بالماء لترطيب الجو وفرشت شرشفا أبيض على الأريكة الهرمة منحلة المفاصل. كانت صفقتها وصفقة عمها ستعقد في نفس اليوم.

هي ستخاطر بمعظم ما لديها وهو سيبدأ مشروع عمره.

(16)

في ذات الوقت وفي فندق ساس كانت غرفة الاجتماعات قد حجزت والمائدة الكبيرة قد غطيت بعناية وبذخ عاليين وزهور التيولب تجمل المكان وأمام كلّ كرسي إضبارة.

حضر أنطوان الاجتماع وكان مبتهجاً على الرغم من تعبه، ومنتشيا بنجاح المفاوضات التي توصل إليها مع البائعين، والتي سيقطف ثمارها أخيراً. دخل الصالة يتبعه ولداه... كانوا ببدلات وأربطة نادرا ما كانوا يلبسون مثلها في ضياستان إلا في المناسبات الرسمية، سليم حلّ ربطة عنقه. كان مستاءً بعض الشيء، فارتداء البدلة فرض ثقيل على بوهيمي مثله.

محامي الشركة وقف وسط القاعة بكامل اناقته وقال:

- ينتظرنا الكثير من العمل.

اعتدل البعض، فيما امسك آخرون باوراقهم، فيما كان انطوان يركب نظارتيه على انفه وقال:

- كلّ الأمور سارت على ما يرام ولم يتبقى إلا الشكليات.

فرد المحامي بلهجة معاتبة:

- الشكليات هي الجزء الأهم في الموضوع.

رد أنطوان بحزم:

- عذراً.. لقد أسأت فهمي.. أنا قصدت أن ما يتطلب الوقت الطويل قد انتهى. أما عملكم فهو التتويج.

أعجب المحامي بما قاله انطوان وسار الاجتماع بسلاسة ولم يعكر صفوها شيء، سوى توقف لدقائق حول نظام مخليات الهواء الذي كان اصحاب المشروع قد استلموا رسالة من الرقابة الصحية مطالبين بتحسينها والذي كان قد فاوضهم بخصوصه سابقاً، ولم يولوا الأمر اهتماماً كبيرا وبقي انطوان الرابح الأكبر في نظر الجميع، لأن ما صبر لأجله طويلاً جاء بثماره في النهاية.. وافقوا على خمسة ملايين دولار أقل من المبلغ الذي طلب في البداية، بالرغم من أنَّ أولاده كانوا موافقين على الشراء بمليون أقل... كانوا يلحّون عليه بالموافقة على العرض الذي تلاه، ثلاثة ملايين ونصف أقل من السعر المطلوب. أنطوان لم يوافق على المبلغ، وكان يقول لهم أحتاج خمسة ملايين لأمر مهم. كان يرد على استغراب ولديه من الموضوع وسؤالهما المتواصل بجواب مقتضب لم يتغير:

"هذا سرّ"

توقعا أن أباهما يريد استثمار المبلغ في تطوير شبكة المطاعم بعد أن تفاوض بشراسة بخصوص تحميل المالكين نفقات تطوير نظام التهوية في المطاعم... أو أنه سيشتري لهما عقارات، أو اي شيء آخر، غير الذي خبأه عنهما.

كان النقاش بين أبوسليمان وأبومحمد في بيت نرسيس يدور حول إجمالي المبلغ المستثمر، كانت تريد أن تدفع ثلاثمئة دولار مقابل الحصول على الثلث، بينما كان أبوسلمان يشرح لها لماذا لن يتمكن من دفع سوى الربع مقابل أربعمئة دولار، وذلك بسبب كلفة قطع الغيار التي يجب استبدالها وعمل التصليحات اللازمة للسيارة. كلما تعسر التفاوض تقدم لهما قدحاً جديدا من الشاي الحار...

بعد نصف ساعة من النقاش رفعت العجوز صوتها قائلةً:

"ليبارك الربّ مشروعنا، أنا موافقة".

وافقت بالرغم من أنَّ المشروع كان سيكلفها كل ما تملكه تقريبا. كانت قد فكرت بعمق كم ستكفيها الخمسين دولار المتبقية حتى يقوم أبوسليمان بتصليح السيارة ويدفع لها أرباحاً فكرت بأكلها وشربها خلال الأسابيع القادمة، وتحدثت مع نفسها طويلا بعد أن غادر ضيفاها وسألت نفسها أسئلة كثيرة، وأجابت عليها.

- لو تأخر تصليح السيارة ماذا سأفعل؟

- لماذا سيتأخر... قطع الغيار موجودة... لا يوجد داع للوساوس.

- ولو تعطلت بعد ذلك؟

- ما الذي سيعطلها سيغير القطع فلن تعطل.

- لو صدمت.. سأخسر كل نقودي؟

- أبوسليمان سائق ممتاز... ولم يعمل أي حادث خلال حياته.

- ماذا لو صدمه أحد ودمر السيارة؟

- اللعنة على هذه الوساوس، إن شاء الله كله خير والرب ويسوع والعذراء ستحميه.

- لكنهما لم يحميا بقرتي.

- اللعنة على السيارة وعلى عمري... هذا هو نصيبي من الحياة...

هرعت مستعجلة إلى سطلها وبدأت بتنظيف البيت كله... كانت تتمنى أن تستطيع بهذا الماء أن تغسل رأسها من تلك الأفكار أو تخنق الوساوس بقماشة التنظيف.

في الأيام التي تلت عقد صفقتها، جافاها النوم تماما.. تسرع في الصباح الباكر إلى بيت أبي محمد، تطرق الباب وتقول جئت لأشرب الشاي معكم. ترحب بها أم محمد ويفرح جارها لحضورها، ويطلبون منها أن تتناول الفطور عندهم، فتعتذر لأنها لن تتناول فطورها إلا بعد الانتهاء من واجباتها الروتينيةن وتبادر بدون مقدمات وتسأل:

- لو اشتريت بقرة... يا ابو محمد... بدل سماره ألم يكن ذلك أفضل لي؟

يبتسم ابومحمد، وهو يعلم ما يخفيه هذا السؤال ويجيبها بنبرة طبيعية.

- هذا شيء لا يعلمه إلا الله.

فتنظر إلى أبي محمد وتسأله من جديد:

- قل لي بالله عليك، أليست صفقتي مع أبي سليمان رديئة؟

- لماذا تفكرين بهذه الطريقة؟ الرزق بيد الله.

- ماذا يحدث لي لو تعطلت السيارة؟

فيجيبها بسؤال افتراضي ترافقه ابتسامة ابوية:

- وماذا يحدث لك لو ماتت البقرة الجديدة، ولا تنسي أنه لم يكن لديك ما يكفيك لكي تشتري بقرة جديدة.

- أي والله.. لقد نسيت هذا الأمر...

وتتنفس الصعداء وتؤكد لنفسها قائلة.. "لقد كان قراري صائباً... الآن أنا مقتنعة تماما بما فعلت.. لقد تأخرت سأعود للبيت لكي أكمل واجباتي...".

كان واضحا أنها جاءت لتواسي نفسها و لا يمضي سوى يوم أو يومان حتى تعود إلى جارها في صباح نهار جديد بعينين منتفختين لتعيد جولة جديدة من الحوار نفسه، وتمضي مرتاحة لتعاود الجولة من جديد بعد يومين

أو ثلاثة.

كان الجو ممطرا وممزوجا بالثلج في ضياستان، ومنظر المدينة التي تغتسل بالمطر أمام شباك قاعتهم في الطابق الأعلى في الفندق الذي يشرف على المدينة والبحر الممتد الى الافق بعدها. انتهى الاجتماع بتناول الغذاء أمام المنظر الذي لا يُمل، أجواء أعطت إجتماعهم طابعاً خاصا...

نفذ صبر إدوارد وسليم.. كانا سيموتان ليعرفا لماذا أصرّ أبوهما على هذا المبلغ الذي كاد ينسف الصفقة بالكامل.... فرق المبلغ أصبح الآن في جيب والدهما، ألم يحن الوقت ليعرفا السبب! بعد أن انتهوا من الغذاء تحولوا الى المنضدة الموضوعة جانبا لتناول القهوة مع الحلويات... استغل إدوارد وقوفه بجانب والده فسأله:

- والآن ماذا سيفعل أبو إدوارد بالمبلغ؟

وترقب الجواب بشغف.

- ستعلم لاحقاً.

قالها الأب بهدوء متبسماً، توقع سليم أن أخاه تمكن من كشف السر الذي انتظراه طويلا. سار بتوأده ليقف بجانب أخيه وكأنه غير متعمد، إلا أن أباه ابتسم ونظر في عينيه. حاول أن يمثل أنه لم يلاحظ ابتسامة أبيه وسأل أخاه:

- ماذا سيفعل بها؟

أجابه إدوارد بهدوء مستفز:

- لا أحد يعلم... لا يزال الأمر سراً... سنعلم لاحقا.

تنهد سليم وقال:

- ملعون أنطوان.

لم يستطيع إدوارد حبس ضحكته وقال لأخيه:

- احترم أباك. عيب عليك.

- اللعنة عليك وعلى أبيك.

وابتسم لأخيه، ومشى باتجاه أبيه وسأله:

- متى سنعرف.

- ستعرف ماذا..؟

- خمسة مليون.

- اليوم ليلاً، سليمو.

(17)

باتت تلك الليلة كحبيبة صعبة المنال، انتظروا قدومها بفارغ الصبر، جاء ادوارد وسليم إلى دار أبيهم متلهفين لسماع ما أخفاه عنهم طوال تلك الفترة، دخلا الصالة المؤثثة بأثاث كلاسيكي، أرائك جلدية سوداء وسجاد إيراني على الأرض وموقد النار وأمامه أدواته من الملقط والفرشة والمنفاخ.

منظر النار والستائر المخملية الحمراء توحي بالحرارة.... قبلوا أمهما وجلسا، كانت أمهما تعلم بمجيئهم فأعدت القهوة وبعض الفطائر ولم تكن تعلم شيئاً عن مخطط زوجها أكثر من ولديها فكانت متلهفة مثلهما لسماع أقوال زوجها ومقاصده السرية، وقد راودتهم فكرة أن لهم نصيب في المبلغ. سألت الجدة ادوارد عن أحفادها:

- كيف حال أولادك؟

أجابها باقتضاب:

- بخير... بخير.

لم يكن لديه وقت ليخوض بموضوع ثانوي كموضوع حال اولاده، أمّا سليم فكان قد وعد أصدقائه بقضاء ليلتين في (بودو) لكي يتمتعوا بالنظر إلى شمس منتصف الليل وحضور كونسرت آها.... شربوا القهوة وأكلوا الفطائر وانتظروا أن يقول شيئاً إلا أنه لم يقلْ أيَّ شيء، وبقي مستمتعا بفضولهم ولهفتهم التي جعلتهم يقتضبون في الحديث ويتبادلون النظرات فيما

بينهم. أخيراً غمز إدوارد أمّه.

كانت مادلين ممتلئة الجسم ولها ثديين كبيرين وبات شعرها الثخين خفيفاً، إلا أنَّ وجهها كان لا يزال محتفظاً بطفولته، وبنظرة طفل مدلّل، قالت لزوجها.

- قل للأولاد عن سرّ النقود.

ابتسم لها وقال ببهجة:

- لن يسرّهم الموضوع.

- لا تتلاعب بأعصابهم أكثر.

قال إدوارد قبل أن يقول أبوه شيئاً:

- ما هو مشروعك يا أبي؟

ضحك الأب ومال في كرسيه متنفساً الصعداء وقال لهم فرحاً.

سأعود إليها... سأبني قصراً في ظالمايا العليا.

بعد ذلك تنفس بعمق مسنداً رأسه على ظهر الكرسي وقال منتصراً:

"سنعود إليها.. سنعود".

المفاجأة أخرست إدوارد وتقطب جبينه أما سليم فلم يفهم أو لم يكن يريد أن يستوعب ما سمعه.. قال إدوارد مكافحاً لرسم ابتسامة على شفتيه بمحاولة مستميتة ليؤثر على رأي أبيه.. شعر بضيق عندما فكر بمواجهة زوجته التي كان قد وعدها بشراء بيت جديد.

- أبي العزيز نحن نبني أنفسنا هنا في ضياستان...هذا وطننا.

أجابه ابوه بلهجة حازمة:

- يا أولادي، جئنا من ظالمايا وجذورنا ما تزال هناك.

تدخّل سليم قائلاً بإنزعاج.

- أنا لديَّ أحلام أريد أنْ أحققها.

كان جواب ابيه كلطمة على الوجه.

- ستحققها يا ولدي من عملك وتعبك.. هل تفهم؟

تسمم الجو، وسكت الجميع.. بعدها تمتم سليم:

- عد لوحدك إلى ظالمايا.. عتمايا فأنا باقٍ هنا.

نهض إدوارد وتوجّه إلى الباب يجرّ معه خيبةً غير متوقعة. أمّا مادلين فسألته:

- هل هذا قرارك النهائي؟

لم يجب ولم تسأله هي ثانية لأنّها فهمت أنَّ ما سمعته كان صحيحاً. غاص في كرسيه وأسند رأسه عليه مستمتعاً بمنظر القصر الذي سيبنيه، وسمع صفعة الباب بعد أن غادر سليم لاحقاً بأخيه، لكنها لم تقطع عليه نشوته بمنظر القصر ولم يتحرك من كرسيه.

(18)

بعد مضيّ ثمانية أشهر على عقد الصفقة ظهر قصر كقمر بين القصور التي كانت كالنجوم منثورة على رأس الجبل. قصر يأبى أن يقارن ببقية القصور، أدهش القاصي والداني ممن يسكنون فوق الجبل وتحته والقول الأقرب إلى الصواب أنّه استفز غيرة وفضول أهل القمة، بينما زاد من حنق أهل الوادي. كان القصر جزءاً من الطبيعة المحيطة به، بُني على جانب متطرّف ومرتفع على قمة الجبل.. الناظر إليه من الأسفل يراه وكأنه طائر عملاق على وشك الطيران، والناظر إليه من القمة يرى كيف يضم القصر اليه حدائقَه الغناء التي تجملها أنوار تتناسب مع طبيعة المكان التي تفنن فيها أفضل مصممي الحدائق.

- من هو صاحبه؟

بقي هذا السؤال يبحث عن جواب وقتاً ليس بالقليل.. كان أعجوبة من أعاجيب ظالمايا، جعل أهالي ظالمايا السفلى ينعتون صاحبه بأبشع النعوت حتى قبل أن يعرفوا من هو، منهم من قال أنه تاجر سلاح، وثاني قال لا إنه تاجر مخدرات، وآخر قال هو قواد رخيص مستورد مومسات.

استفز البذخ في بناء القصر احاسيس الفقراء، كانوا يعلمون أن كلفة القصر أكثر من قيمة قريتهم بما تحتويها من بنيان وحيوانات وحتى البشر.

في الفترة الأولى التي اعقبت شراكتها في سيارة الاجرة، ازدادت قلقاً وخوفاً من مستقبلها الذي بات يرتبط بالعجلة والباتري والمحرك، لم تكن تستلم سوى بعض النقود القليلة والتي كانت تزرع بذور البسمة على شفاهها حتى يأتي عطل جديد ليقتلع شتلات الفرح الصغيرة. لم يكن لديها ما تفعله سوى أنْ تنغمس بشكل أكبر في عمل البيت. كان في بيتها الكثير من كمائن الذكريات لذلك لم تعد تستطيع الجلوس بدون حركة، بمجرد جلوسها تكتشف كل تلك المخابئ واحداً تلوالآخر.

عندما تنفذ النقود تماماً من جيبها كانت تتذكر خيبتها بإخوة أمها الثلاثة، لم ترغب أن تعطيهم لقب الخال... لنْ تنسى يوم وفاة أمّها التي ماتت بين يدي جارتهم وهي تودعها بابتسامة واهنة، لا تعني أيَّ شيء إلا أنها كانت ترغب بتوديعها مبتسمة، لفظت الأم أنفاسها الأخيرة بينما كانت ابنتها تنظر إليها. لم تعلم لماذا كانت دموعها على أبيها أحر وأوجع من دموعها على أمها، كان المفروض أن تكون الحالة معكوسة. شعرت أنها مضطرة لعصر دموعها على أم لم تعطها إلا أوامراً توجب عليها إطاعتها بسبب وصايا الرب وبحكم القوانين الاجتماعية غير المكتوبة. كانت أمّها عبئاً ثقيلاً على الحياة وعليها، لكنّ ذلك العبء كان محور حياتها.... نظرتْ إلى وجه أمّها الذي يشبه وجه غريق بقي أياماً في الماء، وغطتها بالشرشف الأبيض الذي كانت أمها قد طرزته ليكون من ضمن مستلزمات عرسها، مات العرس ومات الشرشف معه. نادت أم محمد على زوجها، الذي جاء مسرعاً، وعند الباب أخبرته بوفاة ماريا، دخل الى ماما ليلى وطلب الرحمة والمغفرة لأمها بوقار ثم

احتضن ابنته مواسياً فابقت رأسها على صدره وبكت كل أحزانها، صرخت أولا ثم بكت وبعد برهة تنشجت وتحول كل شيء الى أنين ثم سكتت.... جلست في باحة الدار مع أبومحمد وزوجته وعندها فقط شعرت بموجة يُتْم تجتاحها رغم سنّها.... لم توقف كلمات أبومحمد وزوجته المواسية نزيف دموعها، ومنذ اللحظة الأولى للفراق شعرت بشوق لكل ما كان يقرفها من الواجبات اليومية.

حدثت نفسها بصوت عالٍ:

- لمن سأطهي الطعام؟... ولمن سأقدمه؟.. من سيتشاجر معي؟.. هل سأستحم لوحدي وأخرج؟ من سيقول لي نعيما حمامك؟... وبقيت شفتيها ترتجف وهي تغتسل بدموعها.. أحزنت كلماتها الساذجة أبومحمد وزوجته كثيراً....عض ابومحمد على شفتيه قبل أن يقترح عليها ارسال شخص لاستدعاء خوالها. أجابته بلهجة صارمة:

- لا أريدهم.. لم يستفقدوها ولم يتذكروني خلال سنوات مرضها العصيبة.. لا تحتاج وجودهم لقد فات الأوان.

دار حديث طويل حول الاصول والتقاليد، التي كانت تريد أن تطرحها جانبا كما فعلوا.... أخيراً أومأت برأسها موافقة على طلب حضورهم. عندها طلب أبومحمد من أولاده أن يجلبوا أبوسليمان إليه.... حضر أبوسليمان ودخل بكل احترام وترحم على المرحومة وقدم تعازيه لماما ليلى وأضاف قائلاً:

- نحن أهلك وسنكون بجانبك في أي وقت.

شكرته ولم تتكلف بالبحث عن كليشة مناسبة.

- ليباركك الرب ويبارك أهل بيتك..

لم تكن هذه طريقتها الاعتيادية بالكلام ولكن على الأرجح أنَّ أجواء الموت جعلتها تتحدث بهذه الطريقة الكهنوتية طلبت أم محمد من ابوسليمان أن يرسل زوجته لكي تغسل الميتة وتجهزها للدفن.. كانت ليلى مهتمة جدا بأمور صغيرة وكأنها كانت تحاول أن تشغل تفكيرها بها، ناقشت نوع الصابون مع ام سليمان طويلا ثم جلبت زيت العماد وطلبت من ام سليمان واكدت عليها مرارا وتكرارا:

"ادهني كل جسدها بالزيت المبارك، وليكن مرتين"

عاد أبوسليمان بعد الظهر مستصحباً معه أخوالها الثلاثة احتضنوا ابنة أختهم وقاموا بمواساتها بحنان مبالغ فيه، لم تشعر بحرارة حنانهم بل على العكس شعرت ببرود زائف.... طلب منها خالها الكبير فؤاد وبقسمات وجهه الطفولية وأنفه الطويل الذي لا يتناسب مع طفولة وجهه أن تغفر لهم تقصيرهم... توالت الاعتذارات ثم عقب خالها بولص ذو الوجه السمين المترهل وعينيه الغائرتين في مغارتين لحميتين وحاجبين عريضين يتقافزان عند حديثه قائلاً:

- مقصرين نحن تجاه اختنا، لكننا لن نقصر تجاهك وسنعوضك عن سنين الوحدة.

جاء دور الأخ الأصغر بهنام بعده. كان حليق الشارب ضعيف الوجه وجميل القسمات:

- أنا.. ليس لدي كلمات أعبر بها عن ندمي تجاه أختي وتجاهك. نهض واحتضنها بحنان، وقال مشددا على كل كلمة يقولها.

- سأفعل.. كل ما في وسعي.. لكي أعوضك.

اجتمع رجال القرية ونسائها في بيت ماما ليلى وحضر الخوري متقلدا صليبه وأقام صلاة قصيرة لراحة نفس الفقيدة.. بكت ماما ليلى وهي تسمع تراتيله، وبكت معها النساء كل غرائز الامومة، تعاطفا مع ضعفها، كثير من النساء لم يعرفن الراحلة عن قرب لكن افراح القرية واتراحها جماعية.

كانت قريتهم بلا كنيسة لذلك تمت كل مراسيم الدفن في البيت وأقام الخوري الصلاة الطقسية في البيت أيضا، ولم تفارقه مبخرته طيلة الوقت وبعد تبخير البيت، رُفع التابوت على أكتاف الرجال يتقدمهم إخوة الفقيدة والجيران وتوجهوا إلى المقبرة. كم أزعجها أن يحمل أخوالها تابوت أمها ويتقبلوا العزاء في المقبرة بدلاً عنها، لم يهتموا بها يوماً فلماذا سيحضون بالاهتمام الآن بعد موتها. وقفت بباب الدار تودع أمها وتحيط بها الباكيات من المعارف والجيران..

شعرت بوحدة أمها في تابوتها.. وحيدة في صندوق خشبي... وهي التي كانت تبكي عليها عندما تخرج في شأن ما لمدة قصيرة خارج البيت... عندها ارتجفت شفتاها وخاصة شفتها العليا تحت خشمها المنقوش بالزيوان

الأسود، ودموع ملأت كل تجاعيد وجهها المتوجع.... ساورها شك ماذا لو لم تكن هناك حياة بعد الموت، اين ستلتقي بها؟

غطت وجهها بيدها ولم تعد تريد أن تعرف لمن تعود تلك الكفوف التي تربت على كتفيها وتمسح على ظهرها.... رفعت يديها بعد قليل عن وجهها ونظرت أمامها فلم تجد موكب الجنازة أمامها، كانوا قد انعطفوا في الزقاق الأخير فدخلت تدفعها النساء إلى الداخل..

وضعوها في الحفرة ببرود وبلا مشاعر.. وقف الخوري وبجانبه إخوة الفقيدة صفاً واحداً، ووقف أبومحمد بجانبهم بناء على طلب مسبق من ماما ليلى..

لم يرق لهم أن يقف مسلم بينهم ليتقبل العزاء في أختهم المسيحية، لذلك جعلوه يقف في نهاية الصف وكان بولص و بهنام ممتعضين من وجوده بجانبهم فكانوا ينظرون اليه شزرا خصوصا عندما يكون الشخص الذي يصافحهم مسيحياً... عادوا بعد ذلك جميعا إلى بيت ماما ليلى، وكان الجيران قد حضّروا طعاما للضيوف تناولوا طعامهم وجلسوا حتى ساعة متأخرة، تحدّث الرجال في كلّ الأمور ولم يلتفتوا إلى مشاعر ابنة الفقيدة طيلة فترة الجلسة... لا يُتمَ للبالغين فقط للأطفال ولم تكن طفلة فلا يحق لها أن تكون يتيمة.... نام الخوري في تلك الليلة عندهم، في الصباح بخّر البيت وباركه من جديد وأقام الصلاة على روح أمها.... رحل مودعا الجميع وحاملا معه هدية للكنيسة من أجل راحة نفس الفقيدة.

أقيم العزاء ثلاثة أيام، كان أخوالها يسهرون الليل معها ويتحدثون بشأن مستقبلها وكيف ستتدبر أمرها. تلك الأجواء الحميمية جعلتها تغفر لهم تقصيرهم تجاهها، كانت أمية المشاعر و بحاجة للحنان.

في الليلة الثالثة وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويطلبون منها أن تكثر من زيارتهم تحول الحديث فجأة الى الارض المجاورة للبيت والتي كانت آخر ما تبقى لها، وبدون مقدمات قالوا لها:

- عليك أن تبيعي نصف أرض بيتك بعد أن تفصليها لتعيشي منها، معززة مكرمة.

البيت وأرضه بالنسبة لها كانت ينبوع ذكريات ترتبط بابيها. كانت مؤمنة أنها بدون الأرض وذكرياتها لن تكون سوى ورقة شجرة خريفية، بلا أمل.

قالت متضرعة اليهم:

- لماذا لا نزرعها؟

أجابوها بلسان واحد:

- من يزرعها.. ومن يتابعها..؟ هذه مسؤولية كبيرة..

- أنا سوف أتابعها قدر استطاعتي.

أجابها خالها الأكبر.

- لكن كما ترين الأرض لا تجلب دخلاً.

عقب خالها الأوسط بولص:

- لن تستطيعي تحمل مثل هذه المسؤولية وأنت وحيدة هنا.. لا يوجد حولك من نثق به.

قال بهنام الأخ الأصغر موضحاً:

- كلهم مسلمون لا نثق بهم.

أجابت بسرعة:

- لكن أبو محمد ممكن....

قاطعها بهنام وأمال رأسه وهو يحدثها مذكراً:

- انه مسلم... يبقى مسلم.

- لقد وقف بجانبي هو و عائلته لعدة سنوات.

- نعلم ذلك، لقد كانوا مستفادين من اباك و من ارضك.

لم ترغب بالخوض في نقاش عقيم نظرت في عينيه وسألته مستفهمة:

- كيف سأعيش وأدبر أمري يا خالي.

أجابها فؤاد موضحاً:

- العمل مع بقراتك في الزريبة يناسبك... وهي قريبة من البيت فسيكون عملاً مناسباً لك.

- يا خال لم يبق من القطيع شيء كثير، لقد بعناه وصرفنا ثمنه خلال فترة مرض أمي.

- لا عليك يا ابنتي، بيعي الأرض وسنقوم بتشغيل رأس المال في مشروع ناجح يدرّ عليك ما يكفيكِ. نحن لدينا أعمالنا وستكون نقودك في مشاريعنا وستدرّ عليك ما يكفيكِ لتعيشي في بحبوحة.

توجست خيفة من عواقب مقترحهم، نظرت في عيونهم قبل أن تجيب:

- دعوني أفكر.. سأستشير أبومحمد.

أغضبهم رأيها، لكنهم تمالكوا أعصابهم وقالوا بهدوء:

- نحن أهلك وأدرى بمصلحتك.

"تعالي يا ابنتي واجلسي جنب خالك". كانت كلمات خالها فؤاد تقطر صدقا في أذنها، ليس لصدقها، بل لشدة حاجتها للحب. جلست بجانبه فضمها إليه فوضعت رأسها على كتفه فقبل رأسها وهمس في أذنها:

"لا تقلقي يا ابنتي" إلا أنها همست في أذنه "سأستشير أبومحمد". ضمها اليه بشدة وقال بود:

" إذا أردنا أن نستشير أحدا.. فدعينا نستشرْ الرب".

ثم وضح مقصده:

"سنستشير الخوري".

في اليوم التالي أرسلوا في طلب الخوري، ما أن دخل البيت وشاهدته أمامها شعرت كأن يسوع قد بُعِثَ من جديد، استشاروه في أمرهم، وانتهى الأمر بإعطاء توكيل عام بحق التصرف بأموالها لخالها الكبير. طلبوا منها أن

لا تخبر أحدا بالموضوع و خصوصا ابو محمد، لأنه سيخرب البيع اذا استخدم حق الشفعة. و لكونه مسلم فلن يتورع عن استغلال ضعفها... ولا تعلم لماذا صدقت كلامهم.

كتم أبومحمد غضبه عندما سمع بالأمر رغم احتقان وجهه، كل شيء كان قد انتهى وفات الأوان، وحزّ في نفسه أن لا يستشار وهو بمثابة أبيها وعاتبها. كان مخططاً شيطانياً، لم يعلم بالامر في حينه لأنها قضت فترة عند بيت خالها وما أن عادت حتى أرسلوا في طلبها ثانية وبقيت عندهم ما يقارب الشهر والنصف بحجّة احياء عزاء امها في يوم الاربعين بعد رحيلها، كانت تشعر بالفخر لأنّ لها عائلة كبيرة تزورها وتزورهم، وقد عاهدها أخوالها بأنها ستبقى تحت جناحهم الدافئ، لكن ما إن بيعت الأرض بعد شهر بثمن بخس أودع عندهم، حتى شعرت أنها أصبحت ضيفة ثقيلة عليهم.. تضايقت منها زوجاتهم، يناكفْنها وتناكفهن... وأخيراً قلن لأزواجهن الواحدة تلو الأخرى الجملة الشهيرة التي تقال في مثل هذه المواقف:

"إما أنا أو هي في البيت".

جلس اليها أخوالها، متفهمين لضيقها بالرغم من أنها لم تشتكي من الشجار معهن، لأنها وجدت فيها متعة اجتماعية.

- نعلم إنهن يزعجنك، ونحن لا نقبل مثل هذا السلوك، ولا نقبل الاعتداء عليك، ولكن وكما ترين فنحن تقريبا لسنا في البيت.. العمل يأخذ

معظم وقتنا... ولخوفنا عليك قررنا أن نزورك بدل أن تتحملي مشقة الطريق.... كل واحد منا سيأتي إليك مرة في الأسبوع.

رغبت أن تشرح لهم أنها لم تتضايق من الشجار، إلا أنهم كانوا قد قطعوا أمرهم...أرسلوها إلى بيتها وتركوها لوحدتها..

بعد فترة بدأت تسأل أخوالها اللذين لم يأتوا لزيارتها، عن الأرباح لكنها لم تحصل إلا على بعض النُتف التي لا تسد رمقاً، بعد ستة أشهر جاءها خالها فؤاد بزيارة مفاجئة وقال لها بنبرة جنائزية:

– لقد دفعنا لك الأرباح التي أخذتِها من أموالنا الخاصة، لأننا والحق كما تعلمين يجب أن يقال، أننا خسرنا كل نقودك في الصفقة الأولى، ولكونك عزيزة علينا لم نبلغك بالأمر، وقررنا أن ندفع لك أرباحاً من عندنا.... لكن السوق راكدة والأحوال صعبة وعوائلنا كبيرة فلا نستطيع تحمل مسؤوليتك، لكننا سنفعل ما بوسعنا لكي نساعدك.

أخرستها المفاجأة، ولم تستطعْ أن تجيبه، شعر خالها بضيق من شدة الاحراج... كم تمنى لو تصرخ في وجهه تسبّه أو تلعنه لكنها سكتت وطال سكوتها ونزلت دموعها دمعة تتبعها دمعة على خديها وبقيت تميل برأسها يمينا وشمالا كبندول الساعة، وقف ليعتذر ولشدة احراجه قال لها:

" البقية في حياتك، عفواً قصدت "...

ووضع ظرف رسائل هزيل من المال أمامها وخرج من البيت مسرعاً، ولم تلتق بهم بعد ذلك. عندما خف وجع الصدمة، اطلقت عليهم اسم الحرامية.

(19)

لكل زاوية في بيتها الشرقي قصة، عندما تنظر اليها يهتز عقلها ليساقط ذكريات مختلفة. فباتت حبيسة تاريخها المرتبط بشجرة الجوز، بسرير أمها وبغرفة البقرة.... كانت تحدّث من يزورها عن رائحة أمها وأبيها في البيت... كانت تحدثهم عن مدى كرم والدتها بالرغم من بخلها، وعن شوقها لأبيها ذلك الانسان الذي لا يعوض... دفئه، محبته، عطفه وعطائه، وما حدث لها بعد وفاته، وكيف رفضت كل الشباب الذين طلبوا يدها للزواج لترعى أمها، وما كان من جيرانها إلا أن يؤيدوا أقوالها مقتنعين كانوا أم غير مقتنعين.

تقف في خلوتها كثيراً عند مشهد قرار عزوبيتها، عندما أوقفها رفضها وجها لوجه مع وجه العنوسة البشع، لا يوجد شيء يجرح المرأة أكثر من أن يقال لها عانس، أو كما يسميها النورستانيين "عذراء عتيقة" ولكنها تقبلت عنوستها واعتبرتها جميلة لأنها مصبوغة بثوب التضحية. مديح الناس لأثداء عطائها التي درت بالتضحيات لأجل أمها جعلها فخورة بنفسها.

كم كان يسعدها أن تخبر من لا يعرفها بأنها لا تزال عذراء، في المستشفى عندما تقدم الطبيب لفحص كسر ساقها بادرته بالقول بعد أن رفعت رأسها وهي راقدة على السرير.

– انتبه يا دكتور فأنا لا أزال فتاة.

أجابها الطبيب مستغرباً:

- لا تقلقي لن أقترب.. قاطعته:

- أنا عذراء انتبه يا دكتور..

ورقدت بعدها مرتاحة رغم وجعها...

في قعر الوادي كان فارس أحلام الفتيات لا يأتي لا على فرس أبيض ولا بسيارة فارهة. بل كان حلمهن بفارس فيه كل علامات الرجولة وكان الشاب نديم أقصى ما تتمناه أي فتاة..

كان محور حديث العذراوات الخافر. خطبها مرتين لكنها رفضت لأجل أمها وضحَّت بمستقبلها وشعرت بالزهو عندما لامتها الفتيات في القرية لأنَّ نديم شاب لا يرفض، وزارتهم أم سليمان لتتوسط وتذكرهما بندرة شباب المسيحيين القادرين على الزواج، عبثا ذهبت كل محاولاتها. كانت أمها متعلقة بها الى حد متابعة خطواتها وعد أنفاسها..... بكاء أمها السخي كان يثير كثيراً من التساؤلات. وكل من سألها عن سبب بكائها كانت تجيبهم:

"ذكرى نرسيس لا تفارقني".

والحقيقة التي كانت تخفيها.. هو تأنيب الضمير تجاه ابنتها التي طلبت منها بشكل غير مباشر أن تبقى بلا زوج خوفاً من بقائها وحيدة....كم كانت تتمنى أن ترى أحفادها يقفزون في البيت هنا وهناك ويملؤون الدار صخباً... لكنها لم تجرأ أن تسمح لها بالزواج..

في ليلة زفاف نديم لم تحضر ماما ليلى حفلة الزواج بل سمعت الطبول ودق الأرجل الراقصة على الأرض، شعرت تماما وكأن أرجلهم تدق على صدرها وفتحت بدقاتها باب الندم، لم يكن ندمها رحيما بها وشعرت بدافع جنسي قوي وتخيلت ما فقدته، تذكرت عضلاته وجسمه الجميل ووجهه الابيض المشرب بالحمرة، نظراته النارية تحت الحاجبين المعقودين، شعرت بدقات تشبه دقات القلب في أسفل بطنها. آه لو وافقت على خطبته لكانت اليوم بين احضانه، تلفها ذراعاه القويتان وتمتزج انفاسهما بانسجام... دخلت غرفتها و استلقت على سريرها وفعلت كما تفعل البنات في مثل حالها. ارتفع صوت أمها مناديا وكأنها شعرت بما يحرق جوف ابنتها. جاءت راكضة اليها بعد أن خلعت نفسها خلعا من جحيم الرغبة جاءت بخدين قد اشتعلت النار فيهما، وبمجرد وقوفها أمام أمها والتقاء النظرات مع بعضها بدأت أمها بإلقاء كلمات يسوع على مسامعها، وتنقلت بين طهارة البدن والروح ولم تنس أن تذكرها بالرجس الذي لوث نقاء الدار. بعد الموعظة الطويلة لم تجب بأي كلمة كانت مطأطئة الرأس. في نهاية الخطبة طلبت منها الاستحمام وتنظيف البيت من الرجس الذي حل به.

" يجب أن تتطهري من الرجس ".

هكذا ختمت أمها موعظتها وبقيت هذه الكلمات إسفيناً ثابتاً في رأسها يسير حياتها.

عندما تستيقظ في الصباح يكون شعورها بالرجس قد استوطنها،

فيدفعها إلى الحمام لتستحم بالماء البارد كما اعتادت " لغلاء الوقود" ثم تشعر بأن الوساخة التي كانت داخلها قد لوثت الدار فكانت تحمم الدار معها من سقفها وأرضها وأثاثها، لتجلس بعد ذلك لترتاح سواء في المطبخ أو في باحة الدار، تبحلق فجأة بالأرض ثانية ويتهيأ لها بأنّ هناك بقعة على الأرض، وقبل أن تتأكد من وجودها تكون قد وضعت مساحيق الغسيل في سطلها المعدني وهو رفيق حياتها الوفي وبدأت التنظيف من جديد. هكذا أصبح الإفراط في النظافة جزءًا من شخصيتها. كانت النسوة يشفقن عليها خصوصا في أيام الشتاء وهي تغسل البيت بالماء البارد يومياً فيعرضن عليها المساعدة، تجيبهن دائما بنفس الجواب:

"وماذا يبقى لي أنا إذن لأفعله. المرأة الصالحة يجب أن تفعل كما أفعل أنا.. تعلموا مني"...

نتيجة للضغط الذي تعرضت له والفراغ المقيت في حياتها بعد وفاة أمها، لم تعد سليطة اللسان فحسب، بل بدأت تتدخل في تفاصيل حياة جيرانها بكل صغيرة وكبيرة، كان من الطبيعي أن تنتقد أبوإسماعيل لأنها تسمع صرير باب حمامه في الصباح، كان بيتهم خلف بيتها، كانت تقف بجانب جدارهم وتسترق السمع لوقع أقدامهم وتحلل حركاتهم وسكناتهم.... فتسمح لنفسها بطرق بابهم وتطلب الحديث مع أم إسماعيل.... تأتي أم إسماعيل بشعرها المنكوش الظاهر تحت المنديل الصغير الذي عقدته على رأسها وتبادرها قائلة:

- ألا يكفيكم استحماماً.. لديكم ما يكفي من الأطفال.

- نعم.. ماذا تقصدين؟

جوابها يتسم بالتلكؤ من هذا الهجوم المباغت على حياتها الجنسية.

لم يكن صعباً أن تفهم كلماتها لكن المفاجأة من هذا التدخل السافر يجعل أم إسماعيل لا تفهم ما عنته بالضبط بكلماتها، لذلك تستمر بهزّ رأسها ويداها مفتوحتان أمامها ملوحتان، نافية الاتهام الموجه لها، تستمر ليلى بقولها:

- يعني يكفيك نوما مع زوجك، لديك ما يكفي من الأطفال.

تقول هذه الكلمات وهي تصفق راحا براح لتوضح قصدها.

- لا تظلمينا يا ماما ليلى لا يوجد شيء من هذا الذي يدور في رأسك....

تبدأ بالدفاع عن نفسها وكأنها قد ارتكبت خطيئة ما. فيحمر وجهها تارة من الخجل وتارة أخرى من الغضب، ولا ينتهي النقاش إلا بتهدئة وتطمين ماما ليلى بأنها لن تعود لتكرار ذلك. فتتنفس عندها ماما ليلى الصعداء قائلة:

- هكذا اريدك فاهمة.

وتستدير متجهة إلى بيتها ثم تلتفت وتبتسم قائلة:

- أنا حريصة على مصلحتكم.

فتودعها أم إسماعيل في رعاية الله وتغلق الباب خلفها قائلة:

"العياذ بالله من غضب الله".

أما جارتها الثانية أم محمد فيجب أن تأتي لمساعدتها بأعمال البيت وإذا

كانت مشغولة بأمر خاص و تأخرت بالحضور فمن الطبيعي أن تسمح لنفسها أن تقول لزوجها على مسمع زوجته بانَّ عليه أن يطلقها ويتزوج بامرأة أخرى وبما أنَّ الجميع يعلم ظروف حياتها، فكان كل ما تفعله ماما ليلى مغفوراً سلفا، حتى ضرب الأطفال المشاكسين كان حلالاً عليها وحراما على غيرها. كانت جارتها تنزعج تارة وتتنكد تارة أخرى، إلا أن أبومحمد لم يكن يسمح لأحد أن يغضبها. حتى في الأيام التي كانت تتشاجر فيها مع إيمان بثورة من الغضب غير المبرر والمتكرر، كان ابومحمد يطلب من ايمان ان تبادرها بالسلام... هي لم تعترف حتى أثناء نجوى النفس عن السبب الحقيقي وراء تلك الشجارات...

ليلة الخميس، ليلة ثقيلة على نفسها لذلك معظم شجاراتها تحدث في يوم الجمعة حيث اعتاد الشرق على ممارسة الحب في ليلة الخميس على الجمعة.

(20)

ليلة شتوية باردة، سماء صافية ونجوم متلألئة وقمر ظاهر فوق الجبل، عند الساعة الثانية عشرة ليلا شق صوت المفرقعات سكينة الليل، وأنوار قصمت ظهر الحلكة، وعكرت صفاء لون القمر بما تركته من دخان عالق بالفضاء.. أيقظت الأنوار وألاصوات أهل القرية وخرج الناس إلى الطرقات لاعتقادهم بأن الشمس قد أشرقت ليلاً.... خرجت القرية عن بكرة ابيها الى الشارع وتعلقت عيونهم بالسماء كيوم المحشر، لم تكن الشمس بل كانت أنواراً تشع من القصر الفخم في ظالمايا العليا فتنير السماء. ظلّت الألعاب النارية طوال الليل، وما بين الفينة والأخرى يصرخ أحدهم سابّاً صاحب الدار وإسرافه، لأن تكلفة هذه الألعاب النارية كانت كافية لتجعل أهل القرية يعيشون في بحبوحة سنة كاملة، بينما الأطفال كانوا سعداء بهذه الألعاب ولم ينظروا إلى هذا الأمر من ناحية اقتصادية، أما ماما ليلى سارت الى باب دارها شبه نائمة، ثم وقفت أمام الباب مشدوهةً بالمنظر، أهل القرية في الشوارع والسماء مشتعلة، وقفت حتى شعرت بالبرد يصلب أطرافها، عندها عادت إلى سريرها ونامت وكأنها قد شاهدت حلما. في القصر كان انطوان متوسطا جمهرة من رجال الأعمال، ومعهم الكثير من السياسيين والموظفين الكبار من كافة الاطياف يجمعهم حب المال و النفوذ. لم يختلف كثيراً عن رجال الأعمال، فقد عمل جاداً لكي يصل صيته قبل وصوله، فكان شخصاً معروفاً قبل أن تهبط الطائرة.

هكذا تم افتتاح القصر الجديد وكان محور حديث القرية في اليوم التالي.... بعد يومين جاءت سيارة لاندكروز حديثة فيها شخصان، دخلت القرية مسرعة ونثرت التراب خلفها. توقفت على باب أبي محمد وأخبراه أنَّ سيدهما طلب منهما إحضاره إلى القصر الجديد، فسألهما من يكون سيدهما. لكنهما لم يجيباه بأكثر من أنه "سيدنا صاحب قصر الجوهرة" ولكونه لم يسمع بهذا الاسم من قبل، لذلك استنتج أنه القصر الحديث.

- هل تعلمان ماذا يريد مني؟

- لا، لكنه طلبك للمثول أمامه.

كان تصرفهما رسمياً إلى درجة عالية لم يعتد عليها، وهذا ما زاد من توتره.... فكر في أنه ليس ثمة ما يخسره بزيارة القصر، فركب السيارة معهم... ولم يفارقه القلق والتوتر طول الطريق... كيف سيقابل شخصاً بهذا المركز، وماذا يريد منه؟ توقفت السيارة أمام بوابة القصر التي تعلوها قطعة فنية مصنوعة من النحاس والخشب مكتوب عليها

((قصر الجوهرة)). فتحت البوابة أوتوماتيكيا، فتعجب أبومحمد من هذا السحر، كيف يوجهون شيئاً بيدهم تجاه الباب فيسمع الباب أمرهم ويفتح نفسه "لا إله إلا الله". قالها مبتسما ثم قال لهم:

- اعتقدت أن افتح يا سمسم كانت قصة خيالية.

أجابه السائق:

- لا ليس خيالاً فالكنز أمامك.

دخلت السيارة في عالم كان بالنسبة له شيء من الخيال قبل هذا اليوم، سارت ما بين الحدائق الغناء والنافورات الموزعة في الحدائق، حتى وقفت أمام باب القصر، كان القصر يشبه مارداً قد خرج توا من أسطورة.

نزل أبومحمد من السيارة ورافقه السائق وقرع جرس الباب الرئيسي. مشى بخطوات متلكئة في باحة الدار المرصوفة بالجرانيت وعروق الذهب تتلامع فيه، والسنادين صنعت يدوياً لتكون في مكانها الصحيح. كل شيء مترع بالترف. وقف مع مرافق السائق بجانب الباب مترقباً، فُتح الباب وبرز شخص مهيب يرتدي بدلة سوداء، فسارع أبومحمد وصافحه بحرارة وبارك له قصره، فشكره الرجل بتواضع، لكنه توقف عندما سمع مرافقه يقول له:

- أوصل السيد أبا محمد إلى سيدنا.

عندما دخل إلى داخل القصر أراد أنْ ينزع حذاءَه، فقال له مدير المنزل:

لا تحتاج لذلك، تفضل معي إلى صالة الضيوف.. سيأتي سيدي لمقابلتك بعد لحظات.

جلس أبومحمد في الصالة وأمعن النظر في قطع الكريستال المُطعّم بالأحجار الكريمة، وفكر بما يريده منه صاحب هذا الجاه. فجأة فتح الباب ودخل صاحب القصر وبادره بالسلام.... شعَر أبومحمد بأن صوته قد أيقظ تاريخاً منسياً في ركن بعيد في ذاكرته.... كان يرتدي قميصاً أصفر وبنطلوناً كحلياً.. ذلك اللون الأصفر لو لبسه أي رجل في سن أنطوان من أهل القرية

لقيل عنه أنه قد " استقحب ". لكن هذه الألوان أحاطته بهالة من الهيبة.... بعد أن تبادلا بضع كلمات أيقن انطوان بأنَّ ضيفه لم يتعرف عليه. شعر بذلك التوتر المحبب لدى كل المغتربين عندما لا يتعرف عليهم أصحابهم:

- يبدو أنك لم تتذكرني؟

- الحقيقة.. ولا صغرا بكم.. بشخصكم.. لا أتذكرك.

أجابه و هو يتمعن في وجهه.

- لك الحق في ذلك.. فنحن لم نلتق منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

- إذن لي الحق أن ألا أتذكركم.. حضرتكم...

كان ارتباك ابومحمد ظاهراً من كلماته:

- أنا أنطوان، أنا أنطوان يا أبا محمد.

قالها مبتسماً بعد أن شاهد نظراته الحائرة.

شرد أبومحمد وتقطب حاجباه من شدة التركيز، وطاف فكره بكل أنطوان عرفه خلال حياته: الأول قد مات، والثاني مشلول، والثالث انتقل إلى العاصمة ثائراً على واقعه وهاجر بعدها، وهذا الأخير هو "أخو نرسيس" بالرغم من أن أخاه طلب منه البقاء وتكفل بكل مصاريفه ووعده بأن يزوجه لكنه لم يوافق، لكنه لم يسمع يوما بأنه غني بهذا الشكل وإلا لم ترك ابنة أخيه تعيش تحت خط الفقر؟ من ناحية ثانية كان انطوان يفتقر إلى الثقة بالنفس وهذا يشع بها... كان رثاثة تمشي على قدمين، وكان أصغر منه سنّاً

ولكن ليس إلى هذا الحد. فالواقف أمامه يقطر شباباً. هذا الشخص يبدوعليه أنه في منتصف الأربعينات وهادئ وواثق من نفسه على العكس تماما من أنطوان الذي يعرفه، فمِن المؤكد أنه ليس هو، فبقي السؤال مرتسما على وجهه مع ابتسامة بلهاء حائرة، قال أنطوان مؤكداً له:

- أنا أخو نرسيس.. أنطوان، أنطوان يا أبا محمد... ما بك ألا تتذكرني؟

تحركت عيناه بسرعة على جسد انطوان تتفحصه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه نزولا وصعوداً، وبقي فمه مفتوحاً من الدهشة.

- والله لا أصدّق، أنت لا تشبهه أبداً.

ضحك انطوان ملء اشداقه ثم قال له:

- أنا هو بشحمه ولحمه، أنا هو ما بك؟

وهنا لم يعد أبومحمد يعرف أيحقّ له أن يرفع التكلفة بينه وبين صديقه، أيحقّ أن يصفعه على أمّ رأسه كما كان يفعل سابقا؟ قال له:

- أين كنت يا رجل؟ لوكنت هو بين لي بدليل واحد ماذا يجب أن أفعل الآن..

أجابه أنطوان مبتسماً:

طيب... طيب، اضربني على رأسي كما كنت تفعل سابقا وخلصنا.. أنا أنطوان ما بك؟

وقهقه طويلاً، تنملت فروة رأس أبي محمد وعضلات خدّيه و تسمر لثواني ثم احتضنه وقبَّله عدة قبلات:

- والله لا أصدق عيني، لقد أصبحت شاباً أجمل مما كنت.

فضحك أنطوان وراقت له فكرة كونه شاباً..

- وأنت كذلك يا أبا محمد.

- نعم.. نعم أنت تضحك مني.. لقد فقدت أسناني وشعري، وبرز بطني، وهذه ليست علامات الشباب.

وضع انطوان يده على كتف ابومحمد ومسح على ظهره وهو يقول:

- لكن روح الشباب فيك، لا زلت أراها.

دار حديث حول ذكريات الماضي التي كانا يراها أجمل من الحاضر بكل ايجابياته لانطوان وسلبياته لأبومحمد، وطاف بحديثهما من ظالمايا إلى ضياستان، ثم عاد انطوان إلى ظالمايا وكل عائلته المتبقية فيها... ماما ليلى، فقال بدفء:

- أنا مشتاق جدا للقاء ابنة أخي، ليلى، التقيت بها في المرة الأخيرة عندما كانت طفلة، أي قبل وفاة والدها بزمن بعيد، كيف حالها؟

- هي بخير، ولا تزال تسكن البيت القديم.

قالها مطمئناً، وكأنّه يقول له إنها لا تزال على قيد الحياة، ولوأراد أنْ يقول الحقيقة لذكر له أنَّ البيت القديم بات يسكنها بكل ذكرياته.

- ألا زال البيت القديم صالحاً للسكن؟

ابتسم وقال له:

- نعم هي تسكن هناك.

وحدثه عن حياتها بكل صعوباتها وتقلباتها، أصغى انطوان لكل كلمة قالها وبقي مسيطراً على أحاسيسه وقال في النهاية:

والله لم أنسها يوماً، ولم أنسَ مواقف أخي، لكن الحياة هناك صعبة، تجعلنا ننشغل عن من نحب. نرسيس وقف بجانبي كأب وأخ وصديق، وأنا نسيت ابنته سنوات طويلة... أشعر بتأنيب الضمير لأنني لم أردّ له الجميل في ابنته. أتعلم يا أبا محمد كم أنا متألم من موقفي وأتمنى أن آخذها لتعيش عندي.... ألا تكرهني؟

فوجئ ابومحمد بهذا السؤال لصرامة واقعيته فأجابه بنبرة حاول اعطائها كل المصداقية اللازمة ليجيب على هذا السؤال الصعب:

- لا والله، هي تذكرك بخير وتحبك... وتمني نفسها بعودتك، لكنها تقول إنك قد نسيتها.

- لها حق فيما تقول، لقد تركتها زمناً طويلاً، وأتمنى أن أستطيع إصلاح ما خربته السنين.

- ستستطيع ذلك إن شاء الله.

- سأعاملها كوحيدتي كما كان نرسيس يعاملها.

شعر أنطوان بالارتياح بعد أن قبِل أبومحمد عذره عندما جعل الخطأ برقبة السنين وليس برقبته. وزفر زفرة دلت على تخلصه من ذنبه.

(21)

نادى انطوان خادمه وطلب منه تجهيز سيارته لتأخذه إلى بيت أخيه نرسيس. خرجوا معا إلى باحة الدار، كانت سيارته المرسيدس بانتظارهما وسيارتان لاندكروزر يقودها الرجال الذين استأجرهم قبل وصوله... وكأنه أراد أن يعيش بأجواء ماضيه كما يشتهيها.

وقف أبومحمد برهة ينظر إلى القصر والحدائق حوله وكأنه يعيش في أسطورة. كان مبهورا بتوزيع الأنوار التي زرعت في الأرض وبات الضوء يشكل أشكالاً بيضوية على الجدران وأنواراً أخرى وجهت على الأشجار، وارتدت سيقان الاشجار شبكات من نور... ومياه النافورات ملونة بأنوار صارخة، لم يعد يستطيع الجزم:

هل مايراه حقيقة؟ أم سيستيقظ قريبا ويجد نفسه في فراشه.

ظلَّ واقفاً حتى سمع أنطوان يناديه ويطلب منه الركوب في السيارة. توجهوا إلى ظالمايا السفلى وفي الطريق ومباشرة قبل وصولهم إلى القرية جذب انتباه أنطوان توحش الأشجار والخضرة على جانبي الشارع وقربها برك مياه قذرة، توقفت السيارة وخرج أنطوان منها وظلَّ ينظر حوله وتنقلت نظراته بين ماضيه وحاضره، رغم التحول الكبير في حياته إلا أنَّه أكَّد مقولة نجيب محفوظ عندما قال:

إنَّ ماضينا هوما نحنُّ إليه.

وحاضرنا ما نعيشه.

ومستقبلنا هو ما نصبو إليه.

شعر بحنين دافئ إلى أيام الفقر، هزَّ رأسه متحسفاً على ذلك الماضي الذي كان كريها في وقتها، والتفت إلى أبو محمد قائلا:

- لم يتغير أي شيء.. كل شيء باق على ما كان عليه.

ابتسم أبو محمد وقال له:

- نعم.. لك حق لم يتغير شيء.. نحن الذين كبرنا... إنه العمر.

نظر انطوان بتمعن في البيوت المحيطة وقال متحسفاً:

- لكن البيوت قد شاخت... وشابت ذوائبها.

سكت أبو محمد قليلاً. منظر البيوت كان محرجاً للغاية فقال موضحاً:

- لم يعد لدينا قدرة على ترميم البيوت وصبغها.. لا مطر.. لا زرع ولا دخل لنا... الناس يعيشون على البركة.

خرج أطفال القرية يركضون متجمعين حول السيارات وحولهم، هذا النوع من السيارات لم يدخلها منذ اليوم الذي هتكت فيه عندما جاء مدير شرطة المحافظة بسيارة رسمية أقل هيبة من هذه المرسيدس بكثير. أصوات السيارات وصوت الناس متجمعين قرب بابها أثار فضولها.... كانت حينها في باحة الدار مع سطلها المعدني تركت السطل ومشت إلى باب الدار وفتحته نصف فتحة ومدت رأسها لترى ما يجري. فظهر وجهها الحزين المجعد

والذي لم تخلعه منذ سنين وبانت أسنانها الصفراء من التدخين وهي تحاول أن تمعن النظر في الرجال الواقفين امامها.

عينان غير واثقتين مما تراه كعيون المجانين وأصابعها المنتفخة والمعوجة بسبب التهاب المفاصل المزمن وأصابع قدميها التي بانت عليها بروزات ناتئة بسبب المرض والتي كانت واضحة في نعلها المرتق... كانت كتمثال مستند على الباب، سترتها العتيقة فقدت لونها الأصلي فأصبح لونها حائراً، لا يعرف أصله.

تقدم أبومحمد ومعه رجل غريب الى باب دارها. بادرها أبومحمد قائلاً:

- جئت إليك بهدية.

بقيت نظراتها شاردة بين الاثنين، عمشت عيونها، قال لها أنطوان:

- أنا عمك.. أنا عمك يا ابنتي.

قالها بحرارة وارتباك.. أحرجه منظرها أكثر من الموقف، لم يكن متأكداً من ردة فعلها وهي بهذه الحالة المختلة. احرجه أن تبدو أكبر منه بكثير وشعر أن له ذنب بذلك.

ما بين صدق المشاعر وكذبها تاهت كلماتها، ارتمت عليه وقبلته. اعتصرها بين ذراعيه وقبل رأسها أما وجهها فكان بالقرب من سرته. أحسّت بدفء أنفاس أبيها على سقف رأسها، لكن عطر ملابسه جعلها تفيق.... أخيرا التقت بمن كان أفيون حياتها لسنوات، التقوا كما كان يجب أن يلتقوا قبل سنوات عديدة.. حاولت أن تستنشقه كالمدمنين لكنها لم تشعر بالمفعول

الذي توقعته. شعرت بعدم ارتياح من مشاعرها المتبلدة.... لم تنصهر فيه كما كانت قد خطّطت لهذه اللحظة. أمسك عمها بنظراتها الحائرة ونظر عميقاً في عينيها وقال:

- أنا عمّك وسأبقى عمك....

أرادت أن تقول له لقد نسيتني طويلا لكنها صمتت

تدخل أبومحمد:

- ألن تدعينا للدخول؟

أراد أن يقول لها: "ها هوأخيراً حلمك المحقق واقفاً أمامك، لقد عشت على هذا الحلم وواسيناك به عند كلّ مصائبك، وها هو عمك قد عاد". قالت لهم بحرارة:

- أنتم أهل البيت وأصحابه.

اغرورقت عيناها بدموع كاوية، لم تسمح لها بالسير على خديها، وشعرت بأن السماء قد أرسلته نجدة لها من حياة اغتصب الفقر كل مقوماتها.

دخلوا الى الدار ومشت ملتصقة به كطفل صغير، كانت عيونه تبحث عن أي أثر له، لكنه لم يجد إلا آثار من سكنوا البيت، أما بقاياه فهي فقط الذكريات المزروعة في رأسه.. شعر بعتب شجرة الجوز العتيقة. أمسك بجذعها ووقف بجانبها مطأطأ رأسه خجلا من أخيه، ثم ترحم عليه ووقف صامتا في محراب الذكريات أمام الشجرة حتى أمسك ابومحمد بكتفه مواسياً

وسارا معاً بإتجاه غرفة الضيوف ومسح انطوان زوايا عينيه ليزيح مشروع دمعتين. أجلستهما وأشعلت الشمعتين العاريتين في سقف الغرفة، ثم أسرعت الى الشبابيك تفتحها لتبديل هواء الغرفة الثقيل برائحة الاثاث العتيق.. جلست إلى جانبه في غرفة غنية بالرثاثة وتحدثوا طويلاً، شوق.. ذكريات.. أحزان دامت سنوات طويلة ثم فرحة لقائهم وفجأة قال لها مطالباً:

- أريد أن تأتي معي الآن؟

- إلى أين يا عمي؟ اليوم تبات هنا عندي؟

- إلى قصري يا حبيبتي؟ الجوهرة هو قصري.

لم تفهم ما كان يعنيه ابتسم أبومحمد وقال لها سعيدا كسعادة الطفل بهدية العيد.

إنه القصر صاحب الأنوار، القصر الكبير... أكبرهم.

أخرستها المفاجأة شعرت بأن سؤرها يخنقها، هل عمها صاحب القصر؟ الذي صرف الآلاف المؤلفة على الألعاب النارية. الذي شتمه معظم أهالي القرية بسببها قبل أن يعرفوه... وتذكرت أنها هي أيضاً قد شتمته ونعتته في سرها بأبشع النعوت. أرادت أن تعاتبه على عدم حضوره إليها مباشرة وقبل أن تنطق بكلمة.. قال عمّها الذي علم ما كانت تريد قوله:

- لقد وصلت ليلاً واحتفلوا بوصولي وسهرنا فتعبت كثيراً وأردت أن أرتاح يوما لكي آتي إليك بكل قواي... الآن هيا معي إلى القصر.

بقي ينتظر جوابها طويلا حتى قالت له:

- سوف آتي إليك بعد غد لأنَّك ستتناول العشاء عندي غداً.

تمنع عمها أولاً لكنه رضخ لمطلبها بعد أن أحرجاه وقالا له أن موقفه يعني أنهم ليسوا أهلا لضيافته، فوافق على طلبهم.

خرج وخرجت معه مزهوة وأرادت أن يشاهدوها بصحبته.. كانت فخورة به لوحت له طويلا حتى بعد أن اختفى عن عينيها، وأجابت على أسئلة معظم الواقفين وجاءت الجارات يسعين إليها سعياً متشوقات لسماع تفاصيل هذه السابقة، وروت لهم قصة عمها المهاجر وكلما سألتها إحداهن عن الزائر تقول:

"لقد عاد عمي صاحب الجوهرة".

فجأة تذكرت الوليمة التي ستعدها لعمها، فأرسلت زيد ليستدعي أبوسليمان إليها. جاء إليها في الليل متعبا ومنهكا.. كان يدور في فلك المصلحين الذين لا يتوقفون عن استنزاف جهده وماله.. أدخلته إلى الدار وطلبت منه الجلوس وقبل أن يجلس في مكانه قالت له:

- أريد نصيبي من السيارة اليوم.. غدا سأدعو عمي.

لم يفهم الرجل كلامها، أولاً لأنها لو قتلته لكان أهون عليه من هذا الطلب، وثانياً لأنه نظيف الجيب تماماً، فتح يديه الخاويتان معلناً إفلاسه وقال مغتاظاً:

- ليس لدي مال أعطيك إياه الآن.

- بل ستعطيني حصتي اليوم والآن.

قالتها بطريقة من قد حسم أمره.... بعد نقاش ليس بالطويل علت أصواتهم في شجار عقيم جاء أبومحمد على أثره من بيته ليحلّ الإشكال... شرح موقف ماما ليلى لأبوسليمان ثم سأله عن موعد تجهيز المال. تم الاتفاق أخيراً على أن يدفع أبومحمد لها وأبوسليمان يسدد المبلغ بعد عشرة أيام.... لم يكن أبومحمد ذا سعة من المال ولكن طمعا بموقف سيسجله على صديقه القديم، كان تفكيره يدور حول زراعة أرضه كلها التي تاقت روحه لزراعتها من جديد.

في اليوم التالي داست قدما العجوز معظم الأماكن التي كانت تتوق للذهاب إليها منذ زمن بعيد، القصاب، ركوب سيارة الأجرة والذهاب الى سوق ظالمايا العليا، أما الخضروات والفاكهة فكانت تعلم من أي حقل يمكن أن تشتريها، وهكذا صرفت في ذلك اليوم تقريبا كل ما تملكه.

استقبلها أبوعلي القصاب بحفاوة. بالرغم من أنه لم يتوقع أن تشتري منه اللحم، لأن الأغنياء مصابون بداء الملوك والفقراء مصابون بداء الإفلاس... عندما وقفت أمام محله بادرته بابتسامة أشرقت على وجهها وقالت.

- كيف حالك يا أبوعلي؟

قالتها بفرحة الفقراء عندما يهبط عليهم كنز من السماء. رد عليها السلام بحرارة وسأل عن حالها، ثم سألها عن طلبها فقالت له بابتسامة أعرض من الاولى:

- أريد فخذا وكتفين وخمسة كيلوات من اللحم المفروم... وثلاث كيلوات لحم بقر.

ضحك أبوعلي مجاملاً لمزاحها، ووقف منتظراً أن تنتهي من المزاح... وعيناه تسألانها عن طلبها الحقيقي.. كان متأكداً من أنها ستشتري لكنه لم يكن متأكداً من عدد الغرامات التي ستطلبها.

- ما هي طلباتك يا ماما ليلى...

قالها جادا وهو يشحذ سكينه.

- لقد قلت لك ما أريد.

سكت وهويقرأ وجهها.. أجنون ما يسمعه أم جنون ثم سألها ملاطفاً.

- هل وجدت كنزاً.

- لا... لقد عاد عمي ألم تسمع؟

- لا والله كما تعلمين أنا أنام مبكرا واستيقظت مبكرا ولم ألتقِ بأحد. بدأ يشحذ سكينته بهمة بالمبرد وبدأ يقص اللحم وأعطاها ما تريد ووعدها بأن يجلب لها الباقي لاحقا من محل القصابة في ظالمايا العليا... وقال مبتسماً "خليها على حسابي هذه المرة".

لم يصدق عينيه عندما رآها تخرج النقود وتدفع المبلغ بالكامل نقداً... أرسل ابنه لجلب باقي طلبها على وجه السرعة من ظالمايا العليا وإيصاله إلى بيتها.

شكرته ودعته للقاء عمها مساءا مشت خطوات ثم التفتت اليه قائلة بفخر وهدوء:

- كما تعرف عمي أنطوان هو صاحب القصر الكبير.. "الجوهرة". كلماتها أخرست الرجل إلا أنه استطاع أن يتمتم.

- شكرا شكرا... سآتي لي الشرف بالسلام عليه....

قامت أم محمد بتحضير المائدة معها وساهم الجيران والمعارف بتقديم وجبات من الطعام كانوا قد حلموا لسنوات بطهيها في بيوتهم والكل يقول للعجوز هو ضيفنا.

لكن هل سينفع الندم النادمين؟

(22)

حاول أبومحمد التستر على أمر الدعوة لكن أمراً كهذا لا يمكن إخفاؤه في القرية.... عند الساعة الحادية عشر صباحاً كانت كل صفائح الدهن القديمة مشغولة بضيوفه، وكثير من الضيوف لم يجدوا مكاناً فبقوا واقفين، الكبار يسألون وأبومحمد يجيبهم عن ما وجده داخل قصر الجوهرة، ارتسمت نظرات الدهشة على وجوه الكبار والصغار الذين كانوا يصغون بشغف لوصف ذلك العالم المخملي الذي أخذهم ابو محمد اليه، عالم لم يدخلوه ولا حتى في خيالهم. خيالهم يعرف جمال الشمس على زهور الوادي ويعرفون كذلك جمال شقائق النعمان وحمرتها القانية مختلطة بزهور الشوفان البري الصفراء لكنهم لا يعرفون كيف يشع النور من الأرض وكيف تلبس سيقان الأشجار حلة من نور.

أبوعلي القصاب كان جالساً على إحدى الصفائح وردفاه يحتضنان الصفيحة وكأنها جزء لا يتجزأ منها.... ترك المحل لأطفاله، حادثة لم يسبق حدوثها في تاريخ حياته العملية.

أبوسليمان لم يذهب إلى العمل بحجة عطل السيارة. أبوعلي كان يفكّر لو ساعده أنطوان بثمن سجادة واحدة من سجاد قصره التي وصفها لهم أبومحمد، لتمكن من شراء محل القصاب الذي سيباع في ظالمايا العليا، وهكذا يحقق حلمه بلقاء زبائن يشترون اللحم بالكيلوات وليس

بالغرامات. لم يشرد أبوسليمان بتفكيره بعيدا، فثمن عدة إطلاقات من الألعاب النارية وجدها كافية لشراء محرك جديد لسيارته. كانت أحلامهم واقفة على باب التحقيق، إنه مليارديرٍ مجرد رغبته ستحقق أحلامهم فراهنوا على وفائه تجاههم بالثمين الثمين.

معظمهم فكّر بالأولوية من سيكون الشخص الأول الذي سيساعده المليارديرٍ بعد ابنة أخيه؟ بالتأكيد سيكون من ساعد ابنة أخيه.

نبشوا في زوايا ذاكرتهم، أبوعلي تذكر كيف اشترى سماره منها بالرغم من أنه كان يعلم بأنها مريضة وميتة، وكيف أرسل لها لحما طريّاٍ هدية من عنده، وبذلك المبلغ الذي استثمرته عاشت كل هذه الفترة... وتكلم عن معروفه تجاهها بالتفاصيل على مسمع الجميع. هزّ أبومحمد رأسه، وعندها شعر الحاضرون بأنَّ أبوعلي سيفوز بالهدية الأولى. هذا الحديث ايقظ الغافلين (يوم الأحلام قد جاء فحلموا)، وذكَّر كلام ابوعلي أبوسليمان بأنه هو من كان يأتي لها بالدخل كاملا ولو شاركت أي شخص آخر لسرق نقودها.

تمنى ميسر لوكانت معرفته بها أفضل، فهو يتجنب السلام عليها وهي لا تزال تتشائم عندما تراه منذ يوم ذبح سمارة.

عندها أسقط بيد أحد الجيران الذي يسكن بعيدا عنها حيث إنَّ علاقاته بها لم تزد عن السلام عليها مرة أو مرتين بالصدفة التي تمنى لوأنها قد تكررت يوميا، حيث كان يلتقي بها صباحا وهي تنظف الباحة الترابية أمام البيت

ليس لحاجة الباحة للتنظيف ولكن تلبية لحاجتها الإنسانية لكي تتحدث مع المارين بالشارع أمامها ولتمارس انسانيتها بالتواصل الاجتماعي، لذلك كانت عندما تنكب لكنس الأرض تبقى نظراتها على الطريق بحثاً عن شخص تستوقفه وتبادله الحديث.

في بعض هذه الأيام التي وافاه الحظّ فيها تمكن من تبادل السلام معها، وحاول التهرب منها لأنها كانت لا تتوقف عن الحديث... الآن لا يفيد الندم... لكن فكرةً طرقت رأسه ونفذها بصوت جهوري موجهاً كلامه للجميع:

" أحق إنسان برد الجميل هو أبومحمد جارها الذي ساعدها هو و زوجته وأطفاله ساعدوها في السراء والضراء، فيجب على أنطوان أن يرد الجميل لهم أولاً".

سعادة أبومحمد بهذا الحديث جعل بهجته واضحة المعالم من قبل الجميع فعدل ياقة سترته وشكره ثم قال بتعفف:

" نحن أهلها، ولسنا بحاجة لرد الجميل، فهذا واجبنا".

رغم هذه الكلمات إلا أنَّ سروره كان جليّاً.

الكل شعر بشيطنة هذا الشخص وذكائه، فأيدوا رأيه الواحد تلو الآخر.

هذا الجار لم يترك هذه الفرصة تذهب سدى فتوجّه إلى أبومحمد وهمس في أذنه قائلاً:

" سوف أذهب لكي أستبدل ملابسي وأعود وعندها نتحدث بالأمر".

شعر الحاضرون بأنَّ ما تحدثوا عنه له علاقة بالنقود.... شعر أبوسليمان بالأسى لأنه لم يتكلم مع أبومحمد بالموضوع أولاً، كان يفكر بأن يحدثه على إنفراد، وكأن الكعكة لمن سبق بوصف حبه للكعك... وشعر أبوعلي بأن محل القصابة بدأ يختفي من صورة مستقبله أمام جشع هؤلاء الناس.

تنخع مرتين بصوت عالٍ قبل أنْ يتكلم:

- أهلا بالسادة، نحن لنا مطالبنا أيضاً.

سكت الجميع وانتبهوا لكلماته فشعر بالحرج لكنه أكمل قوله..

- هوابن قريتنا.. كل ما نحتاجه لن يكلفه سوى القليل.

اعتدل أبومحمد في جلسته وكأنه أراد أن يعلم الجميع بأن عليهم أن يسمعوا ما سيقوله لأهميته وبعد أن تنحنح قال لهم:

- أنطوان لن ينسانا أبدا، ولو نسينا فلن ينسى ابنة أخيه ولوأكرمها كما أتوقع أنه سيفعل فسيكون كرمه كافياً لكي يغطي نفقات القرية لسنوات وسنوات، لكنه وصل البارحة.. تريثوا قليلاً .

إطمئنوا لكلمات أبومحمد الواعدة والذي كان يتمنى من أعماقه أن يساعد أنطوان كل أهالي القرية، وكان شبه واثق من أنه سيفعل ذلك، فمجيئه يشبه مجيء المطر بعد التصحر كان يتمنى أنْ يشمَّ رائحة التراب يرويه المطر.

ذهبوا بأجسادهم من مجلسه لكن عقولهم وأرواحهم بقيت هناك تأبى مفارقته مستعجلين العودة إليه... أما في بيت ماما ليلى فكان كل شيء نظيفاً

مسلوخ الجلد من الحكّ والفرك، لم تسلم حتى حواف الأبواب العليا ولا زوايا الغرف من فرشة تنظيفها القاسية.

أم محمد وبعض الجارات كنَّ عندها منذ الصباح وكنَّ يعملْن بجد و مثابرة، عند الساعة الثانية عشرة ظهراً طرق الباب وجاءت إحدى الجارات كقطرة ثم انهمرت الثانية والثالثة والرابعة حتى بدأ البيت يعج بهن... حتى في يوم وفاة والدها لم يحضر هذا العدد من النساء لعزاء أمها، بينما أحاط الأطفال بمجلس أبومحمد تارة و أمام بيتها تارة ناشرين سعادتهم في أرجاء المكان بفوضوية عارمة.

العصبية والتوتر الغير مبررين أصبح سمة من سماتها، بدأت بعد وفاة أمها ومعاناتها مع اللصوص الثلاثة، وتفاقمت بعد مشاركة أبوسليمان. عصبيتها كانت حادة كشفرة الحلاقة لا ترحم أي زلة، ولم تكلف نفسها يوما بإخفاء عصبيتها.... صرخت فجأة بالنساء أن يخرجن ويضعن أحذيتهن القذرة خارج الدار. لم تتأخر أيا منهن، خرجن راكضات وحاملات احذيتهن الى الخارج، كثير منهنّ شكرنها وأشدنَ بنظافة بيتها الذي يشبه مرقد الشيخ في ظالمايا السفلى. عندما سمعت أن بيتها يشبه المرقد. هدأت ثورتها فجأة وشكرتهن على الحضور، وتكرمت عليهم قائلة بلطف:

- طيب، اجلبوا أحذيتكم وضعوها بجانب المطبخ..

أجابوها بصوت واحد.

- كما تشائين يا ماما ليلى..

كأنهن تلميذات مطيعات يجبن بصوت واحد على تحية معلمتهن.

كانوا قد حفظوا العجوز عن ظهر قلب لذلك لم يشعروا بالإهانة من كلماتها القاسية. غبطة غشيتهم بالحدث الغير اعتيادي في عالمهم الروتيني، حتى لوقامت بشتمهن وطردهن كعادتها لما خرجن منه في هذا اليوم، ليس حبّاً بماما ليلى، وليس حبا بالطعام ولكن أزواجهن الذين رجعوا من مضيف أبومحمد طلبوا منهن أنْ يهرعن إلى بيت ماما ليلى لمدّ يد العون، ولم يحتاجوا أنْ يوضحوا لهن، فكل شيء مفهوم ضمنياً.

أما أبومحسن صاحب الخمسين عاماً فكانت له فكرة شيطانية دخل إلى بيته وأمسك بدجاجته الوحيدة ومصدر قوته، حملها وتوجّه بها إلى السوق، باعها بدون تردد رغم معارضتها ومحاولاتها التصفيق بجناحيها محذرة إياه من مغبة عمله.... باعها واشترى بدلها سندانين من الزهور أخذهما الى بيته ووضعهما في مكان ضليل.. ذهب إلى خزانة الملابس، سمع صوت صرير مفاصل الخزانة وكانت بدلته آخر المعلقات.. أخرجها محاولاً إعادة الروح فيها ضربها على ظهرها تناثر الغبار منها، كان يعلم أنه لم يبق من عمر بدلته إلا القليل، لكن المهم أنها ستفي بغرض هذا اليوم.... لم يخرج من داره حتى وقت متأخر، تعمد ذلك لكي يفوت الفرصة على الآخرين، قطع الزهور من السندانين فكانت له باقة ورد كبيرة.... تأنق الرجال ولبسوا أفضل ما لديهم وجلسوا في مضيف أبومحمد بانتظار الضيف الذي كان من المتوقع وصوله عند الرابعة عصراً. عند الرابعة إلا ربعاً وصل أبومحسن مرتدياً بدلته وباقة زهوره كانت مخمرة طول الطريق لكي لا يتسنى لأحد تقليده، أسقط في يد

الجميع، تمنَّوا لوكان بيدهم باقة ورد بحجم باقته أو أكبر منها. نظرات الرجال كانت مقروءة.

لم يخف أبوعلي رأيه، فبمجرد وقوفه بجانبه وشم رائحة الصابون تفوح منه قال له:

- يا لك من شيطان عجوز... أهلاً

أكمل ابومحسن جملته وأجابه باقتضاب "بالسادة.. شكراً" ولم يزد على ذلك.... شعر كل الحاضرين بأن ابومحسن قد عمل الصواب.... لكن لم يجرأ أي منهم أن يترك مكانه ليجلب الزهور عدا الولد مساعد ابن أبومساعد كان قزما ولم يكن لديه لا ورد ولا ملابس جميلة، وكان يعلم بأنه ليس لديه فرصة كبيرة برؤية أنطوان من بين الناس، ولن يلاحظه أنطوان أيضاً؛ لأنه سيكون ضائعاً بين الأقدام، فصرخ فقط ليجلب الانتباه، لأنه لو وقف وتحدث فلن يثير وقوفه فضول أحد لا فرق بين وقوفه وجلوسه. نهض وأمرهم قبل مغادرته:

- لوسأل عني فأنا ذاهب لأجلب له وردة.

ضحك الجميع وطمأنوه قائلين.

- اذهب ولا تقلق..

رفع دشداشته وركض بحركة إهليليجية بسبب تقوس قدميه القصيرتين اللتين تشبهان هلالين متقابلين.... لم يكن لديه القدرة على شراء باقة ورد ولكنه عاد وبيده وردة حصل عليها من صديق له، لديهم زهرة جوري

متسلق على سياجهم، تحب أمه ذلك النبات أكثر من ابنها... دفع ثمنها توسلات كثيرة فخاطر صديقه بقطف احدى الزهرات، التي تعرف أمه عددها بالضبط.

وصل توتر ماما ليلى قرب وصول عمها مداه، سجنت كل النساء في المطبخ حتى لا يتسخ المنزل بجواريبهن وأقدامهن القذرة، أما هي فبقيت تمشي كضابط مهتم بالاستعراض العسكري الذي سيقام بعد قليل، كانت ترتدي فستانا قد خاطته لها أمها أخضر داكن مع ورود خضراء فاتحه و بيضاء، يصل تحت الركبة وكان اعوجاج قدميها واضحا، وقسمت شعرها على سقف رأسها بعناية مهندس وأرسلت جديلتين متشابهتين كجدائل طالبات المدارس على كلّ جنب... قلقها جعلها ما أن تصل إلى الباب الخارجي حتى تعود إلى المطبخ لتقول لهن.

لا أعلم لماذا تأخر... لا تخرجن من المطبخ.

كانت النساء مهتمات بطمأنتها.

سيأتي لا تقلقي... وتجيب امرأة أخرى

- الغائب عذره معه.

فتجيبهن بلهجة آمرة:

- طيب طيب، ابقوا في داخل المطبخ ولا تخرجن... مفهوم.

- طبعا مفهوم... مفهوم.

تهامسن وتبادلن ضحكات مكبوتة حاولن اخفائها على العجوز لأنها لو سمعتها فستخرس صاحبتها بكلمة لاذعة.

أخيرا نفد صبرها وخرجت إلى الباب الخارجي لتنظر إلى الشارع ولتتأكد من نظافته، لأنها كانت قد أوصت أبومحمد بتنظيف المنطقة كلها لكنه نسي الأمر، فنادت عليه بأعلى صوتها ولم تقل أكثر من:

"التنظيف يا أبومحمد، التنظيف... هل نسيت ما أوصيتك به؟

نهضوا جميعا وكأن ما قالته كان أمراً عسكرياً.

من كان بيته قريباً ركض وجاء بمكنسته، ومن كان بيته بعيداً طلب منها مكنسة لينفذ لها ما تريد.. دقائق وصدحت أصوات المكانس في الحي، وعلا الغبار فوق الرؤوس... بعد عشر دقائق لم يبق رجل من الرجال نظيفاً... باتت وجوههم كملابسهم معفرة تماماً بالتراب، ودفع الفضلات في الساقية أنتج رائحة تفسخ طازج كانت ألعن من رائحة الفطيسة. في تلك اللحظة بالضبط وصلت المرسيدس البيضاء كملاك في عالم ترابي. نظر الرجال تجاهها معمشين بعيونهم حتى غنت مآقيهم طلع البدر علينا.

واصطفَّوا باحترام على جانب الطريق من جهة دار ماما ليلى وعندما اقتربت السيارة من الدار نزل الناس إلى الطريق لكي يفتحوا له باب السيارة، رغب كثير منهم أنْ لا يتمكّن أبومحسن من تقديم باقته، ومنهم من دفعه عمداً لكي تقع باقته، ومنهم من حاول إعثاره... واعتبروا خبثهم حقاً مشروعاً..... تدافع الناس إلى منتصف الطريق، وحاول السائق تجنبهم

فنزلت عجلات السيارة في ساقية الفضلات وعلا صراخ الأهالي:

- لا تقلق يا سيدي قضية بسيطة.

كان أنطوان جالساً في سيارته يتكلم بالتلفون مع ابنه، جاء أبوسليمان وطرق شباك السيارة حيث يجلس أنطوان وسلم عليه قائلاً:

- ليحرسك الرب.

إلا أنَّ أنطوان هزَّ له برأسه لأنه كان مشغولاً بالحديث. بدأ ابوسليمان بنزع ملابسه ونزل في ساقية الفضلات إلى ركبته... غاصت قدماه في الفضلات المتفسخة والتي لها ملمس الضفادع الذي يثير غثيانا أزداد مع كل خطوة من خطواته وتحركت تلك الاشياء اللزجة بين أصابع قدميه فاقشعر بدنه. كان يعلم علم اليقين بأنَّ ما يقوم به ليس له أي فائدة، ولكنه أراد أن يشاهده أنطوان ويثمّن تضحيته. حاول رفع السيارة من الأسفل ودفعها الناس من كل أطرافها وكانت العجلة في داخل الساقية تقذف القذارات في وجهه. رغم تعاسة الموقف كان سعيداً بأنَّ أنطوان سيراه على هذا الحال وسيكرمه على جهده. خرجت السيارة بعد أن لامست عجلاتها الأرض، وتعثر أبوسليمان بالخروج فوصل أنطوان إلى بيت ماما ليلى بدون أن يرى حجم تضحية أبوسليمان الذي نقش جسده بكل أنواع القاذورات، دخل البيت بصحبة الضيوف و وقف أولاد أبومحمد على باب الدار. مشى كعريس يحيط به الرجال تلاحقه هلاهل النساء وأهازيج الرجال وخرجت ماما ليلى باستقباله وقبلته وكانت رائحة الخراء المنثور في كل مكان نتيجة

حركة العجلة داخل الفضلات في الساقية قد فعلت فعلها. جلس أنطوان وشعر ببعض الغثيان نتيجة الرائحة، كانت النساء تتساءل فيما لوكان لديه أولاد غير متزوجين، لكنهم لم يجرؤوا على سؤال ماما ليلى، لذلك دفعت الفتيات لتقديم الماء الواحدة بعد الأخرى حتى شعر بأنه سيبول على نفسه لكثرة ما شربه من الماء. نهض أبومحسن حاملاً باقته وقدمها له بإجلال وشكره انطوان بحرارة أثلجت قلبه ووضع الباقة بجانبه.

على حافة الطريق، وقف أبوسليمان ينظر الى نفسه بعد أن ابتعد الجميع عنه مرافقين ضيفهم، حائراً بعد أن بقي وحيداً بملابسه المتسخة، أسرع إلى داره واستبدل ملابسه وغسل جسمه بالماء البارد، لم يكن لديه متسع من الوقت ليسخن الماء وعاد بسرعة ودخل دار ماما ليلى بينما كان الكثير من الرجال والأطفال متجمهرين خارج البيت. بادر أبوسليمان بالسلام عليه وقدّمه أبومحمد بحرارة مشيراً اليه بيده قائلاً:

– أبوسليمان صاحب التاكسي وشريك ماما ليلى.

أمسك انطوان بيده وهزَّها بحرارة مرحباً:

– أهلاً.. أهلاً.. أبوسليمان.

أجابه ابوسليمان بتواضع:

– أهلا بك... والرب يحميك و يرعاك...

أعلمه أنه ابن ملّته، لكنه شعر أنه ربما لم يعرف أنه هو الذي غاص في الساقية وضحى بملابسه من أجل إخراج سيارته. بدأ بشرح سبب تأخره:

- آسف تأخرت قليلاً لأنني...

قاطعه انطوان قائلاً:

- لا يوجد داع للأسف.. المهم التقيت بك وتعرفت عليك.

سكت على مضض.. اللعنة لن يتذكر صنيعه. جلس بجانب أبومحسن. فقال له أبومحسن هامساً:

- لماذا نزلت في المكان العميق من الساقية... لقد كانت الحفرة؟ فأجابه سائلاً:

- هل شاهدت الحفرة؟

- نعم شاهدتها....

هزّ أبوسليمان رأسه وقال:

- عليك اللعنة أنا لم أشاهدها... بعيد عنك عميت.

وابتسموا لبعضهم.

كان غثيان أنطوان يزداد شيئاً فشيئاً حتى أنّه توعك واصفر لونه، بحيث لم يعد يستوعب من الحديث شيئاً، من هوالذي شارك ماما ليلى؟ ومن اشترى سمارة؟. لكنه رغم ذلك تذكر بعض الوجوه من أيام طفولته. حدثهم عن ما أحبوا سماعه عن حياته في بلاد الغربة وعمله. انبهروا به حتى بات لا يسمع شيئاً إلا صوته، حتى أنفاسهم حبست لكي لا تشوش على صوته. حدثهم عن وفائِه لأهل بلده ووقوفه بجانب كلّ مغترب منهم.

كلمات جعلتهم قادرين على الأمل من جديد... وتوج كلامه بالمفيد.

" أنتم كذلك لم أنسَكم ولن أنساكم. أنتم بكل بساطة أهلي وناسي".

أراد أن يؤكد لهم بأنه لن ينسَ أحداً منهم فالتفت حوله وسأل:

- لا أرى ياسين الحلاق؟

أجابه أبومحمد مثمناً سؤاله.

- إنه في مهمة في قرية ثانية.

- ألا زال يطهر الأطفال؟ ولا زالت حفلات الطهور جميلة كما كانت؟.

أجابه ابومحمد بابتهاج:

- ألا تزال تذكر تلك الايام؟ بالنسبة للطهور فهذه عادة وفرض ديني لن يُترك، أما الحفلات فقد أخذها الجدب معه.

كان الجميع يتهامسون.. لم ينسَنا.. صادق بكلامه ألا ترون أنه يتذكر ياسين الحلاق ويستفقده.

(23)

ككل الفقراء عندما يزورهم شخص أعلى منهم شأناً يغطون فقرهم بحفاوة غنية بابتسامات مبالغٍ فيها تصل حد السخافة و سيل من المجاملات لا ينقطع، قريب جداً من التَّملق.... كان هبوط رجل من عالم الترف إلى عالم السقم في نظرهم معجزة. كلماته، ابتسامته، نظرته، كلّ شيء فيه معجزة.. خلال ساعات أصبح حديث أهالي القرية من الكبار والصغار.... كان في حديثه وحي من السحر.... كانت كلماته تتنزل عليهم من عوالم لم يسمعوا عنها. عالم يهزأ من عوالم ألف ليلة وليلة. أكّد لهم في جلسة واحدة أنَّ تراثهم عدم وأن أبوماجد لم يولد يوماً، وأنَّ حياتهم لا تعتبر حياة وعليهم أن يغيروا أفكارهم.

لم يعارضه أحد بل على العكس باركوا مصادرة الأساطير التي عاشوا معها، و نبذوا الملاحم التي تغنوا بها هم وآباؤهم الأولون.. لم يفعلوا معه كما فعلوا مع الجيل الأول من المهاجرين عندما استصغروا أبوماجد الحطاب.... أبهجهم أنه قد ولد أبوماجد حقيقي في حياتهم و في خضم هذا البحر الهائج بموجات النشوة والفرح رنَّ تلفونه النقال وعكرت رنات التلفون حالة ابتهالهم، اندهش الحاضرون وهم يشاهدونه يتحدث " باللاسلكي "وهذا فقط ملك للجيش والدولة. لم يكونوا قد سمعوا بهذا الاختراع من قبل موبايل ثريا لأن شبكة الموبايل لا تغطي بلادهم.

المحادثة كانت مع ابنه، نبرة صوته احتدت وتكلم عن مطاعمه، وفهموا بأنَّ هناك ستة مطاعم قد أغلقت في ذلك اليوم ومطعمان في اليوم السابق، وقال لابنه إدوارد بإنفعال شديد: "هذه مؤامرة الأمر ليس طبيعياً "..... مواصلة الحديث معهم في ذلك القيظ مع طنين الذباب الذي لم يفارق وجهه ضايقه بإلحاح، وتذكر بأن هذا الذباب سيشاركه طعامه. اصفرَّ وجهه وبات على وشك التقيؤ، فطلب منهم أن يعفوه من تناول العشاء وطلب من أبومحمد أن يرافق ابنة أخيه إلى القصر في اليوم التالي، وقال لهم أنَّ سيارته ستكون عند بابهم عند الساعة العاشرة صباحاً.

رغم التوسلات التي انهالت عليه ليبقى على العشاء، إلا أنه نهض ونهض الجميع معه ورافقوه إلى الباب. عندما فتح الباب تجمع الأطفال حوله، وكان بينهم طفل يرتدي دشداشة بالية وفيها عدد لا يحصى من الرقع.. نظر إلى أنطوان وابتسم، كان مخاطه واضحاً على شفته. لا يعلم أحد لماذا جذب هذا الطفل انتباه أنطوان فسأله ما اسمك؟

أجابه بجرأة وفخر أسعدَت انطوان:

- أنا اسمي ياسين زياد ياسين.

كان أبومحمد واقفاً خلفه فقال له:

- هذا حفيد ياسين الحلاق.

ابتسم الطفل لشعوره بالفخر لأنَّ هذا الرجل الفاخر يعرف جدّه.

- كيف هوحال جدك؟ بلغه سلامي.

أجابه الطفل خجلاً:

- سوف أفعل.

مشى باتجاه السيارة فأوقفه مساعد و قدم له زهرته فشكره و صافحه بحرارة و أكمل طريقه باتجاه السيارة توقف عند باب السيارة و عاد إلى الطفل ياسين وأعطاه مئة دولار.. كانت الورقة التي شاهدوها بيد الطفل كافية لتضع عيونهم وعقلهم في كفّه... ووقفوا بكل احترام ملوحين بايديهم، وانحنى أبومحمد عند شباك سيارته وكرّر التحية بيده عدة مرات ورفع صوته:

- الله معك... وردد الجميع خلفه السلام وكرروه لعدة مرات.

سارت السيارة وركض الأطفال خلفها مبتهجين بها.... بعد ذلك انتبه أبومحسن أنَّ أنطوان لم يأخذ الباقة معه... كان منظرها طعنة ندم، شبك اصابعه ببعضها حتى كاد أن يسحقهم.. هل ضاعت الدجاجة سدى؟ بينما زهرة مساعد أدخلها في جيب سترته و أخذها معه.. ندب حظه طويلا في تلك الليلة.

لكن ما حدث لم يسرق منهم متعة الطعام، عادوا وأكلوا بشهية عالية.

لم يغمض جفن أبومحمد ولا جفن جارته. كانوا منهمكين يفكرون فيما سيرتدونه في اليوم التالي، والكثير من أهل القرية أصيبوا بالأرق بسبب

تفكيرهم بالمبلغ التي أعطاه للطفل... إذا كان هذا المبلغ الفخم قد أعطي لطفل فكم سيعطي الرجال إذن؟

عند الساعة التاسعة كان أبوسليمان وأبومحسن ومعهم أبوعلي واقفين على باب أبومحمد: بعد سلام حميمي طويل مهد للزيارة الغير المتوقعة... ابلغوه برغبتهم الملحة بدعوة انطوان في بيوتهم وتشاجروا فيما بينهم حول الزيارة الاولى حاول ابومحمد أن يثنيهم عن رأيهم إلا أنهم أنهم كانوا مصرين.

ووعدوا ابومحمد أنهم سيفعلون ما بوسعهم لكي يرفعوا رأسه أمام صديقه.

فقال لهم ابومحمد وهويرفع يديه ليوقفهم عن النقاش:

"سأدعوه بأسمائكم وهو سيحدد عند من ستكون الدعوة الأولى ".

كان حلاً مرضياً لكل الأطراف، وودعوه ونظراتهم المتوسلة بقيت معلقة بعيون أبومحمد. بعد عدة خطوات التفت ابوسليمان عائدا اليه وطلب منه برجاء:

"صِف له حالنا، أنت تعرفه جيدا".

هز ابومحمد رأسه موافقا، وأجابه مطمئنا " لا تقلق".

عند العاشرة صباحا كانت سيارته على باب الدار فخرج أبومحمد مرتدياً أجمل ما لديه: عباءة جده فوق ملابسه، طرق باب جارته وسار بجانبها إلى السيارة قام السائق بفتح باب السيارة لها وأغلقه بعد أن جلست وجلس

أبومحمد في الجانب الآخر من المقعد الخلفي. جلس المرافق في المقعد الأمامي بجانب السائق حياهم السائق بكل احترام.

نظرت هي من نافذة السيارة وحيَّت الناس كملكة قد توجت حديثاً وعندما فُتِح باب القصر لهما شعرت بزهو المنتصرين، نظرت عندها إلى أبومحمد وقالت "إنه قصر عمي".

(24)

استقبلها عمّها عند مدخل القصر إمعاناً بالحفاوة بها، وتفرغ كليا لهما وقضى نهاره معهما. عيونهما نهمت من البذخ والترف، كانوا مشدوهين مما يشاهدونه، أكلوا على مائدة طويلة فرشت بالكثير من الطيبات التي وزعت بتنسيق عال.

قال ابومحمد وهو منبهر من طول المائدة "لماذا كل هذه التكلفة" كان الطعام الموجود على المائدة كافيا لإطعام عدد كبير من أهل القرية. أجابه انطوان:

"لقد انتظرت هذه الساعة طويلا"

على الغذاء تذكر أبومحمد دعوة أصدقائه فقال له:

- إنَّ أهلك في القرية يتمنَّون أن تزورهم وقد دعيت إلى مأدبة عند أبومحسن وأخرى عند أبوعلي والثالثة عند أبوسليمان... وستشرفني بقبول دعوتي طبعاً قبل دعوتهم، وأنت ستحدد عند من ستكون الزيارة الأولى، ولكن قبل كل شيء ستزورني ثم بعد ذلك تزور الآخرين.

أجابه بغبطة:

- لِمَ لا إنّهم أهلي. أما أنت فسألتقي بك كل يوم ولا حاجة لدعوتي عندك.

رده بابتسامة وقال له جازماً:

– رغم ذلك سأحضر مأدبة تليق بك.. لقد انتظرنا هذه الساعة طويلاً.

أبتسم انطوان وتسارعت كلماته:

– لك ذلك يا صديقي، لك ذلك...

سأله أبومحمد مستوضحاً:

– من ستزور بعدي؟....

– هذه أتركها لك فصّلها كما تشاء.

فرح أبومحمد بجوابه الذي أعطاه حقّ التصرف نيابة عنه..

في المساء قام السائق بإيصال أبومحمد بينما بقيت ماما ليلى عند عمها. ما أن وصلت السيارة التي اقلته حتى أحاط به أصدقاؤه وسألوه إن كان قد وافق على دعوتهم أم لا؟

فأجابهم لقد وافق على دعوتكم. لكن الدعوة الأولى ستكون عندي. لم يعارض أيٌّ منهم ذلك، وأعتبروه حق مشروع فهوصديقه فليحصل أولا على هديته.

في صباح اليوم التالي باع أبوعلي اساور زوجته، وافقت على بيعها بعد نقاش طويل، كانت تحب مصوغاتها لدرجة العشق، لكنه تمكن باقناعها بأنه سيشتري لها ضعف ما لديها من ذهب حين ينال نصيبه. أما أبوسليمان فباع المحرك المتعب لسيارته واستدان بعض المال لتغطية نفقات الدعوة وقال

لنفسه:

''لِمَ لا إذا كان بإمكان أنطوان أن يشتري لي سيارة''.

أما أبومحسن فلم يكن لديه ما يبيعه فإستدان بعض المال من أقاربه بضمانة بيته، بعد أن بين لهم السبب.

كانت القرية تموج بحركة دائبة في ذلك الصباح الندي، لم يفرغ مكان في مجلس أبومحمد. دغدغت الأحلام عالمهم الذي نسي معنى الأحلام الحقيقية منذ زمن بعيد. فها هو رجل الأحلام قد جاء بنفسه الى عالمهم، ويحب الجلوس معهم، ويحدثهم عن ما فعله مع ابناء جلدته في الغربة.. والخير الذي يعيشون فيه الآن بسبب ما قدمه لهم، وفوق هذا كله قال لهم بلسانه

''أنتم أهلي ''... والحقيقة تقول بين الأهل حقوق.

إمعاناً بالضيافة.. حجز أبومحمد، عازف الطبل والمزمار وكانت الدبكات مستمرة طيلة فترة جلوس أنطوان في بيت صديق طفولته. سماعه صوت الموسيقى وعودته إلى هذه الأجواء التي ابتعد عنها منذ زمن بعيد جعلته مطروبا بسماع كل الاصوات، فطيلة حياته في الغربة لم يحضر حفلة أو مناسبة حضر فيها هذا الكم من البشر ولا حتى ربعه لتكريمه..

عندما خرج أخرج من جيبه خمسة مئة دولار متوجاً بها نشوته وطلب من أبومحمد أن يوزعها على العازفين وعلى من يريد من المشاركين. كان تصريف المبلغ الى فئات صغيرة معضلة كبيرة تمت بمشاركة الكثيرين بالتصريف، ركض بعضهم الى بيوتهم لجلب المال لهذا الغرض، حدثت هذه الكرامة أمام

عيون الناس. كانت حركته كافية لكي تخلخل توازنهم، لكن هذه الحركة بينت لهم في الوقت نفسه مصداقية استنتاجاتهم.. زاد عدد العازفين والمتبرعين بالاحتفال به جمعة بعد جمعة وزاد هو من كرمه، فعاشت القرية موسم حصاد موسيقى وفرح.

كانت ماما ليلى ترافقه كلما جاء إلى القرية تلبية لدعوة أحدهم لتعود معه في المساء.. تتسامر معه بقية الليل وتجتر معه تاريخها في كل ليلة.. ثم تسمع قصصا عن حياته.

كانوا جالسين في إحدى تلك الليالي في الحديقة حول مائدة صغيرة عليها لوازم السمر، كانت تفكر وتحسب الكم المطلوب من المصداقية لكي تقنعه بأنها انتظرته كل هذه السنوات بصبر واحتساب.. انتظرته في كل ساعة وكل دقيقة..... قطع صوته سلسلة أفكارها وطرح سؤالاً غير متوقع اشعرها بالارتباك:

- لماذا لم تفكري بالعائلة والأطفال؟

ابتسمت لتواري دهشتها، ثم قالت:

- أنا ليس لدي أطفال.

سكتت قليلا وبلسان محرج عقبت:

- أنا لم أتزوج وأنت تعرف السبب.. لكن لدي الكثير من الأطفال في جيبي.

ومدت يدها في جيبها لم تكن تعلم كيف تداري الحرج الذي تشعر به ثم

أكملت حديثها:

- هل تعلم أن كل أطفال القرية أولادي.

إنتظرت تعليقه و تحولت نظراتها ما بين وجهه و الأرض إلا أنه بقي صامتاً كأبي الهول ثم همهمت وقالت:

- ليس من السهل علي أن أعيش بين أربعة جدران لوحدي... أقضي عمري وحيدة.... لكنهم كلّهم أولادي، يحق لي أن أقرّر عنهم وأنْ أعيد تربيتهم وتربية آبائهم وأمهاتهم.

سكتت بعد ذلك وشعرت بالحيرة لماذا يريد احراجها بمثل هذا السؤال؟. نطق عمها أخيرا وقال بكلمات مطمئنة بعد أن شعر بمدى الحرج الذي سببه لها:

- يا حبيبتي أنا قد عدت ولن أفارقك، فقط قولي ما تحتاجينه. تريدين شراء بيت جديد مع بستان ماذا تريدين.... أي مبلغ تريدين... وكل من تريدين مساعدتهم سأكون كفيلاً بهم. هل أجلب لك مبلغاً الآن؟.

- لا يا عمي.. ليس الآن. تكفيني عودتك لي سالماً.. لم أكن أصدق أنني سأعيش حتى أراك.

فقال لها مشيرا بكفه مؤكدا على كلامه:

- لن أتركك، لا تقلقي بعد اليوم... هل أصبّ لك كوباً آخر من الشاي؟.

أجابته باختصار:

- لا.. لقد اكتفيت وأريد أن أنام.
- أنا سأجلس قليلاً ثم أنام بعد ذلك، أنت خذي راحتك.

كانت ستدفع نصف عمرها مقابل أن يضمها لكنه لم يفعل، أصبح بارد الطباع كالضياستانيين... اتصل بالتلفون وبدأ الحديث قبل أن تغادر.. نهضت هي من على الكرسي وقالت:

- تصبح على خير. أجابها بهزة من رأسه وقال
- وأنت كذلك.

كبرت الحفلات وزاد عدد الموسيقيين والراقصين.. كانوا يرقصون مؤمنين وواثقين بأن الفرج بات قريبا.

كان مايكل قد تعرف على انطوان وكان حاضرا في كل الدعوات التي أقيمت على شرفه وكان مشروعه المقدم لبناء مدرسة ابتدائية ومتوسطة قيد النقاش ما بين المنظمة الأم والمنظمة المحلية واللجنة المختصة في أم العيون... ولم يعد التنفيذ بعيداً، كان انطوان قد ساعده من خلال اصدقائه بتسريع الاجراءات في الدوائر المعنية. في كل مرة كان مايكل يحدثهم عن المشروع تكبر آمالهم وتزداد ثقتهم بأن الغد سيكون أجمل من اليوم.

إنتظر الكثير من رجال القرية الفرصة المناسبة لكي يفاتحوا أنطوان بمشاكلهم، وبعد انقضاء عدة اسابيع مترفة بالولائم باتوا يشعرون بالقلق. لم يستلم أي منهم مكافأته. فقط العازفون والراقصون والطفل حفيد ياسين الحلاق، لكن هناك الكثير من الأمور المطمئنة، على سبيل المثال الحديث الذي

دار بين ياسين الحلاق وأنطوان في بيت أبومحمد كان مطمئنا للغاية.. ذكروه لبعضهم البعض من باب بث الطمأنينة بينهم، عندما دخل ياسين الحلاق وقف أنطوان بوجهه وقبّله وطلب منه أن يجلس بجانبه ودار حديثٌ حميم بينهم عن أيام زمان وتبادلا الذكريات وكان يقدم له الطعام بيده.. ورفع صوته ليسمع الجميع:

''العمّ ياسين صاحب فضل على القرية وأهلها لا ينسى... وسأعوضك خيراً''.

لكن الوقت يمضي ويمضي ولم يتغير من الواقع أي شيء.... كان أبومحمد نفسه قلقا.... بعدما سكت المزمار واستراح الطبال وأكل المحتفلون حول بيت ابومحسن ووضعوا ما حصلوا عليه من نقود في جيوبهم، استمروا بالدعاء لأنطوان وأبومحمد اللذان كانا في طريقهم إلى القصر. جلسوا في غرفة الضيوف الرسمية جداً في القصر، لم يكن ابومحمد يشعر بالراحة عندما يجلس على أرائكه الغالية كما يشعرها معه في بيوت القرية المتواضعة. انتهز أبومحمد هذه الفرصة الثمينة لمفاتحته بمشكلته، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وبدلاً من الحديث عن موضوعه أراد أن يحرك مشاعر أنطوان تجاه ماما ليلى فحدثه عن الفترة السابقة من حياتها التي اتسمت بكل انواع القهر والعزلة. بدأ حديثه بقوله:

''الحمد لله على عودتك لنا بالسلامة. أنت لا تعلم مدى سعادتنا بعودتك لكن ليلى تحتاج مساعدتك وعونك. لقد عانت المسكينة كثيرا

وانتظرتك طويلاً.. لقد مرت بأيام عصيبة. خصوصا بعد أن بيعت أرض أبيها.. سرقها منها إخوة ماريا، ولم أستطع أنا مساعدتها. صدمتها بهم لم تكن بسيطة".

قاطعه أنطوان وطلب منه أن يحدثه بتفاصيل الموضوع، غضب كثيرا عندما سمع تلك القصة، وأكمل أبومحمد روايته بكل تفاصيلها المحزنة، حيث تاق له تأثر أنطوان بالموضوع بهذا الشكل، فأعطاه جرعة جديدة من الوصف التراجيدي.

"كنا ندخل عليها في الأيام الأولى ولا نعرف ما بها. تجلس متقوقعة وتقول عندي وجع في بطني.. لكن تقوسها بهذا الشكل كان يوحي لي وكأنها تخبأ سراً لا تريد أن تتكلم عنه، ولم تتحدث في أمرهم إلا بعد شهرين من بيع الأرض، وعندما قالت لي عن السعر لم يكن أمامي إلا مواساتها. لم يكن بيدي شيء أفعله".... نظر أنطوان شزرا وقاطع كلامه غاضباً:

- لماذا لم تشتكي عند الشرطة، ترفعوا قضية ضدهم في المحاكم؟

لم يكن ابومحمد يريد للنقاش أن ينحو هذا المنحى، فأجابه بهدوء:

- كل شيء كان قانونياً. كانت لديهم وكالة عامة بحق التصرف وفي يوم البيع بَصَمت هي كذلك على الأوراق.. لم تكن هناك أي ثغرة.

قاطعه أنطوان وقال:

- يا ريتها تقبل بأن أعوضها عن كل ما خسرته ببيت جديد وأرض وأبقار. هل تعلم أنني عرضت عليها المال قبل أيام، لكنها قالت لي ليس

الآن، ما رأيك أن أعطيك المال الآن لتشتري لها البيت والمزرعة عندما تريد؟

طرب ابومحمد وهو يسمع هذا المقترح وأجابه جزلاً:

- كما قالت ليس الآن، أنت موجود بيننا وسنفعل ذلك معا.

استرسل أبومحمد ليشرح له ولو تلميحاً عن ما قدموه لها:

- كل شيء سيتصلح... كانت أم محمد تساعدها بكل شيء.. يا أنطوان نحن عائلة واحدة وهي واحدة من أفراد عائلتي حزنها كان حزننا، لكنني لم أستطعْ أن أفعل لها شيئا أكثر مما فعلت.. عفواً الواحد يستحيي أن يقولها لكن لم نقصر معها لا مادياً ولا معنويا.

قاطعه أنطوان وقال معقبا:

- أنتم أهل.. ونعم الأهل والأصدقاء.. وهذه بحد ذاتها لن أنساها و لا أعرف كيف أجازيكم.... بينكم ذكريات مشتركة أنا لست جزءا منها، لأنني كنت بعيدا عنها، والآن قد عدت غريبا وقريبا في نفس الوقت. أتمنى أن أعوضها عن تلك الأيام الصعبة خيرا وأجازيكم على ما قدمتموه لها خلال فترة غيابي.

تبسم أبومحمد ثانية وشعر أن هذه الكلمات تشير إلى التعويض المادي، وشعر أنه قد وصل إلى نتيجة مرضية بعدما قال له " لن أنسى أفضالكم " فقرّر أن يفاتحه بموضوعه صراحة بعد فترة قصيرة، وإكتفى بهذا الحديث الذي مهد له الطريق لكي يفاتحه بموضوع أصدقائه فسأله:

- لا أعلم إن كنت تريد أن تساعد بعض الرجال الذين لديهم بعض

المشاريع الصغيرة مثل ابوعلي، فهو يريد شراء محل القصابة في ظالمايا العليا، أبوسليمان يريد شراء محرك لسيارته، وأبومحسن يحتاج وظيفة جيدة فهوموظف ممتاز؟

نظر انطوان في ضيفه متفحصا، وقال

- لماذا لا يملكون طموحات عالية، أريد مقابلتهم غداً.

عندما عاد ابومحمد الى بيته كان طائرا بجناحين وحط جنب زوجته على سرير الحب الذي تاق للدفء منذ أشهر كانت زوجته بانتظاره لسماع الأخبار فأسرع أولا بزرع بعض القبل على خديها قبل أن يسترسل.

بعد الذروة رفع الوسادة وأسند ظهره اليها وهي بجانبه. كانت زوجته في الأيام الأخيرة تذكره يومياً بضرورة فتح موضوع زراعة الأرض مع أنطوان لأنّ الموسم بات قريباً. فحدثها عن ما دار بينهم من حديث، كلامه كان في اذنها كالغزل فأشرق وجهها بالأمل.

في تلك الأيام كانت تتحدث عن أنطوان مع بقية النساء وتسميه أبوإدوارد، بينما بقية النسوة يسمينه السيد أنطوان. كم كانت تشعر بالزهوعندما تظهر للناس مدى قوة علاقتهم بالرجل المعجزة.

لكن هل سيبقى أبوإدوارد ملتزما بكلمته تجاه زوجها؟

عندما التقى ابومحمد بالرجال وأبلغهم أن انطوان يريد مقابلتهم في اليوم التالي لكي يتحدث معهم في موضوع مشاريعهم رفرفت قلوبهم فرحا، لكنهم شعروا كذلك بالحيرة.

فسأل أبوعلي أولا مستفهماً، وأدار رأسه دورة كاملة:

- أهلا، أهلاً بالسادة، ماذا سأقول له؟

نظرا اليه ابومحمد مستغرباً ووضع يده تحت حنكه وجاوب سؤاله بسؤال

- هل أنا صاحب المشروع أم أنت؟

كان ابوسليمان وابومحسن يسمعون باهتمام لكل ما يقال.

انصرفوا بعد أن اتفقوا على أن يلتقوا في اليوم التالي عند التاسعة صباحا لكي يذهبوا معا لزيارة انطوان في قصره.

لم يناموا من الليل إلا قليلا، كانوا يفكرون في انتقاء كلماتهم، وكيف سيعرضون مشاريعهم عليه. كان يوما على غير العادة لذلك استحموا في الصباح على غير العادة، وارتدوا ملابسهم التي انتقوها باهتمام وتوجهوا الى ابومحمد الذي كان ينتظرهم بجانب بيته. عندما دخلوا القصر لم يشدهم الرخام والمرمر ولا التماثيل، شاهدوا البستانيين يعزقون الادغال من بين الورود وشاهدوا النافورات الرائعة. لم يشدهم شيء محدد بل باتت رؤوسهم تتحرك ذات اليمين وذات الشمال وغمرهم شعور المحروم يلتقي بما حرم منه.

إنتهى بهم المطاف في غرفة الضيوف الرسمية جداً و التي أثرت سلبا على قدراتهم الكلامية، استقبلهم انطوان بحفاوة وكان فرحاً بلقائهم.. بعد حديث قصير قال اريد الدخول في الموضوع الذي جئتم من أجله. بدأ

أبوعلي وقال له:

- أنا اريد أن اشتري محل القصابة الذي سيباع في ظالمايا العليا، سأبيع اللحم هناك بسعر ممتاز وسوف أتمكن من بيعه لأهل القرية بسعر مناسب.

ثم سكت وانتظر بلهفة وتوتر جواب انطوان:

بقي انطوان كما هو وكأن على وجهه قناع ثم قال له:

- ألا تريد أن تكون أكثر من قصاب؟

ابتسم ابوعلي لأنه لم يحلم يوما بأكثر من محل قصابة في موقع جيد، ثم سأل إنطوان مستنكراً:

- ماذا أكون إن لم أكن قصابا؟ هذه مهنتي أبا عن جد.

أجابه سريعاً:

- ستكون منتجا للحوم التي ستبيعها، هكذا اريدك أن تفكر لوأردت أن نعمل معاً.

الكلمتين الأخيرتين ابهجتهم (نعمل معاً). هل سيكونون شركاء. ثم أسترسل في حديثه:

- سنشتري قطعة أرض ونستورد ابقار الابردين، الانجس وسنجلب شارلاي لكي نهجنها مع الانواع المحلية سيكون مشروعا ممتازاً. أريدك أن تفكر بهذه الطريقة.

بدأت الافكار الكبيرة تغازل ابومحمد أراد أن يقترح شيئا له لكنه توقف

وأعتبر هذا اليوم للمشاريع الصغيرة. بعدها التفت الى ابوسليمان، وقال له بود:

- وأنت يامن شاركت ابنة أخي بسيارتك بماذا تفكر؟

اراحت هذه المقدمة ابوسليمان، فرفع من مستوى طموحه وقال

- اريد أن أستبدل سيارتي بسيارة أخرى، فقد باتت سيارتي كثيرة العطلات وأحتاج الى محرك جديد.

تحدث انطوان بنفس الجمود الجاد الذي حدّث به ابوعلي:

- أريدك أن تكون أكثر من سائق.

أطرق ابوسليمان مفكراً. ثم سأله وبدون أي خجل:

- أنا لا أعرف ما أكون إن لم أكن خلف مقود السيارة؟

فحدثهم انطوان عن كثير من المشاريع البسيطة التي تحولت الى مشاريع كبيرة، وعندما سكت أنطوان. قال ابوسليمان:

- إذن سأشتري سيارتين واحدة أنا أشتغل عليها والاخرى سيقودها إبني.

قهقه عندها إنطوان وقال:

- هل هذا اقصى ما توصلت اليه؟ اسمع أريدك أن تفكر بشركة نقليات بين مدننا، وبين لي كم عدد السيارات العادية وكم عدد سيارات النقل التي تحتاج اليها اريدكم أن تفكروا بهذه الطريقة.

شعر ابومحمد بنشوة لسماعه هذا الحديث، وحمد الله لأنه لم يسأله عن ثمن البذور لزراعة الارض ويكتفي بذلك.

رن تلفونه فقُطع حديثهم كان ابنه ادوارد، وأخبره أنه قد تم غلق مطعم جديد. شحب وجه انطوان ثم قال له:

- لماذا لا يعطوننا مدة كافية لكي نقوم بتحسين نظام التهوية اللعين؟

أصغوا لحديثه مع ابنه وفهموا أن ادوارد وسليم قد عملوا كل ما في طاقتهم، كانوا قد تحدثوا مع مديرية الرقابة الصحية، وبينوا لهم أنه لا توجد شركة لتركيب مخليات الهواء تستطيع القيام بهذا العمل خلال شهرين، وكان جوابهم أن هذا الطلب قد طلب من المالك السابق وعليه المالك الحالي يتحمل كل التبعات القانونية المترتبة على ذلك.

فتح انطوان ربطة عنقه وهو مقطب الجبين، وكأنه فجأة شعر بأن الربطة تخنقة، وازداد شحوبه. ثم عقب قائلا لادوارد على كل حال أطلب من شركة المخليات أن تعمل بأقصى سرعتها حتى لو طلبوا أجور اضافية لسرعة التنفيذ. بعد أن أغلق التلفون أسند ظهرة الى مقعده وأغمض عينيه وشعر بصعوبة بالتنفس ثم قال بوقار:

- إن هذا هومشروع عمري، وقد وضعت فيه كل حياتي.

ثم سكت فاحترموا صمته حتى قال:

- لنعود الى موضوعنا.

وبقيت مسحة الحزن على وجهه رغم كفاحه لرسم ابتسامة مناسبة

وهويسأل أبومحسن عن مشروعه:

- ما هومشروع أخونا ابومحسن؟

ارتبك ابومحسن لأنه لم يفكر بأي مشروع فهوموظف مسلكي طول حياته، حتى عندما عمل عند جاسم سليمان، كان موظف ينفذ ما يطلب منه.

أجابه ابومحسن بكل ثقة بأنه ليس من أصحاب المشاريع بل هو من أفضل المحاسبين، وكان حل مشكلته أسهل بكثير مما كان يتوقع. فقال له انطوان وهو يشير بإصبعه اليه:

- أنت الرجل المناسب في المكان والزمن المناسب، أنت ستكون المحاسب لشركة ابوسليمان وأبوعلي، وراتبك سيكون مجزيا.

شعر ابومحسن بصفقات قلبه كجناحي طائر صغير يتمتع بالطيران للمرة الاولى. ثم التفت انطوان الى ابومحمد وأشركه في ختام الحديث:

"اريدكم أن تجدوا لنا قطعة ارض مناسبة لكي نقيم عليها مزرعة كبيرة لتربية العجول"

عندما خرجوا من القصر بعد الغذاء لم يكونوا نفس الاشخاص اللذين دخلوه، لقد تخلصوا من آخر قطرات اليأس اثناء وجبة الغذاء التي ملأتهم بالتفاؤل.

وكانوا متفقين ضمنيا على قضاء حوائجهم بالكتمان. فقال ابوعلي محدثا الجميع بنبرة جادة:

"رجاء لا تتحدثوا بموضوع المزرعة، فأنا لا أحب التسليف".

أجابه الثلاثة موافقين ومؤكدين بأنه يجب عدم التحدث عن موضوع هذا اللقاء بالتفاصيل.

بعد يومين كانوا يطيرون بالسيارة كنحلة بين الاراضي المعروضة للبيع على الجبل باحثين عن الرحيق المناسب لمشروع ابوعلي. لم يجدوا الارض المناسبة هذه منحدرة وهذه صغيرة، لذلك اتفقوا على التريث حتى يجدوا الارض المناسبة وانتهز ابوسليمان فرصة وجوده معهم فشرح لانطوان أنه يدرس مشروع سيارات نقل صغيرة بين أم العيوم وبقية المدن، فشجعه انطوان قائلا:

" هكذا اريدك بسنزمان، تفكر بمشروع يستحق العناء".

شعر ابوسليمان بنشوة عارمة تعتريه بعدما خصه بكلمة أجنبية لم يفهمها، وضحها له ابومحسن في طريق العودة، وبقي ابوسليمان يصف نفسه بزبزمان، ولم يستطع لفظها بشكل صحيح رغم محاولات ابومحسن لتصحيح لفظها، حتى انتفت حاجته لها.

عندما عادوا الى القصر غادر ثلاثة رجال وبقي ابومحمد مع إنطوان.

بينما كان ابومحمد يفكر كيف سيبدأ بطرح موضوعه عليه سأله انطوان بغتة وكأنه شعر بما يدور في رأسه:

- لا أعتقد أنك لا تفكر في مشروع مثلهم؟ أنت من أكثر الناس نشاطا منذ عرفتك.

شعر براحة لكلماته وفكر أن يكون انتهازيا بتميز ويلبي رغبة انطوان بالتفكير بشيء كبير.

- نعم، لدي مشروع، أريدك أن تشاركني في زراعة كل ارضي.

وعاد وجه انطوان الى جموده الرصين عندما يتحدث عن المال والمشاريع، وأجابه بهدوء مفصلاً كلماته:

- أريد أن تعلم.. أنني لا أحب الخسارة، ماذا لو لم تمطر السماء؟

وجم ابومحمد من هذا السؤال المباغت. سمع صوته مجددا مطالبا بجواب على سؤاله. أطرق ابومحمد ثم قال:

- أنت محق هذا الأمر بيد الله، وبالفعل أنا لا أريدك أن تخسر.

ساد صمت ثقيل كالرصاص على قلب ابومحمد، بينما كان انطوان مستمتعا بتفحص ردة فعله. ثم عاود انطوان الحديث رافعا حاجبيه:

- هل تريدني أن اربح؟
- بكل تأكيد لا أريدك أن تخسر، لكن كيف؟ هذا الأمر بيد الله.

لمعت عينا انطوان وقال ببهجة:

- الموضوع بيدنا.

نظر ابومحمد في عينيه متسائلا:

- هل هذا لغز؟

وأنتظر أن يكمل انطوان حديثه لكنه سكت ثانية.

بالرغم من أن صمته لم يدم إلا ثوان إلا أنه شعر به دهراً، إسترسل انطوان قائلاً:

- إذا تريد مشاركتي، فأنا أريد العمل بالمضمون، سنحفر الآبار لنروي الأرض كلها.

لم يستطيع ابومحمد ايقاف الدموع التي انهمرت عند سماعة هذه الكلمات، وشاهد المياه تروي ارضه المتفطره من العطش.

مضت الأيام بالتخطيط لبناء صروح مشاريعهم، التي باتت على وشك التنفيذ، لم يتواجدوا في مضافة ابومحمد في الصباح، كان ابوعلي يبحث عن الأرض المناسبة ويبحث عن أفضل أصناف الأبقار المحلية، بينما كان أبوسليمان يتصل ببائعي السيارات لدراسة انواع السيارات، ومركبات الحمل الجيدة لكي يكون عنده تصور صحيح عن الكلفة الكلية لمشروعه.

قام ابومحمد بالاتصال بشركات حفر الآبار وأختار طريقة البئر السوري لسرعة حفره ولسعره المناسب، وبات يرى كل فدادينه بستانا كبيرا، تكاد الثمار تكسر أغصان أشجاره.

أخذت حياتهم اتجاها جديدا لم يعتادوا عليه، وشعروا أن كفة الحياة ستتساوى قريباً بين ظالمايا السفلى والعليا؟

الفصل الأخير

إلى أين المصير...

وصل مايكل متأخراً في يوم دعوة ابوسليمان الثانية... دخل بخطى مستعجله مبتهج الوجه، وقف في وسط المدعوين وقال بصوت مسموع

"عندي لكم خبر سار.. لقد تمت الموافقة على بناء المدرستين وذلك بمساعدة انطوان" مشيراً بيده اليه.

فرحة عارمة كفرحة المظلوم بانتصاره ، منهم من رفع يديه وحمد الله ومنهم من وقف لا ارادياً من شده فرحه بالخبر.. قُبِّل وجه مايكل وجبينه كما لم يُقبل من قبل وشكروه على جهوده وشكروا انطوان وأعطوه حصته من القبل كذلك... خرج بعدها انطوان ساحبا خلفه المدعوين الى باحة الدار الخارجية، مستمتعين بالنظر الى العازفين والراقصين والاطفال المبتهجين حولهم، وبعد وقت قصير طلب من ابومحمد ان يجمع الاطفال ويبلغهم بخبر المدرستين، بعد أن تجمع الأطفال و أخبرهم بالخبر عمت موجة بهجة جديدة، وفي هذا الجو العارم بالفرحة أخرج انطوان من جيبه رزمة معتبرة من النقود متوجا بها فرحته و طلب من ابو محمد توزيعها على الأطفال. ظهور النقود أشعل فتيل البهجة في الساحة وزاد قرع الطبول والمزامير وزاد عدد الراقصين في الحلقة وازدادوا حماساً عند دق ارجلهم بالأرض فتحركت غيمة ترابية قرب الأرض على شكل حلقتهم الكبيرة حول اقدامهم، دخلوا

بعدها لتناول العشاء بينما كانت اصوات الطبل و المزمار مستمرة.

وقفوا حول مائدة الطعام بجو يشبه وجبة الغذاء في أول أيام العيد، قال انطوان بصوت يكاد يختنق بعبرته:

" الاطفال سيذهبون الى المدرسة هنا والكثير سيعملون في مشروع ابوسليمان وابوعلي، بمشيئة الرب".

جحظت العيون لهذه المفاجئة الغير متوقعة وباتت الاسئلة ترتسم على وجوههم.

سكنت الدهشة عندما رن تلفون انطوان وشرخت نبرة صوته نقاء الفرحة التي كانوا ينعمون بها. كان ابنه سليم يحاول أن يشرح له أن عددا كبيراً من المطاعم قد أغلق وهم عاجزين عن فعل شيء، فعليه أن يعود بسرعة.. أدرك انطوان أن الامر أسوأ بكثير مما كان يتوقع، وأن مشروع عمره قد أوشك على السقوط.

فقد أنطوان اتصاله بعالمه الجديد وانشغل فكره بالمال، بدون أن يطلب، قدم له ابومحمد كأساً من الماء شربه على عجالة.. فقد شهيته وقرر أن يعود إلى القصر حتى إنَّه نسي ابنة أخيه، نادته وهو في طريقه خارجاً:

"يا عماه، أحتاج أن أبقى في البيت لتنظيفه".

أجابها على استعجال "طيب طيب"، وسار غير آبه بالناس حوله وكأنه كان في عالم آخر. ودع الجميع بصوت رصين، لا ترافقه البهجة التي اعتادوا عليها:

''سألتقي بكم خلال الأيام القادمة بمشيئة الرب''.

خرج من الدار بخطوات سريعة تشبه الركض تلاحقه دعواتهم بأن يصب الله عذابه على كل أعدائه ويخسف الأرض بكل من يتربص الشرّ بابن قريتهم البار.

لم ينل العازفين والراقصين نصيبهم في ذلك اليوم .. خيبتهم داروا عليها بابتسامة القناعة.. قفز في السيارة وطلب من السائق أن ينطلق به وسمع أصواتهم تلاحقه لكنه لم يفهم أي شيء وشعرها ضوضاء في وقت كان فيه بأمس الحاجة الى التركيز؛ كان غارقا تماماً في عالم الأرقام والخسارة، وانطلقت سيارته وودعه أهل القرية وركض الأطفال خلف سيارته ككل مرة لمسافة ليست بالقصيرة وبقي يسمع هلاهل النساء، التي لم تعد تعني له إلا الفوضى.

كلماته الأخيرة وابتسامته علّلت، حلّلت وترجمت على أنها وعد منه بلقائهم مرة ثانية وإعطائهم ما يريدون..... منهم من قال أنه ابتسم تجاه أبوسليمان عندما قال ذلك، وآخر يقول لا لقد ابتسم عندما نظر تجاه أبومحمد، كانوا متفائلين لقناعتهم المطلقة بأنه كان يعني الجميع ولن ينسى أحداً منهم.

في اليوم التالي تحول بيت العجوز الى ما يشبه المزار، زار الكثير من النساء ماما ليلى ورحبوا بعودتها وبالغوا بإظهار مشاعر الاشتياق لها، حصلت على بعض الهدايا من الجيران لا لسبب إلا لأنها عادت بالسلامة وهي لم تتعرض

طيلة حياتها لمثل هذا الكرم المباغت ولا حتى في يوم عمليتها عندما سقطت من فوق السطح. الأغلبية كانوا مراهنين على هذا الفرس (عمها)، وهي لم تخبرهم إلا الحقيقة حول مشاعر عمها تجاههم، وكيف وعدها بأن يعوضها عن الأيام السالفة.. لقد أحب عودته الى ماضيه، وسعد بهم جميعا وأحب جوارهم واعتصر قلبه لمشاكلهم. الحقيقة هي أنه كان سعيداً بتجربته التي جددت حياته. أما أحاديث الناس في الشارع فكانت عن الملايين التي أعطاها لأبنة أخيه، كانوا يقولون " لقد حصلت على مال يكفيها لتشتري القرية بما فيها "

لم يتصل أنطوان في ذلك اليوم بأبومحمد فبقي الرجال في حيرة من أمرهم؟ فجاؤوا في اليوم التالي إلى أبومحمد وجلسوا أمامه في مجلسه وكأنهم طرفين وأعربوا عن قلقهم بطريقة غير مباشرة، ثم تحدثوا بصراحة أنهم يريدون أن يجلسوا مع انطوان للشروع بالمشاريع، خصوصا أنه لم تتح لهم الفرصة للحديث معه في الأيام الأخيرة لكثرة مشاغله ففتح يديه ومدها لهم قائلا:

"ماذا يمكنني أن أفعله لكم؟

جوابه لم يزيدهم إلا قلقاً وتثاقلت خطى الوقت... أرسل أنطوان في المساء سيارته إلى بيت ابنة أخيه. عندما دق السائق بابها خرج أبومحمد قبل خروجها فتحدث السائق اليه بكلمات قليلة وركب السيارة وعاد من حيث أتى.

كان هذا الحدث كافيا ليستفز عقول المستثمرين الذين راهنوا بما لديهم على كرم أنطوان انتشرت الشائعات تاركة البرق خلفها:

''تم تسليم كيس من المال لأبومحمد'' وآخر يقول:

''لم يكن كيساً بل شوالاً''.

لم يمض وقت طويل حتى تجمع الرجال الذين اقاموا الولائم له عند أبومحمد ليسألوه عن ما يحدث. تناقشوا في الطريق نقاشا حاميا حولَ مشاكلهم... وقفوا أمام بيته و شعروا بخوف من طرق الباب...الحقيقة لم يكن الباب ما يخيفهم بل الجواب الذي سيسمعونه، طرقت يد مصابة بهشاشة الامل على باب الرجاء، خرج أبومحمد الذي لم يتفاجأ برؤيتهم منتصبين أمامه تحيط بهم هالة من الوجل..

بعد أن تمكنوا من قول ما يريدون بتأتأةٍ وترجٍ. أبلغهم بكل أمانة أنَّ أنطوان سيكون مشغولاً خلال اليومين القادمين وسينتظر زيارة ابنة أخيه بعد ثلاثة أيام عند التاسعة صباحاً. أمّا ماما ليلى فلم تنتبه إلى أن عمها لم يرسل في طلبها إلا في الليل إذ ابلغها ابومحمد بانشغال عمها وأنه سيرسل لها سيارته بعد ثلاثة أيام... كانت تلك الليال ثقيلة على نفسها فلقد اعتادت الجلوس مع عمها تسامره طوال الليل.. فما كان منها إلا أن شكرت الرب على عودته لها، ودعت من يسوع وأمه أن يحفظه لها. كان اليوم الثاني أثقل من سابقه، إلا أن ماما ليلى لم تشعر بثقله في النهار لكثرة الهرج والمرج في بيتها.

كانت لأم محمد كذلك احلامها الصغيرة التي عاشت معها لسنوات

حتى أنها لم تبح بها لأحد ولا حتى لزوجها لعلمها بالحال، لكنها حدثته عنها خلال اليومين الأخيرين بكثير من التفاصيل، كيف ستغير كل اثاث البيت، وستصبغه من جديد و ستبني غرفة جديدة، وذكرته بكل سنوات الشقاء التي قضتها بجانبه تحثُّه كي يحقق لها حلمها البسيط لقاء جلدها خلال كل سنوات الضيق.

بعد صلاة الفجر طُرق باب بيت أبومحمد بداية بطرقات حذرة ثم اشتدت، فزع أهل الدار فمن سيأتي اليهم في مثل هذه الأوقات، غير ناقل خبر شؤم.. نهض أبومحمد من فراشه ومشى بخطوات حثيثة إلى الباب تسارعت خطواته مع دقات قلبه ولحق به أولاده.

فتح الباب ليرى أمامه ثلاثة رجال كالاشباح، أبومحسن، أبوعلي وأبوسليمان، وقفوا أمامه بعيونهم المتسائلة التي تشبه عيون المغدورين. أبومحسن بدأ الكلام متخنقاً:

"يجب أن تجد لي حلاً، لقد بعت دجاجتي الوحيدة و استدنت المال مقابل بيتي.. أنا مفلس تماماً و الدائنين بانتظاري".

قاطعه أبوسليمان متوسلاً، ومالت رقبته عند الحديث:

"أنت تعلم مشكلتي مع محرك السيارة.. اجعلها صدقة.. وتحدث معه عن مشكلتي، ليساعدني بشراء المحرك حتى نفتح شركة النقل".

بدأ أبوعلي واثقاً من قضيته التي ستعود بالنفع عليهم.

"ألا تريدون الخير لقصاب قريتكم، سيباع محل القصاب في ظالمايا العليا

بعد أسبوع... لو اشتريته سأكون خير عون لكم وللقرية وسأبيع لكم اللحم بأثمان رخيصة وهكذا يكون أنطوان قد قدم عونا لكل أهالي القرية".

أجابه أبومحسن بنبرة تذكيرية:

- "لا تقارن مشكلتك بمشكلتي... أنت لن تموت جوعاً إذا لم يساعدك".

لم يرق لأبوسليمان هذا الحديث فعقب:

"أنا مشكلتي ليست بسيطة والله سأنتهي إذا لم يساعدني".

دخلوا في شجار فيما بينهم عن مدى أهمية مشاكلهم، تحدثوا وكأنهم ثلاثة بفم واحد، تصارعوا على استخدام هذا الفم في نفس اللحظة، مقتنعين بأنَّ صاحب الصوت الأعلى هو صاحب الكلمة المسموعة، حتى أصبح حديثهم صراخاً.

لم يعد بإمكان أبومحمد الإنصات اليهم فقاطعهم بصوت أعلى من صوتهم:

- وماذا تريدون مني أن أفعل؟

أجابوه بسرعة وعفوية: "نأتي معك".

فكر أبومحمد بسرعة، في حالة قدومهم معه فلن يتسنى له المجال لطرح مشكلته بحرية.... فقال لهم:

- إنه ينتظر ابنة أخيه يجب أن يكون عندنا إحساس، ابنة أخيه التي لم

يرَها منذ سنوات بعيدة.

قال أبومحسن جزعاً:

- لقد قابلها بما يكفي..

نظر إليه أبومحمد بنظرة لوم وقال معاتباً:

- لقد فارقها لعقود... ولم يلتق بها إلا قبل أيام معدودات.

شعروا أن في كلماته خبث مقصود. لم يستطع اقناعهم بالانصراف إلا بشق الانفس، لكنه وعدهم بأنه سيعمل ما بوسعه ليجد حلا لمشاكلهم. بقي أبومحمد بعد ذلك مستيقظا بانتظار موعده، تهيأ لتناول الإفطار واستبدل ملابسه وطلب فنجان القهوة، التي بات يشربها فقط في المناسبات بسبب غلاء ثمنها. لكن القهوة قد خلقت بالضبط لمثل هذا اليوم فلن يبخل على نفسه بها.

كانت زوجته بجانبه تلقنه وتعقب على أفكاره التي كان يفكر بها بصوت عالٍ. مشى الوقت بطيئا وعند الثامنة والنصف طلب من زوجته أن تذهب إلى ماما ليلى وتطلب منها أن تتهيأ. عادت لتخبره أنها جاهزة وتنتظر وصول السيارة. مضى الوقت وتابع عقرب الساعة وهي تدق الساعة التاسعة وثم العاشرة ولم تأت السيارة.. فبدأ يتابع العقرب الكبير ومن ثم عقرب الثواني... ولم يعد يستطع ابومحمد الجلوس بمكان واحد. جاء الرجال إلى أبومحمد مستفسرين عن سبب تأخر السيارة؛ لأنَّ عيونهم لم تفارق الشارع من رأس الثعبان في أعلى الجبل وحتى ذنبه في الوادي مترقبين وآملين برؤية

سيارته.. تعبت عيونهم ولم تظهر سيارته.

طلب ابومحمد من أولاده تجهيز المضيف وتجمع الرجال عنده بسرعة وكأنهم لم يكونوا بعيدين عن بيته. كان الحديث متقطعاً وثقيلاً، وبينما يتحدثون في موضوع ما تأتي مداخلة من شخص يعلم الجميع أن صاحب المداخلة كان شارداً. جميعهم كانوا يناقشون مشاكلهم مع أنفسهم، بينما يتحدثون في موضوع آخر، كانوا جالسين في عالم غني بعوامل الشرود.

شعر أبومحمد بمدى التوتر الذي يعانون منه، ولم يكن هو أقل توترا منهم، كان مساعد القزم واقفا مع الشباب يحيطون بالمضيف وكأنه ينتظر دور حلمه الصغير "حذاء كعب عالي" على هامش احلامهم الكبيرة. فأراد أن يهدئ من روعهم فقال وكأنه يحكي الرواية لنفسه ولهم:

"أنطوان صديق طفولتي رحل مع من رحل في ذلك الزمان. لم يكن معه مال عندما غادر البلاد وانتهى به المطاف في بلاد غريبة. هل تعلمون ماذا كان عمله الأول؟

هزوا رؤوسهم نافين علمهم، يائسين الى درجة تفضيلهم لغة الإشارة على الكلام. ثم قال أحدهم بلا مبالاة:

"لا والله لا نعرف".

أكمل ابومحمد روايته:

"لقد عمل في التنظيف حتى وقعت أكتافه، فجمع مبلغا بسيطا من المال. بعد ذلك فتح محلاً بالشراكة مع صديق ثم فتح مطعماً لكنه في السنوات

الخمس الأولى لم يكن لديه أيّ شيء مثلنا''

عندما قال ''مثلنا '' شعروا بأنَّ لديهم الأمل بأنْ يصبحوا مثله.

الشباب الذين سمعوا هذا الكلام راودتهم فكرة الهجرة مدغدغة أحلامهم بالمستقبل ولكن هل سيساعدهم كذلك في نفقات الرحيل؟

ابتسم أبومحمد كمن يهم بإبلاغهم بخبر سعيد.

''هل تعلمون أنّه يهوى تشجيع الشباب، وأصحاب المشاريع البسيطة''

عادة الفرحة لتطير بهم بعودة أنطوان الذي رفعهم من حالة اليأس إلى الأمل، عند الثانية ظهرا نفد صبر الرجال وصبر أبومحمد ولم يعد يستطعْ الاسترسال في الحديث. استعملوا ما يعرفوه من العبارات المطمئنة.

- كل تأخيره وفيها خيرة.
- الغائب عذره معه.
- الصبر مفتاح الفرج.
- يا رب صبرنا.
- يا كريم.
- يا رحيم.
- يا رب أسمعنا خيرا.
- اللعنة.. والله ما ظل صبر.

دخن الرجال ما تبقى لديهم من تبغ وذهب دخان السجائر ومعه عبارات الطمأنينة. لم تأت سيارته التي باتت رمزاً لآمالهم، وبقوا جالسين الى ساعة متأخرة، لعنوا كثيرا تلفونات القرية التي فقدت حرارتها قبل سنوات عديدة وبقيت كجثث هامدة في تلك البيوت القلائل التي تملكها.. وغادروا المضافة مرددين الصباح رباح.

في صباح اليوم التالي، كان قد مضى اربعة ايام لم يسمعوا شيئا عن انطوان، عادوا محملين بالقلق الذي تراكم خلال الليل الى باحة دار ابومحمد ووقفوا في الباحة منتظرين خروج الصفائح المعدنية. وقف اولاد ابومحمد في المضافة يوزعون الماء للرجال اللذين تيبست حلوقهم من التوتر والتفكير، وكأن أخاديد العمر في وجوههم أصبحت أكثر عمقاً بين ليلة وضحاها. عند الظهيرة وبينما كانوا يتحدثون عن التبغ، وهو ما تحدثوا عنه مرارا وتكرارا في ذلك الصباح ليشغلوا تفكيرهم باي موضوع... وبينما كان ابومحسن يتحدث عن تبغه الحار.. ارتفع صوت ابوعلي بشبه نداء:

"كفى، كفى زهقت ارواحنا من الانتظار.. إجلب سيارة واذهب اليه.. لم نعد نطيق الانتظار".

أيد الجالسون رأيه السديد فالتفت ابومحسن الى ابوسليمان وطلب منه بتوسل أن يتدبر أمره ويجلب لهم سيارة من أحد زملائه ليقلهم بها.

أوقف ابوسليمان السيارة المستعارة بجانب مجلس ابومحمد، فركب بجانبه في المقعد الامامي.، كان اضطرابه واضحا من التفاتاته السريعة الى الرجال

على جانبي السيارة. فتح ابومحسن الباب الخلفي للعجوز فجلست، وقد بانت عليها أعراض حمى قلقهم الشديدة.

حيث لم يترك لها الضيوف قبل الآن وقتا لتفكر بسبب تأخر عمها باستدعائهما، إلا في وقت متأخر من الليل بعد أن فرغ البيت من الزائرات.

عندما تحركت السيارة قرأ ابومحمد دعاء السفر بصوت مسموع

وأكمل بعده:

- "ربّ إشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحللْ عقدة من لساني يفقهوا قولي". سكت لشعوره بالحرج لقراءته هذه التكملة بصوت مسموع كان المفروض قراءتها في سره. التفت اليه ابوسليمان مكرراً:

"آمين آمين"

ثم رتل ابوسليمان بصوت خاشع صلاة كسر الشر حتى تخنق بالبكاء عندما قرأ:

"أنطرح ساجدا أمام صليبك، أيها الرب يسوع المسيح، فاغمرني بالدم الثمين الذي تدفق من قلبك الاقدس وجراحاتك المقدسة.

اغسلني، يا "يسوعي"، بالماء الحيّ المتدفق من قلبك.

ربي يسوع، أسألك أن تطوّقني بالنور المقدس".

فالتفت اليه ابومحمد وتابع كلماته متعاطفاً وعندما إنتهى قال له:

"آمين، إن شاء الله خير" فجاء صوت ماما ليلى خاشعاً "ليباركم

الرب"، التفتا معاً الى الخلف بسرعة، كأنهما قد نسيا تقريباً أنها جالسة خلفهم.

بينما كانت سيارتهم تتعرج بين الأفرع التي يعرفها سائقهم كما يعرف زوايا بيته.... تفتحت أبواب الدور وكانوا يسمعون الناس خارجا يقولون:

"هم ذاهبون إلى القصر"...

كانوا يسمعون ما يقال خارجاً لأنّ شبابيك السيارة مفتوحة لا تسد لا صيفاً ولا شتاءً، ولأنه كان يقود سيارته ببطء شديد ليس فقط بسبب الحفر في الشارع بل لأنها بهذه السرعة كانت السيارة قد أعطت أقصى ما لديها.

أصدر محرك السيارة صوتا عاليا وهي تصعد الجبل، وكان حديثهم عن عمق علاقتهم وأواصر المحبة التي تربطهم بعض النظر عن دينهم. ماما ليلى بدورها أثنت على كرمهم معها طيلة حياتها. أوقفهم رجال الأمن عند بوابة ظالمايا الرئيسية... هذه البوابة ونقطة السيطرة التي استحدثت بعد بناء السياج... وسألوهم عن وجهتهم؟ فقالوا لهم:

"إلى قصر الجوهرة" ضحكوا منهم وقال الضابط:

" و بهذه السيارة؟... لقد منع التسول منذ زمن بعيد... أنتم تعلمون أنه لا يحقّ للمتسولين الدخول إلى ظالمايا العليا"

انزعج أبومحمد من هذا الكلام وأوضح لهم الموقف قائلاً:

"لسنا متسولين هذه ابنة أخيه.. ابنة أخي أنطوان".

تحدث بتأتاة تعسرت ومقاوما في الوقت نفسه فوبيا زي الشرطة الرسمي.

''ابنة أخو مَنْ؟... هل جننت لو كانت ابنة أخيه لما ركبت هذه السيارة''. مشيراً بإصبعه الى السيارة.

هكذا أجابه الضابط بسخرية زاجرة.

ما كان منه إلا أن طلب من ماما ليلى إبراز بطاقتها الشخصية وقدمها للضابط. نظر الضابط في البطاقة والى وجهها مليا وهز رأسه، لم يفهموا بالضبط معنى هزة رأسه..

بالرغم من أن الامر لم يكن منطقيا بالنسبة اليه إلا أنه سمح لهم أخيراً بالمرور بعد الترجيات التي غمروه بها، وطلبهم المستميت بأن يتصل فقط بأهل القصر ليؤكدوا له صدق ما يقولون... سمح لهم أن يدخلوا، لم يصدقهم لكنه أشفق عليهم، وصلوا إلى باب القصر فرحين بانتصارهم على البوابة. لم يعلموا كيف سيدخلون القصر فهو لا يملك مثل ذلك الجهاز الذي يشير به الى الباب فينفتح. نزل أبومحمد من السيارة وتوجه إلى الباب فسمع صوتاً يقول له ''تفضل''... لكنه لم يرَ لا إنساً ولا جاناً حوله. تسمَّر في مكانه متلفتاً ولم يعلم من يجيب. تكرّر الصوت وقال له:

''تفضل ماذا تريد '' حكَّ رأسه قبل أن يجيب متحيراً:

''أنا أبومحمد ومعي ماما ليلى ابنة أخ السيد أنطوان صاحب القصر، وقد طلب مني أن آتي بها لزيارته''

تم الجواب على سؤاله بطريقة واضحة لا لبس فيها.

''نعم.. نعلم بالموضوع، لكن سيدنا أصيب بجلطة قلبية مفاجئة جاء على اثرها ولداه السيدان ادوارد وسليم ورافقاه عائدين، وقال بأنه سوف يتصل بكم لاحقا''.

قبل أن يقول أي شيء سمعه يستكمل حديثه قائلاً ''رافقتكم السلامة''.

ورغم صعوبة الصدمة الاولى عليه، إلا أنه عندما التفت ونظر الى الوجهين الذين يراقبانه عن كثب، عندها تأكد تماماً أن لسانه سيخذله. لم يعد يستوعب ما يجري.

عاد وجلس في السيارة ولم يقل أكثر من:

'' لقد عاد.. سافر.. عد بنا من حيث أتينا ''

لم تتحرك السيارة فالتفت ابو محمد الى ابو سليمان:

'' انطلق، إنه مسافر ''

سألته ثانية لعدم قدرتها على استيعاب الخبر:

'' من سافر؟

'' عمك.. سافر... رجع''. سألته إلى أين ولماذا؟

لم يجب اولا ثم قال لها

'' إنه مريض وسافر للعلاج عند طبيبه''.

بهت السائق ولم يعقب بأي كلمة لكنه عصر مقود السيارة في يديه.

لم تتفوه ماما ليلي باي شيء طوال طريق العودة، بقيت ساكنة في مقعدها

تبكي بصمت، وسألت عدة مرات عن شدة مرضه ثم أمسكت بكتف ابومحمد وكأنها تريد الارتكاز على شيء وسألته:

''هل مات عمي؟

ألتفت اليها وقال بنبرة مطمئنة:

'' لا، لا هي فقط وعكة صحية.

إلا أن سؤالها جعله واجما وفكر الثلاثة في الوقت نفسه: '' ماذا لو مات؟

توقفت قدرتها على الاستيعاب تماماً، وكأن الأمر لا يعنيها لا من بعيد ولا من قريب.. واستراحت لحالة الذهول والغباء المريح الذي أصابها، ومع اهتزاز السيارة والقيظ المتعطر برائحة البنزين والصمت جعلها تنام كطفلة... لم يكن الجو ملائما للنوم بل كانت راحة التهرب من الواقع... لم تستيقظ إلا على صوت جارها يقول:

''يالله انزلي لقد وصلنا''.

وما أن توقفت السيارة حتى انغرزت عيون الجالسين على الرصيف فيهم. انتفض الجالسون من مقاعدهم. نظرات حائرة أحاطت أبومحمد. مستفسرة عن سبب عودتهم السريعة وعن نتائج الزيارة. قال ابومحمد واجماً:

''لقد تمرض وسافر.. إنه ليس هناك''

بينما كان يشير بإصبعه إلى القصر. جلس ابومحسن القرفصاء وأمسك جبينه بيده. وجم ابوعلي وأحمر وجهه، ولم يعد ابوسليمان يتحمل سماع

المزيد. بعد زوال تأثير الصدمة الأولى صبّوا اهتمامهم بمعرفة موعد رجوعه. أخبرهم بأنه " لا أحد يعلم بذلك " قال ابومحسن:

"عندما سافر في المرة الاولى بقي هناك عقودا قبل أن يتصل؟

سكتوا، وبدئوا ينفضون من المجلس كل الى مصابه.

أما هي.. فنزلت من السيارة وقد توشحت بالقلق بسبب نظرات الرجال المنتظرين، والتي انتظرت منهم الاهتمام بأمرها.

سارت بخطوات قصيرة، وكأنها كانت تنتظر من سيهتم بأمرها، سارت بوقار وصمت، دموعها جعلت كل شيء ضبابيا أمامها، تعثرت وكادت أن تسقط، لم يتحرك أي من الرجال لمساعدتها كانوا مشغولين بمصابهم.

أحزنها صوت زقزقات باب البيت عندما فتحه، زقزقات تشبه الآهات. أغلقت الباب خلفها ورمت بنفسها عند جذع شجرة الجوز. لم تنتظر طويلا حتى جاءت النساء اليها مواسيات وباكيات، على حالها وحالهن.

بقي ابومحمد في مجلسه مع رفاقه في المصاب... ما أن يذهب أحدهم إلى بيته حتى يعود إليهم بفكرة جديدة، لكن كل الأفكار كانت بلا جدوى.... كان الحضور يوميا في الأيام التي تلت مصابهم... بعد اسبوع اتفقوا على أن يذهب ابومحمد الى مكتب البريد في ظالمايا العليا ليتصل ويطمئن عليه. جلس الرجال على رصيف الصبر منتظرين عودته.

في مكتب البريد شعر بتوتر متزايد أثر على وتيرة أنفاسه وهو يسمع التلفون يرن قبل أن يسمع صوتا يحدثه بالسويدية. فأجابه بالعربية:

- هل استطيع الحديث مع ابوادوارد؟

سمع صوتا نابيا يقول:

- من أنت، وماذا تريد منه؟

أنا ابومحمد صديقه.

- نعم، نعم، الحقيقة لا يستطيع الحديث وسيتصل بكم لاحقا.

من أنت؟

- أنا سليم..مع السلامة.

أغلق الخط وبهت ابومحمد، وبقيت اسئلته بلا إجابة متى سيتصل؟ وكيف هو وضعه؟

كان الرجال بانتظاره، وقفوا عند وصوله وقصفوه بالأسئلة وهو على مسافة منهم وكأنهم لم يعودوا يستطيعون الانتظار لدقيقة أخرى.

أشار لهم بيده أن يصطبروا قليلا، وما أصبح بينهم حتى تكوّرت شفتاه بحركة حزينة وأعاد لهم الكلمات التي تبادلها مع سليم كلمة كلمة.

كانوا يجلسون جلسات طويلة حتى تفرغ أكياس تبغهم. لم يتحدثوا في تلك الأيام أبداً عن التبغ بل كانوا يجترون جراحاتهم، ليتشاجرون بعدها.

بعد اسبوعين طلب ابومحمد من زوجته أن تقنع ماما ليلى أن ترافقه الى القصر لتسأل عن عمها وتطلب الحديث معه، وتبرع ابوسليمان بأخذهم بسيارة صديقه وأعادوا الكرة، وكلفهم اجتياز البوابة الكبيرة الكثير من

الترجيات زادت عن المرة الأولى، وعند الباب قال لهم ابومحمد بأن ماما ليلى معه وتود الحديث مع عمها. فخرج اليهم مسؤول الدار وقال لهم " أن ادوارد قد طلب منه عدم الاتصال لأن أباه في غيبوبة". أخرستهم كلماته وبدأت هي بالنحيب، إلا أن ابومحمد اقترح عليها الذهاب الى البريد ومحاولة الاتصال به والاطمئنان على وضعه.

دخلت مكتب البريد وانتظرت دورها، أعطى ابومحمد رقم التلفون للعامل حتى سمعه يناديه تلفون رقم ثلاثة. رفعت السماعة وتحدثت بتلعثم:

- الو.. مرحبا.
- نعم .. تفضلي.
- أنا ماما ليلى...

سكتت فاتحة عينيها مترقبة الرد، أجابها:

- أهلا.

ليصمت من جديد.

- كيف حال عمي؟
- في غيبوبة؟

لم يحدثها أحد من قبل بمثل هذه الواقعية الصفيقة. أسمعته صوت بكائها، وانتظرته ليواسيها. سمعت صوتا خالي المشاعر:

- سيتصل بك عندما يفيق.. مع السلامة.

وأغلق الخط، تكررت محاولات الاتصال وكان سليم هومن يجيب في كل مرة، وكان في كل مرة كالمرة الاولى قليل الحديث وفي نبرة صوته شيء يشبه نباح كلاب القرى تجاه الغرباء.

بعد شهرين توالت النكبات على القرية والسبب في عيونهم كان أنطوان ولا أحد غيره، سافر قبل أن يفي بوعوده.

زرع أبومحمد أملاً كبيراً في أرضه و حصده خيبة أكبر... ولم تجري المياه في سواقيه الجافة... كل شيء بقي على ما كان عليه سوى أنه فقد ما كان قد ادخره.

السيارة بقيت قطعة حديد أمام بيت أبوسليمان.

أبومحسن أصيب بشلل دماغي بعد أن اضطر لبيع بيته.

أما ماما ليلى فبقيت غارقة في ندمها.... وتقرّع نفسها بأسئلة تكررت على لسانها كالاذكار طول اليوم:

" لماذا لم أطلب منه أي مبلغ من المال؟

" لماذا لم أقل له نعم أحتاج أن تساعدني عندما سألني؟ لماذا، لماذا لماذا؟... ندمها على تفويت هذه الفرصة كان سماً تتجرعه يومياً يزداد كلما نقص رصيدها النقدي.

مساعد القزم تأكد بأنه سيبقى قزماً لأنه لن يتمكن من شراء حذاء بكعب عالٍ، وسيبقى منسياً لا يرتقي إلى مستوى البصر.

محلّ القصاب في ظالمايا العليا بيع لقصاب آخر، فأصبح أبوعلي لعاناً كبيراً مع كل لعنة يطعن الشاة بسكينه ويكرر:

''اللعنة عليكم يا سادة''... عندما يقطع جلدة لا تباع يصفعها بالأرض صفعاً، يسب أولاده ويعيد لعن السادة.

هكذا أصبح أنطوان عدو القرية الأول وسبب شقائها المباشر، العلاقة بين أبومحمد وأبوسليمان تأزمت لأنَّ الأخير لم يتمكن من سداد المبلغ، و لم ترحم أم محمد زوجها الذي هدر المال على صديقه النصراني و أقرض المال لنصراني آخر. باتت تكره كل الأغراض المنزلية التي كانت تريد تجديدها من قدور ومعالق والبريموز.. فتلعن القدور وهي تطهي الطعام، وتلعن سريرها عندما تنام وتلعن بيتها عندما تنظف، وتلعن في قلبها زوجها قليل الحكمة... كل شيء في المنزل أصبح بغيضا حتى زوجها.. زادت الشجارات بينها وبين زوجها حتى أصبحت يومية، ضربها زوجها للمرة الأولى منذ زواجهما وأوشكا على الطلاق.

لعنت المسيحيين وقطعت علاقتها بجارتها كما لعنهم الكثيرين.. منهم من قال طبعا لا يعطينا لأننا مسلمين... وباتوا يختلقون قصصا عن النقود التي أعطاها لابنة أخيه والتي تخبئها الآن لتخرجها بعد حين.....

المسيحيون ادعوا قائلين:

''هم يعادوننا لأن انطوان مسيحي''.

تطور النزاع بين أبومحمد وأبوسليمان الذي لم يتمكن من رد الدين له،

وبات الواحد يقول للآخر:

هذا لكونك محمدياً والآخر يجيبه لكونك نصرانياً، فوقف المسلمون مع ابومحمد ووقف المسيحيون مع ابن ملتهم...بات شجار اولاد المسلمين والمسيحيين سببا كافيا لشجارات وعراك بين الكبار، وكأنهم بحرب مذهبية. حمل الكثير من الصبيان عصياً معهم، لاستخدامها في شجار غير متوقع. زاد عمل ياسين الحلاق ليس في الحلاقة بل لخياط الجروح والتضميد.

رغم الجو المحتقن في القرية بقي عمل مايكل ومشروعه مصدر أمل لهم، كضمادة صغيرة على جرح كبير كان يزورهم ويبلغهم باستمرار عن تطورات العمل.... كانوا جالسين في صباح يوم مثقل بالهموم في مجلس ابومحمد عندما جاء مايكل مبتهجاً قال جئتكم مبشرا بقرب تنفيذ المشروع، ومودعا بعد أن أتممت مهمتي بنجاح ومتمنياً لكم الخير. كل شيء في نصابه الصحيح المال تم تحويله الى مقر البلدية في أم العيون ولم يبق سوى تحديد قطعة الأرض لتنفيذ المشروع عليها، وسيتابعه سعيد ومنظمة اولادنا.... شكره ابومحمد ورسم بعناء ابتسامة على وجهه وهو يحدثه عن عظمة مشروعه وما سيقدمه من نفع لأولاد ظالمايا السفلى، مسحة حزن لاحت على وجه ابومحمد وقال بعبرات خانقة " كنت أتمنى لو سمع ابومحسن هذا الخبر" اغرورقت عينا مايكل بالدموع وقال لهم بسرور وكأنه يحاول مسح الحزن من على وجوههم:

"خلال ايام سيصدر قرار بتخصيص قطعة الأرض وسيوضع حجر

الاساس، ليتم بناء المدرستين عليها خلال عام واحد".... بعد اسبوع وبالضبط كما وعدهم، وضع حجر الاساس لمشروع المدرستين في ظالمايا بتعديل بسيط في قرار الانشاء الذي صدر عن البلدية. استبدلوا كلمة واحدة في القرار بدل السفلى كتبوا العليا. بائت كل محاولات مايكل لتغيير القرار بالفشل، انفعاله وصراخه في وجه سعيد لم يغير من الأمر شيئا... أعتذر سعيد من مايكل عن ما جرى ووعده بأن لا يتكرر هذا الخطأ في المرة المقبلة.... أمطر الاضطهاد يأسا على ظالمايا السفلى، فجعل أهلها غير قادرين لا على الثورة ولا حتى الاعتراض، بعدما فقدوا أبوماجد الحطاب الى الأبد.

قرأ مايكل الشاذلي الجرائد المحلية قبل سفره بيومين وكانت تحمل صورة كبيرة للسيد سالم حمدان على الصفحة الاولى وهو جالس في قصره الجديد الذي اشتراه من ورثة جاسم سليمان، جالساً في صالة قصره الكبيرة على يمينه شباك كبير يطل على العالم السفلي وعلى يساره، في الزاوية البعيدة موقد النار من الجرانيت الأبيض، اشتقت ألوان الصالة من منتجات الحليب ناصع البياض الى الحليبي الأصفر كلون القشدة الى الأصفر كالجبن.

كان لقاءا صحفيا: يبين مدى امتنان دار البلدية على تعاونه مع المنظمات الدولية لبناء مدرستين في ظالمايا العليا. رمى مايكل الجريدة جانباً ولم يخرج من غرفة الفندق ولم يجب على اتصالات منظمة اولادنا حتى حان موعد سفره فخرج الى المطار وطلب من السائق أن يأخذ الطريق الدائري بعيدا عن ظالمايا العليا.

سافر مايكل حاملاً معه جرح حلمه المغتصب، فقد وجهه بشاشته وفارقته الابتسامة المشرقة التي رافقته طيلة حياته وحل بدلها ذهول يشبه ذهول ابو مريم. لم يخفف عنه سوى لقاءاته بابومريم والجلوس معه في ذلك المقهى البائس، ليحدثه عنها وليأخذ منه حبة سريع تساعده على نسيان وجعه.

أما هي فكانت منكوبة بما حدث خصوصاً أنَّ الجاني هو عمّها، تجنبت نظرات الناس.... فكانت تقضي كل يومها بتنظف البيت وتتطهر لكي تنظف البيت من جديد، لم يعد أحد يبالي بتيبس أطرافها وأوجاعها.

وقفت طويلاً ذات يوم بجانب الفتحة التي بينها وبين بيت جارتها.. امتدحت أم محمد واسمعتها كلمات طيبة.. نادتها بترجي.. لكن أم محمد لم تجبها ولم تزرها... فيما مضى كانت تقريبا تشتمها ولا يمضِ أكثر من ساعة حتى تكون عندها... عادت تشكي همها لصديقها الوفي سطلها المعدني.

"أنت الوحيد الذي لا ينغص علي حياتي... ولا يؤذيني بل فقط يخفف عني ويغسل همي".

وقبل أن تبدأ بالعمل سمعت صوت شجار في الخارج، مدت رأسها من الباب الخارجي الذي باتت نادرا ما تفتحه وشاهدت شابين متماسكين بالايدي، فلم تعرف من هم لضعف بصرها، تدخل الشباب والرجال بينهم، إلا أن أحدهم رمى بحجر أصاب رأس الآخر. فسب الاخير المسلمين وركض من المكان بينما كان الكلمات البذيئة بحق المسيحيين

تلاحقه حتى بعد أن غاب عن نظرهم سألت صبياً يقف بجانب دارها عن ما جرى؟ أجابها مبتهجاً:

"كسر زيد رأس سليمان القذر، نصراني" نهض رجل من مجلس ابو محمد، كان يرتدي دشداشة قصيرة، حليق الشارب وله لحية طويلة غير مشذبه، وتوجه اليها وعلى مسافة قصيرة اسمعها صوته الأجش قائلاً:

- مسيحي قذر وطُرد من الحي.

نظرت في وجهه بامتعاض:

- هذا أنت؟

أجابها بتهكم:

- ومن يكون غيري.

أجابته بحنق:

- قذر.

أغلقت الباب بأسى، عندها أدار ميسر ظهره عائدا الى مجلسه مرتاح الضمير، ومذكرا الحضور بما قاله لهم سابقاً، بانه يجب عدم الترحم على المسيحيين عند الموت، وأكمل قائلاً لهم أعيادهم ولنا أعيادنا... صمت الجميع ولم يعارض رأيه أحد هذه المرة.

كان الرجال يجتمعون يوميا على رصيف الاحتساب، يدخنون سجائرهم ويسبون المسيحيين، ولا ينفض المجلس إلا عند إطفاء السيجارة الاخيرة،

وبموت السيجارة تموت آخر فكرة لإخراجهم من مأزقهم. كانت تسمع ابشع الكلمات تصف عمها والمسيحيين.

نقمتها على حياتها أجلستها ذات مساء على سلالم السطح، في ذلك الوقت كانت كل مفردات حياتها مصدر يأس، أخرجت كيس تبغها الرديء الذي هجرته منذ زمن شعرته كان بعيدا، عادت اليه بعد أن دخنت السيجارة الأخيرة من السجائر التي حصلت عليها من عمها، وبنفخها للنفس الأخير لم يبق من عمها أي ذكرى. تذكرت زهوها وهي تدخن السجائر ذات الفلتر.. كانت تشعل سيجارة جديدة مع دخول كل ضيفة، لا لحاجتها إلى النيكوتين بل للتباهي بهذا النوع الفاخر من السجائر التي حصلت عليه من عمّها، وها هي الآن تعود إلى تبغها الرديء والرخيص وتلف سيجارة وتضعها بعجلة في فمها وتشعلها بينما أصابعها تعمل على لف الثانية... كان لسجائرها مذاق شديد المرارة، إلا أنها كانت ممتنة لهذه المرارة، لأنها تنتزعها من واقعها وتجعلها تركز على تغيير تركيز المرارة في فمها ما بين سحبه وأخرى... ثم تنظر إلى أعلى السلم ومن ثم إلى باحة الدار. كانت عيناها غائرتَين ولحم وجهها قد تحول إلى مادة طينية يتغير شكلها حسب حركة رأسها.

لم يعد لها صديق غير ذكرياتها وبعض الرموز التي كانت تتحدث اليهم بصوت مسموع كشجرة الجوز التي تمثل والدها:

" لقد هجرني الجميع وها هو بيتي قد أصبح كجامع المسلمين.. لا يأتي

إليه أحد إلا عند الصلاة ولا يقطنه غير المقيم وأنا كمقيم الجامع، وساعات الصلاة قد انتهت، أنت متّ وأمي ماتت وعمي هاجر من جديد بعد أن قطع صلتي بالعالم"...

ثم تنظر الى غرفة أمها: "وأنت يا أمي... لماذا تركت ارثك لأخوتك.. كان عليك أن تسترثي لكي تحميني من ما آلت إليه حالي.. انهضي يا أمي وانظري ماذا جرى لي.. انظري ما فعله بي إخوتك".

احترقت أصابعها وهي تسحب النفس الاخير من سيجارتها، فأعادها الألم إلى واقعها، تنهدت وأشعلت سيجارة جديدة من عقب القديمة قبل سحقها له تحت قدمها، ثم حملت العقب ومسحت الأرض من أثره. نظرت باتجاه بيت أبومحمد... " وأنت يا أبومحمد لم تعد تسأل عني وابنك زيد الذي هوأخي لقد شبع حليبا من صدر أمي.. على كل حال أنتم المقصرون... أمي كان لها موقف مشرف معكم. هي التي ارضعت ابنكم.. كانت عادلة بيننا صدر لي وصدر له. الحليب أصبح ماءً يا زيد. ليغفر لكم الرب".

فجأة شعرت بالبرد الذي تغلغل الى عظامها بعد أن جلست طويلا على السلالم ولم يعد لضوء الشمس أثر. دخلت الغرفة وأشعلت المدفأة النفطية التي باتت تقتصد في استخدامها بسبب خلو جيبها من المال، جلست أمامها تستمع الى تكتكات الساعة الرتيبة المعلقة على حائط الصالة، صوت الساعة كان قادراً على استدعاء كل مشاعر اليتم.

بعد دقائق سمعت صوت النار تتقطع ثم بدأ الدخان يخرج من المدفأة فمالت في كرسيها ووضعت رأسها على حافة الكرسي كانت روحها كروح سنجاب كسيح لا يستطيع تسلق شجيرة وكانت تقول لنفسها ما قالته ثكلى من قريتهم قبل زمن بعيد:

ابك يا ظالمايا انتحبي

ليت وباء يفنيك وينهيني

طوفانا يغرقك ويعميني

اللعنة عليك وعلى كل سنيني.

سمعت رجلاً يصرخ بقوة "لا يا سليمان.. لا". ارتجفت عندما دوى صوت طلق ناري. سكتت واجمة وبعد ثواني سمعت صرخة قصمت ظهر السكون كان صوت تستطيع تمييزه بين ألف صوت، كان صوت جارتها أم محمد تصرخ بأسم ابنها زيد بحرقة.

همت بالوقوف، خانتها قدماها.

فقدت قدرتها على الفهم فتحت عينيها مبهوتة...

ثم جاءها صوت ميسر الأجش يصيح:

"سنقتلهم جميعا و نطهر القرية منهم" أجابه صوت رجل لم تعرف من هو لشدة صراخه: " لن نبقي منهم أحد"

أمسكت بمقبض الكرسي وهمت بالنهوض مجددا إلا أنها هوت و غاصت في كرسيها.. أخذت نفساً عميقاً وحدثت نفسها بصوت متعب " لعنة الرب .." ولم تعد تستطيع تحريك لسانها وبقيت تنظر إلى النار تلفظ أنفاسها الأخيرة.....